

نادي الانتحار

الصيد، كريم

نادي الانتحار

نيوبوك للنشر والتوزيع

20 × 14 سم

تدمك: 9789779960302

رقم الإيداع: 26495/2019

1 - القصص العربية

أ - العنوان

دار النشر: نيوبوك للنشر والتوزيع

عنوان الكتاب: نادي الانتحار

الكاتب: كريم الصيد

رقم الطبعة: الأولى

تاريخ الطبع: 2020

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للناشر



نيو بوك للنشر والتوزيع

ويحظر طبع، أو تصوير، أو ترجمة، أو إعادة تنضيد للكتاب كاملاً أو جزئياً، أو تسجيله على أشرطة كاسيت، أو إدخاله على الكمبيوتر، أو برمجته على أسطوانات ضوئية، إلا بموافقة الناشر الخطية الموثقة

نيوبوك للنشر والتوزيع

6 عمارات الدفاع الوطنى - حدائق القبة - القاهرة

تليفون: 01092673274

newbooknb@gmail.com

كريم الصياد

نادي الانتحار



تنويه

«جميع الشخصيات والأحداث الواردة في هذا العمل من خيال، ولا علاقة لها بالواقع، وأي تشابه مع الواقع هو مصادفة خالصة»!

ولكنّ عندي كوناً يجب أن يَنْفَدَ، وقيامَةٌ يجب أن تُنْجَزَها،
قبل أن أنام في العوالم الفارغة

إلى معا ورائيا ومجدي وفرحات وأحمد.. وأنا

المحتويات

١٥	الفصل الأول: السيارة.....
١٥	١ - آخرُ الأعضاء.....
٢٣	٢ - أولَى العمليات.....
٣٥	الفصل الثاني: المائدة.....
٣٥	١ - Superpower.....
٥٦	٢ - عالمٌ منصور.....
٦١	الفصل الثالث: الفراش.....
٦١	١ - عالمٌ فريد.....
٧٨	٢ - صُعود سَلَمَى.....
٨٥	الفصل الرابع: الجدار.....
٨٥	١ - صُعود منصور.....
٩٣	٢ - قواعد القتل الأربع.....
١٠٣	الفصل الخامس: الصالون.....
١٠٣	١ - جبروت بدون صوت.....



- ٢ - عالم يمى ١١٣
- ٣ - عن مقامات الحشيش الثلاثة ١٢٧
- الفصل السادس: المَكْتَب ١٣٧
- ١ - صفحة الوفايات ١٣٧
- ٢ - الظهور الأول للدرويش ١٤٤
- ٣ - محاورات تَحَابُّرِيَّة ١٥٣
- الفصل السابع: الشُّرفة ١٦٣
- ١ - شَكْلٌ بلا جسد ١٦٣
- ٢ - عالم فكتور ١٧١
- ٣ - الشهيد ١٨٢
- ٤ - مَشْهَدٌ مِن ديفيد لينش ١٨٨
- الفصل الثامن: المَحْوَر ٢٠٣
- ١ - عالم سلمى أو المحاور الثلاثة ٢٠٣
- ٢ - المَحْوَران ٢١١
- ٣ - المحور الواحد ٢٢٨
- الفصل التاسع: الدوائر ٢٣٧
- ١ - عالم هيشم ٢٣٧
- ٢ - تفكيك أمل دنقل ٢٤٩



- ٣- أساليب غير نظيفة ٢٦٩
- ٤- الرقص على إشعاع هوكينج ٢٧٥
- ٥- مُفَاعِلَات عَدَمِيَّة ٢٩٨
- الفصل العاشر: الأبعاد ٣٠٩
- ١- زائر الليل ٣٠٩
- ٢- انهيارات جليدية ٣١٧
- ٣- عن بيتهوفن والإنتروبيا وتوماس الأكويني ٣٢٧
- ٤- الرسول العكسي ٣٣٦
- الفصل الحادي عشر: الأرض ٣٤١
- ١- هبوط أدهم ٣٤١
- ٢- رقصة الحُجُب السبعة ٣٤٥
- ٣- الأرض المحروقة ٣٥٣
- ٤- لغز سمير عياد ٣٦٢
- ٥- برهان المُحاكاة ٣٦٧
- الفصل الأخير: السماء ٣٨١
- ١- سَمَا المَلَاكِي ٣٨١
- ٢- الأُم ٣٨٨
- ٣- آخر عمليات النادي ٣٩١



- ٤ - الأخضر والأسود ٣٩٦
- ٥ - عزيزي فرؤيد ٤٠٩
- ٦ - نادي الانتحار ٤١٦
- تمّت ٤٢٣
- الكاتب في سطور ٤٢٥

الفصل الأول السيارة

١ - آخرُ الأعضاء

«نحن مجموعة من المكتئبين، قررنا بعد فشل البدائل الأخرى أن نعالج أنفسنا بأنفسنا، وذلك عن طريق العلاج الجماعي. وحين فشلنا قررنا الانتحار الجماعي. هذا مقرّرنا الدائم، وسيكون مقرّرنا الأخير. فهل تقبل الانضمام إلينا؟».

كذا تكلم الدكتور (فريد طلعت) بصوته الرتيب، ووجهه (البوكر)، الذي لا ينفعل إلا نادرًا، حاجبًا الجزء الغالب من مشاعره. وهو الوجه الذي لم يستطع محدّثه (منصور الدواخلي) اختراقه ببصره أو بخياله، فرمقه للحظات، ثم جال بعينه في الجالسين معه على المائدة، فرآهم ساكنين، ينظرون إليه في شيء من الملل. وحين انتهى من تأملهم، عادت عيناه إلى (فريد)، الذي ظل يرمقه رافعًا حاجبيه، لا يدري أفي اصطناع براءة ما، أم في فضول علمي. ويبدو أنه أحس بطول فترة صمته وتردده، فقال بصوت مرتجف قليلًا:

- الانتحار؟

هزّت (يمنى السيد) شعرها الخشن الأسود المتداخل في عشرات الضفائر كميّدوسا، وقالت في شيء من نفاد صبر:



- يا بني اتكلم.. معانا ولا مش معانا؟

نفث (فكتور الملاكى) دخان غليونه في وقار كعاداته، ومطّ شفّتيه في ملله الفلسفي، وهم بالكلام، لكنه سعل رغماً عنه للحظة، فتنحّج (منصور) في توتر، وقال:

- لا أدري.. لقد قرأتُ عنكم على صفحتكم في فيس - بوك أنكم شكلتم جلسات علاج جماعي Group therapy، ولم يتضمن الأمر هذا التطور الخطير.

أشار (فكتور) بالبايب كأنه يد بديلة ذات أصبع واحد، وقال:

- منطقي! هل تتوقع أن نعلن عن أمر كهذا؟!

قالت (يمنى) بصوت قاتم:

- يا جماعة قلت لكم أنه لا مجال لإقحام آخرين.

هنا.. تنبّهت (سلمى شاهين) كأنها كانت نائمة منذ بدء الجلسة، وهمست بصوتها ذي الرجفة والبعة الدائمتين:

- افرضوا - يعني - بلّغ عنّا؟

نظر لها (فريد) في إعجاب ضئيل جدّاً، لمع لجزء من الثانية على ملامحه الثلجية المصوبة بعناية فائقة، لكن (يمنى) لاحظته بذكائها الجبار، فابتسمت بخبث دون اقتصاد، وهو يقول بصوت القاضي الرتيب:

- البلد حصل فيه ثورة، لن يلاحظنا أحد، ونحن لا نرتكب جريمة على كل حال.



نعم.. كان هذا في الشهور الأولى لثورة يناير، والقاهرة تغلي، والاحتمالات تأتي على المستحيلات.

هنا فقط قرر (هيثم الجمال) الجالس على رأس المائدة أن يشير بيده إشارة حاسمة، وقال بصوته الجمهوري:

- لا توجد جريمة. ولا يوجد دليل حتى إن وجدت جريمة. وعلينا أن نمنحه بعض الوقت ليفكر. وتذكروا أننا لا نقدم خدمة لأنفسنا فقط، بل للإنسانية كذلك، هناك من يريدون الخلاص من حياتهم، لكنهم يفتقرون إلى مَنْ يريدون ما يريدون.

ثم وجه سبابته، التي لم يكن يستحي من توجيهها في وجه من يشاء، إلى عيني (منصور) الغائصتين في وجهه الأسود اللامع، الشبيه بوجوه الفراغة المتناسبة بدقة، وقال في تحذير:

- لكن تذكر أنت أيضًا أننا لا نقدم هذه الخدمة سوى للمكتسبين.

ثم التفت إلى يمينه حيث جلس (فريد)، وقال:

- استلمه أنت من هنا يا دوك.

ونهض متنهّدًا قائلاً:

- انتهى الاجتماع مؤقتًا، نشرب حاجة، ونشوف فيما بعد موضوع عضويته.

وخرج إلى الصالون الواسع الفخم لشقته، التي جعلها مقر هذه الاجتماعات، وقام بصب بعض ويسكي السكوتش ذي التقطير المنفرد single- malt، وتأمل قليلاً طعم الخشب القديم في فمه، قبل أن يزدرده في قوة. صعد الكحول إلى رأسه سريعًا، فزفر في ضيق، وقال ساخرًا:



- ثورة؟ هي في ثورات بنتجح؟

فوجئ بـ(يمنى) واقفة على مدخل الصالون تشعل سيجارة، وهي تعقد إحدى ذراعيها على صدرها، وتقول:

- ليه لأ؟

نظر لها لثوانٍ، ثم هز رأسه باستهتار، وردّ:

- ابقى قابليني، دي هدية للإسلاميين منتظرينها من زمن.

قالت بصوتها الرنان الجميل باستهتار مماثل:

- أقابلك فين؟ إحنا هنا نتحر الأسبوع دا.

استرخى، وهو يجرع بقية كأسه قائلاً:

- في الجحيم، إذا فرضنا فيه واحد. بس أنا كائن متطور، وها أدخل الجنة.

عندئذ جاء (فكتور) بجسده الضخم، وشعره الطويل، ولحيته المشعثة، التي تجعله أشبه بـ(كارل ماركس) أو (يوهانيز برامز)، ونقل بصره بين الاثنين كأنما يشترك في المحادثة، لكن (هيشما) سأله بلهجة مازحة:

- الدكتور كشف عليه؟

كان (فريد) جالساً مع (منصور) على انفراد، وهو يسأله عن تفاصيل مرضه، وتشخيصه، فسأله (منصور):

- هو حضرتك دكتور نفساني؟

هز (فريد) رأسه نفيًا، وقال في برود تام:



- أولاً ما فيش داعي للألقاب هنا، ثانياً أنا طبيب شرعي في الحقيقة، ومعايا دبلوم نفسية. وبأشتغل من فترة مع ضحايا التعذيب، ومراكز حقوق الإنسان. وأنا بحاول أتأكد من حالتك؛ علشان ما يحصلش وتضعف في اللحظة الأخيرة. كل اللي أنت شايفهم هنا يائسين فعلاً، وقتلوا أرواحهم من زمان فعلاً، وباقي أجسادهم. أنا عاوز أتأكد بالتالي من نقطة واحدة..

وعقد كفيه أمامه على المائدة، واستأنف ناظرًا إليه في إمعان:

- هل قتلت روحك؟

ارتدّ (منصور) واربتك، فتأكد (فريد) أنه شخصية ساذجة بريئة غالباً، ولهذا فهو صادق كذلك غالباً. كان (فريد) يفهم الناس بنظرة واحدة مع إطلاق عبارات اختبار كهذه، لكنه لا يصريح بما فهم عادةً؛ كيلا يأخذوا حيطتهم. أشاح (منصور) ببصره، وقال:

- لا أعرف الحقيقة. لكنني فكرت في الانتحار كثيراً.

عاجله (فريد):

- هل حاولت؟

- نعم..

وكشف رسغه، فرأى (فريد) بخبرته اختتام النصل الرهيبة.

تراجع (فريد) في مقعده، وابتسم للمرة الأولى في تقدير (ابتسامة محدودة جداً مع ذلك)، وغمغم:

- ممتاز.



هنا دخل عليه (ماركس)/ (برامز) المعروف بـ(فكتور) قائلاً:

- هاه؟ خير؟

نظر له (فريد) في صمت، منتظراً عودة الجميع، وحين دخل الباقون، أمسك أمامهم معصم (منصور) المرتبك بكف باردة، وقال بالإنجليزية بصوت ثابت كقاضٍ يصدر حكماً:

- We got a winner!



بعد انتهاء الاجتماع، الذي تم فيه ضم (منصور) إلى المجموعة، كانت (سلمى) في سيارة (فكتور)، وهي تكافح بجسدها البض بين ذراعيه، وهو لا يعرف بالضبط إن كانت تدفعه أم تستحبه على المزيد. حاول أن يفتح أزرارها، فتراجعت بسرعة، وقالت:
- لا، لا، بلاش.

تركها تنسحب، وتأملها لحظة في ضيق، وهو يعرف من خبرته مع النساء أنها لا ترفضه، لكن هناك عائقاً ما، فسألها:
- عندك موانع دينية أو أخلاقية؟

انكمشت أكثر، وهي تغلق المزيد من أزرارها، ونظرت عبر نافذتها، وردت:

- موش عارفة.. آه.. فيه موانع دينية، يعني، علشان حرام.

قال لها بطريقته المندفعة نوعاً:

- ما ف ديني أنا كمان حرام.. بس إحنا هانتحر، والانتحار قتل، وها نشجع بعضنا على الانتحار، يعني ها نرتكب أكثر من جريمة.



ظلت صامته ساكنة، فأدرك أنه انسحب من لسانه كالعادة، فاستدرك:

- أنتِ مش بتحبيني؟

تأملت قليلاً في سقف السيارة، وقالت في بساطة:

- آه.. يعني.

- يعني إيه؟

هزت رأسها في ملل مفاجئ، والتفتت إليه، ورفعت عينيها الواسعتين الشاردين شديديتي البراءة، وقالت باسترحام بدا له فاتناً إلى أقصى حد:

- فكتور أنا مضطربة، موش عارفة أنا عاوزة إيه.. بس بعمل اللي بحس به.. معلىش ما تزعلىش.

نظر لها في دهشة، وهو يتذكر كيف طلبت هي منه منذ يومين أن يقبلها وهما في أحد المصاعد، وقبل أن يرد كانت قد فتحت باب السيارة، وترجلت، وهي تقول:

- ودالوقت حاسة أنني عاوزة أروّح.

انتزع نفسه من دهشته، وقال:

- طيب أوصلك؟

- لا، لا، بابا يشوفنا.

كانا بالفعل قريبين من دارها، فمضت عنه، وهو يضرب كفّاً بكف، ويهمس:

- يا بنت المجنونة!



وأدار سيارته، لا يدري إلى أقرب بار أم منزله. أما هي فمشت قليلاً، ثم توقفت قبل أن تصعد إلى بيتها، وأخرجت هاتفها المحمول طالبةً رقم (هيثم):

- آلو.. أيوا يا (سلمى) ..

- مساء الخير .

- مساء الخير .

-

- مالك؟

-

- طيب أنتِ فين؟

هنا أجهشت بالبكاء في تلقائية تماماً كالأطفال، وهي تمسك بالهاتف بيد، وتدعك عينها الدامعة بيد، ولا ترد.

- طيب اهدي.. أنتِ فين؟ قولي لي.

- في الشارع بتاعنا.

- حصل إيه؟

- حد.. حد.. لمسني.

كتم (هيثم) مايك الهاتف، وهو يهمس في قنوط:

- تالاني؟!

فقال له (فريد)، حيث جلسا يسكران، ويحششان، في صالون الأول:



- لازم تُروح لها.

فأنهى معها (هيثم) المكالمة، بعد أن وعدّها أن يأتي بسيارته بأقصى سرعة، ونهض ليرتدي معطفه، فسأله (فريد):

- ها تعرف تسوق؟ أنت سكران لدرجة التعتيق.

ترنح (هيثم) فعلاً، وهز رأسه في قوة، وتردد صامتاً. وهنا انتهز (فريد) الفرصة، وقال:

- هات المفاتيح. ها أُرُوح لها أنا.

فناولته (هيثم) المفاتيح باستسلام، وقال:

- ما تسيبهاش يا صاحبي لغاية ما تطلع بيتها.

وقبل أن يغادر (فريد)، سمعه، وهو يغمغم:

- هي البنت دي الدنيا كلها بتتحرش بيها؟

ضحك (فريد)، وقال:

- أشوفك بكرا.



٢ - أُولَى العمليات

كان (فريد) يقود، وهو يفكر أن من السهل التلاعب بالرجال نوعاً مقارنةً بالنساء، بالذات من هن على شاكلة (سلمى)، التي تكسر المنطق كسراً. لكنه لا يريد مجرد التلاعب بها، هو يريد لها هي. ولكن ما أقصاها! إنها تحتاج إلى شخصية قيادية كاسحة مثل (هيثم)، أو محبة حنونة



مندفعة، هوائية مثلها، مثل شخصية (فكتور). أما هو فلن يقدم لها شيئاً بطبيعته العقلانية الباردة، المتعالية إلى حد ما. لكنه على وشك الانتحار في غضون أيام، ويريد أن يكون معها أطول فترة ممكنة. هل يحبها؟ لا يدري. لم يحب في حياته، وقد تجاوز الثلاثين. قضى ليلة مع امرأة أو اثنتين على سبيل التجربة، لكنه لم يتعلق كثيراً بالحب أو بالجنس. كل ما لا يؤدي إلى المخدرات أو الموت هو - في رأيه - محض عبث.

وصل إلى شارعها، ورآها. فكّر أن عليه اصطناع شيء من القلق على ملامحه. هو لا يريد خداعها، لكنه فعلاً لا يدري كيف يقلق إنسان على إنسان أو يشفق عليه، ولا يدري إن كان هذا الاصطناع كذبة، لا يعرف مدى عتامتها.

قال لها بعد أن رسم بعض القلق والاهتمام:

- اركبي يا (سلمى)، (هيثم) ما يقدرش يبجي.

لم تسأله عن (هيثم)، وهي تدلف إلى السيارة جواره، وكانت قد كفت عن البكاء، فجلست في شرود واسترخاء. رمقها بنظرة جانبية، وهو يتسم رغماً عنه. جميلة جداً، وساحرة. وجه يشرق أمامك كقمر صغير، شبيه بوجه شريهان بالذات في ذروة جمالها، لكن مع لمسة طفولية واضحة، وشعر أسود لافت الطول والكثافة، وجسم بالغ الأنوثة والرشاقة معها، ولو أننا في الصيف لرأيناها وهي تكشف ذراعيها الأسطورييتين، وربما صدرها الذي تضيق الروايات عن احتوائه.

- حصل إيه؟

فلم ترد. فالتفت إليها متسائلاً، لكنها أجابته بنظرة طويلة من نظراتها المسترحمة القاتلة إياها، وهمست:



- م... أ... ح.

- نعم؟

- موش عاوزة أروّح.

فازدرد لعبه رغمًا عنه بصعوبة، لكن ضميره أثّبه، فقال:

- ها نلف لفة كمان بالعربية، وتطلعي البيت، وبكرا نتكلم.

- خلاص. نزلني هنا.

نظر إليها في دهشة، وقال:

- هنا إزاي؟

- مش ها أطلع البيت، ها أبيت ف الشارع.

هنا ففكر.. لن يتركها في الشارع، ولن يستطيع إقناعها بالصعود إلى بيتها، ليس أمامه سوى أن يأخذها إلى بيته، وضميره مستريح. على أية حال لا يظن أنها ستميل إليه. سألها متصنّعًا اللطف فبدا صوته كثلج ينكسر:

- تحبي نروح عندي البيت نشرب حاجة؟

هزت رأسها أن نعم، وهي تضم شفتيها في طفولة.

تحركا بالسيارة في الشوارع المظلمة قليلًا، فاسترخت هي في مقعدها على جانبها مواجهةً له، وأغمضت عينيها، ويبدو أنها نامت. رمقها في برود، وفكر أن هذه الفتاة مضطربة حقًا، ربما أكثر من بقية المجموعة، لم تتحدث إليه كثيرًا، لكنه قابل مثلها في عمله. إنها - في حدود خبرته - حالة الفتاة التي تعرضت لاعتداء ما في سني الطفولة غالبًا، قد تذكره أو



لا، لكنه رسم ملامح شخصيتها ذات الاضطراب الحدّي borderline، وصارت توقع نفسها في مواقف التحرش، أو شبه التحرش، عن عمد، كوسيلة لعقاب الذات، والحقيقة أنها ضحية، لكنها لا تفهم ذلك بالضبط. أما جمالها الفاتن فهو ما يساعدها دائماً لا أن تلعب فقط دور الفريسة، بل أن تكون فريسة فعلاً. هي كذلك غير ذات خبرة بالآخرين، وبريئة، لكنها شخصية مجرّبة تتحدى هذه البراءة، وستجرب كل شيء، بدءاً من الكحول حتى الهيروين، ومن الجنس حتى الانتحار. وستنتهي حياتها غالباً بالانتحار أو القتل أو الجرعة الزائدة.

شرد في الطريق وهو يقاوم لحن أغنية سخيقة لفريق الـ(بيتلز) الذي يعشقه (هيثم). (هيثم) قيادي كبير، وكان يمكن أن يكون له مستقبل جيد في الإعلام أو السياسة، لكنه لا يُجيد التأمر، بيد أن صحبته مسلية، ومليئة بالمخدرات بسبب نفوذ أسرته، الذي يحميه من بطش السلطات، إنه..

هنا فوجئ بذراع (سلمى) على كتفه، تلتف سريعاً في مرونة بالغة حوله، كأفعى زلقة ساخنة، وهي تقترب بوجهها من وجهه، فلفحته أنفاسها العطرة دائماً، غريب هذا! أنفاسها دائماً عطرة. التفت إليها، وهو يتبعد قليلاً ليركز على القيادة، مندهشاً، فقالت هامسة ولاهثة انفعالاً:

- أنا كنت عارفة أنك أنت اللي ها تيجي، موش (هيثم).

اندهش أكثر ولم يرد، وهو يحاول التركيز على الطريق. ما لم يدركه (فريد)، رغم ذكائه وتفكيره عالي التنسيق، أنها جعلته هو تحديداً هدفها الرئيسي من المجموعة، هي لا تبحث عن حب، بل عن مغامرة خطيرة، وهي لا تجد أيّاً من ذلك مع شخصيات مطروقة بالنسبة لها كـ(فكتور) مثلاً.



ثم أحاطت ساقه بساقها التي تعرّت، وهو مرتبك حقًا، ذاب بعض جليده، وشعر لدهشته بقدر من الخوف. إن تجاربه مع المرأة عمومًا محدودة، ولا يشعر بالراحة على أية حال مع امرأة مبادرة، ولا يعرف كيف يتصرف.

- أنا بحبك.. بحبك.. يا (فريد)..

- أفندم؟؟!

هنا كانت تحاول تقبيل خدّه في نهم، وهي تلهث في انفعال ورجفة، وفي الثانية التالية..

بوووم!

تلقي الاثنان الصدمة، ثم شعرا كأن جسمًا ضرب زجاج السيارة الأمامي، وسقفها، والسيارة تصدر صريرًا عنيفًا، وتدور حول نفسها بزاوية تقترب من ١٨٠ درجة، قبل أن تتوقف، بعد أن دهس (فريد) مكابحها بانعكاس تلقائي، وبعد أن كادت تنقلب.

ظلا متجمدين لحظةً، قبل أن تنتفض (سلمى)، وتعود إلى مقعدها، صامتةً، كأنها طفلة ارتكبت خطأ وتخشى العقاب، وانكمشت. أما (فريد) فقد ظل محددًا في دهشة، وهو يرى بالفعل أمامه ذلك الجسد على بعد أمتار، وهو لا يتحرك، وربما لا ينبض أو يتنفس.

التفت إلى (سلمى) في بطاء، وأشار إليها بكفه وعينيه علامة الصمت والهدوء. فأرسلت إليه نظرة جانبية خرساء. عندئذ فتح باب السيارة، وترجل إلى الجسد المكمّم المهشّم، ولم ينس أن يطفئ جميع الأنوار. وفي الضوء الخافت القادم من الطريق رديء الإضاءة تبين له أنه مجنّد



في الجيش، في العشرينات غالبًا من العمر. بالفعل قد مات. رفع قامته ونظر حوله وأرهف أذنيه.. لا أحد.. ولكن..

نعم.. بالفعل.. هذه أضواء بعيدة لسيارة شرطة قادمة بالتأكيد. هل أبلغ أحدًا عن الحادث؟ مستحيل، الشرطة لا تصل في مصر بهذه السرعة. والبلد لم يزل في حالة انفلات أمني حتى بعد التنحي. هذه مجرد دورية. مع ذلك فهو طيب شرعي، وله بعض الخبرة الجنائية، ويعرف أنهم سيجدونه - إن شاءوا - ما دام طرف الخيط معهم. كانت الدورية بعيدة على كل حال، ربما توقفت لغرض ما، لا يدري ماذا يفعل، لكنه سرعان ما حسم أمره. هرع إلى السيارة واتجه بها نحو الجسد، ثم خرج منها. لم يطلب مساعدة (سلمى) طبعًا؛ فهي لا تختلف كثيرًا حاليًا عن هذا الجسد المحطّم. وبكل ما أوتي من قوة وسرعة وضع الجسد النحيل كجسده هو في صندوق السيارة الخلفي، وتأكد من إحكام غلقه، واستقل السيارة مرة أخرى، وقد قدّر أن علامات الدماء على الطريق المترب القذر لن تكون واضحة للدورية، ربما في النهار، ليس الآن.

نظف يديه وملابسه كيفما اتفق من أكبر الآثار للدماء والأتربة على الأقل. وحين اطمأن أنه بعيد بما يكفي عن الدورية، أخرج هاتفه المحمول، وطلب رقم (هيثم). فرد الأخير وهو نصف ناعس:

- أيوا يا مان.

- فاكر فيلم Thinner؟

- نعم؟!

- فاكر فيلم Thinner؟



- أيوا؟ ما له؟

- فاكّر مشهد البطل وزوجته بعد ما خرجت ابنة الغجري إياه من الصيدلية بتجري إيه اللي حصل؟
- آها..

- ده اللي حصل لي أنا و(سلمى) تقريباً، و(الحاجة) معانا في شنطة العربية.

من الأفلام المفضلة عند كل من (هيثم) و(فريد)، وفيه تبدأ زوجة البطل مداعبته جنسياً في السيارة، وهو يقود، ومن ثم يصدّم ابنة زعيم الغجر، وتبدأ المأساة. قصة مخيفة لـ(ستيفن كينج).

ساد الصمت لحظات، لكن (هيثمًا) بردود أفعاله السريعة استعاد يقظته كاملة، وسأله:

- أنت فين حالياً؟

- طريق الواحات، مشارف السادس من أكتوبر.

- ابعث لي موقعك بالجى بي إس، وهاجي في عربية (فكتور).

- مش عارف. ما فيش داعي لتوريطه.

- ما فيش ورطة لو عملت اللي بقولك عليه.



لم يكن بيت (فكتور) يبعد عن موقع الأحداث. وفي حجرته جلس الأخير يطالع (ماركس) فعلاً، ويسمع (برامز) فعلاً! وهو يدخن سجائره الملفوفة؛ حيث كان يفضل البابيب أمام الناس فقط. وكان منهمكاً في فك



طلاسم معادلات (ماركس) الاقتصادية، وهو ينقد (جوزيف برودون)، حين تصاعدت موسيقى (برامز) من هاتفه المحمول مع اسم (هيثم).
التقط الهاتف في خمول، وغمغم:

- همممم؟

- اسمع.. فاكّر قصة (ستيفن كينج)... إلخ؟

وبعد قليل كان (فكتور) يلتقط (هيثمًا) من نقطة قريبة من الهدف، ثم استغرق الأمر نصف ساعة حتى وصلا إلى موقع (فريد). التقى الأربعة في صمت: (سلمى) و(فريد) و(هيثم) و(فكتور). صارت (سلمى) مخدّرة تمامًا كأنها تحلم، أما بقيتهم فكانوا متوترين. كان (هيثم) الأقل توترًا بطبيعة الحال، وهو يشعل سيجارة، ويهمس:

- ها نخلص من (الحاجة) هنا. ما حدث شايف، وما فيش عرييات الساعة دي، والشارع تقريبًا ضلّمة.

نقل (فكتور) - الأكثر توترًا - بصره بين رفيقيه، وهمس:

- ندفعه؟

رد (هيثم):

- ما أعتقدش. إحنا في مصر مش في ألمانيا. ما أظنش حد ها يكتشف الجثة أصلًا إلا بعد قرن أو اثنين. ولو حصل فدا مجرد مجند.

ناول (فكتور) سيجارة لـ(فريد)، وهو يسأله:

- إذا وجودها، هل سيعرفون أنك الفاعل؟

شعر (فريد) بالضيق من كلمة (الفاعل)، في الواقع الفاعل الحقيقي هو تلك المجنونة. صمت لحظة، ثم قال:



- ليس إذا أزلنا الآثار عن السيارة نفسها، هناك آثار يجب إزالتها عن الطريق، وعن الجثة، لكن هذا صعب. والدفن فعلاً سيستغرق وقتاً وجهداً كبيرين. إنها ليست عملية سهلة كالتي تراها في أفلام (سكورسيزي).

قال (هيثم)، وهو يلقي بالسيجارة ويدهسها:

- نركب الآن، ونذهب إلى أعماق خرابة على طريق الواحات، نطفئ جميع الأنوار..

قاطعته (فريد) مؤيداً:

- لا سبائر، لا بايب، هذه يمكن رؤيتها من بعد كيلومترات، أهدنا يعود بـ(سلمى) إلى بيتها بسيارة (فكتور)، والآخرا ينجزان المهمة.

تكلمتُ (سلمى) أخيراً، وبدت منفصلة تماماً عن الواقع، وهي تقول كالأطفال:

- أنا عطشانة.. وعاززة أروّح.

نظر كل من الرجال الثلاثة إلى رفيقه، ثم قرر الجميع تجاهلها مؤقتاً. وقال (هيثم) لـ(فكتور):

- أنت تصحب (سلمى) بسيارتك، وأنا و(فريد) سنتم الأمر. سأتصل بك حين ننتهي.

ازدرد (فكتور) لعبابه بصعوبة، وقال متوتراً:

- أوكي.. أوكي.. خذا حذر كما.

وهكذا افترق الأربعة. وبمجرد أن ابتعد (هيثم) و(فريد) بالسيارة، حتى سأل الأول وهو يقود:



- إيه اللي حصل؟

فكر (فريد) أن من هن في مثل حالة (سلمى) لا يتكلمن عادة عن هذه المغامرات، كأن الموقف ككل قد انمسح من ذاكرتها، إن لم يكن قد انمسح فعلاً، ولم يكن ليرغب في أن يعرف (هيثم) بتفاصيل الموضوع، لأسباب تتعلق بحساسية مجال خصوصيته الشخصية. أجاب في مواربة بعد أن اختار كلماته بعناية؛ تحسباً، حتى لو حكّت له (سلمى) القصة:

- الطريق مظلم. ظهر فجأة. صدمناه. حملته بالسيارة، واتصلت بك.

- نتوقف هنا؟

كان قد اتخذ قراره بالفعل. كثيراً ما حسده (فريد) على سرعة ردود أفعاله، لكنهما يكملان أحدهما الآخر. توقفاً، ثم دارا حول السيارة، وأخرجاً الجثة، وأرقداها قرب هوة ما مظلمة، لا يريان لها قراراً، هناك بعض القمامة على أطرافها. وكان هذا هو الوقت الذي كفت فيه الجهات المسؤولة عن رفع قمامة الشوارع بعد الثورة بقرار ثوري.

بعد أن أرقداها، انحنى عليها (هيثم) وقال بالإنجليزية:

- Sorry, man

ودفعها لتتدحرج، وتغوص في القاع الغامض. وعندئذٍ أسرعاً إلى السيارة، وتحركا بها بأقصى سرعة مع أقل ضوضاء ممكنة. واختفيا في نهاية الطريق. توقفاً عند بيت (فريد) القريب. وبعدها بدأت عملية تنظيف دقيقة للسيارة، أتمها (فريد) عن بعض الخبرة، بمساعدة (هيثم)، حتى اطمأن إلى النتيجة قبل تسرّب أول دماء الفجر.

دعا (هيثم) صديقه ليقضي النهار القادم معه، ولم يرفض الأخير.



مضت الساعات التالية في بيت (هيشم)، حيث كشف الأخير عن كل مخزونه من الحشيش، وزجاجة جاك دانييلز المستوردة، التي كان يحتفظ بها ليوم الانتحار ذاته، وقد قدر أن صديقه يحتاج إلى قدر من السلوى. بالفعل كان (فريد) يستعين بالحشيش والكحول على كل شيء تقريبًا. كان شخصية منطقية - رياضية بالغة الذكاء، وحسنة التخطيط، لكن ذلك أكسبه منظورًا مختلفًا كثيرًا عن منظورات الآخرين، فصار سلاحًا ذا حدين، بالإضافة إلى ظن الآخرين عادة - الذي هو في محله غالبًا - بأنه عديم الشعور، الأمر الذي أدى إلى اغترابه في النهاية، واكتئابه. أما (هيشم) فكان رجل أعمال ناجحًا صغير السن نسبيًا، لكن إدمانه للهيروين لفترة، ثم التدهور الاقتصادي إبان الثورة، قد أفقده جزءًا كبيرًا من رأسماله، وأعماله.

ظلا ساهدين يشربان، ويدخان حتى الضحى، حتى هاتفهما (فكتور) ليطمئن عليهما، ثم قرر أن يشاركهما الحشيش (قبل أن ينفذ)، فانضم إليهما. وبعد ساعة أو اثنتين كان (فريد) جالسًا واضعًا رأسه بين كفيه في يأس، وقد أفاق تقريبًا من الكحول والدخان، وهو يقول:

- لقد قتلتُ إنسانًا.

تنهد (فكتور) في حيرة، وغمغم:

- لم تكن تقصد..

قال (هيشم) في عصبية:

- ولو كنت تقصد.. أنت قد اتخذت قرار الانتحار قبلها فعلاً، هذا قتل، وهذا قتل. ثم إنك تخلصت من الآثار، وتصرفت كما يجب. ولو أمسكوا بك فستكون قد انتحرت أو كدت، ساعتها انتحرت.



رفع (فريد) رأسه، وملامحه لم تزل غارقة في الذنب، ثم أطل النظر إلى أبعاد مجهولة.

وفي ببطء شديد.. شديد.. شديد.. بدأت ملامحه تتحول، وصارت عيناه تضيئان، وارتفع حاجباه كأنما يكتشف شيئاً هائلاً.. وتسارعت أنفاسه، وخفق قلبه بقوة..

نظر إلى رفيقيه، عن يمينه، وعن شماله، في ببطء وصمت، ثم عاد ينظر أمامه شاردًا، لكنه هذه المرة فرد ظهره، وقال بصوت ثابت:

- لكن أتعلمان؟ لقد زال اكتئابي.

ابتسم (فكتور) في سخرية، لكنه وجده لا يمزح، فبدأ يتطلع إليه في دهشة، في حين سأل (هيثم) حائرًا:

- يعني..؟

نظر إليه (فريد) في إمعان، وقال ضاغطًا على مقاطعه:

- يعني أن القتل كما قلت كالانتحار، ليس فقط لأن كلاً منهما قتل، بل لأن كلاً منهما حلّ، كلاً منهما علاج.





الفصل الثاني المائدة

1 - Superpower

ساد في غرفة الاجتماعات صمت مشوّب ببعض الدخان، وبراءة القهوة الثقيلة، التي يشربها كل من (فكتور) و(فريد) و(هيشم)، للتغلب على آثار سهر البارحة، بينما جلست (سلمى) هادئة وهي تتأمل في صورة معلقة على الجدار المقابل، تُنوّع على لوحة (العشاء الأخير) من منظور حدائي. بدا (منصور) متحفّظاً كما هو متوقع، لا يواجه الآخرين ببصره، على العكس من (يمنى) التي كانت تنفث دخان سيجارتهما الرفيعة، وتجول ببصرها في كل الوجوه في تساؤل، ثم قطعت الصمتَ قائلة:

- آسفة.. اعتبروني غيبة مؤقتًا. تقولون أننا سنقوم..

ثم أكملت في استنكار:

- .. بالقتل؟

مما ضايق (فريدا) نوعاً، لكنه لم يرد؛ نظراً لتجنّبه عادةً للمواجهات المباشرة، بل أجاب (هيشم):

- هذا ما نناقشه في هذا الاجتماع العاجل.



ثم جال بنظره في المائدة نفسها، كأنما يستعيد خبرته أمس، وقال
بالسجارة بين أسنانه:

- أنا في الحقيقة نسيت الاكتئاب بسبب ما حدث البارحة. فعلاً،
أفضل من أي دواء اكتئاب، أفضل حتى من (اللاهوت).

(اللاهوت) هو الاسم الحركي، الذي كان يطلقه - مع (فريد)
و(فكتور) - على المخدرات بأنواعها؛ لأنه ينتقل بالوعي إلى السموات
العُلا. وأصل هذه التسمية هو (فكتور) في إحدى قصائده، لكن
الاستعمال صار دارجاً إلى الحد الذي نسوا معه هذا المصدر.

غمغم (فكتور) وهو يدخن البايب في وقاره، الذي تدرب عليه جيداً:
- الإثارة.. الخوف.. الإنجاز.. هذا يجعلنا أحياء مرةً أخرى.

كان (فريد) يكره فيه الاصطناع أحياناً، لكنه كذلك يكره الصراحة
والمباشرة، لذلك تغاضى عن هذا، وهو يؤكّد على كلامه:

- العرض الأساسي للاكتئاب هو شعورنا بأن الحياة رمادية مملة،
وأنا صرنا لا نشعر بشيء كما كنا نشعر من قبل. لقد أنجزنا أمس مهمة ما.
وهي مهمة كاملة. بمعنى أنه حتى لو أمسكوا بنا، فإننا نستطيع الانتحار،
كما أشار (هيثم) أمس.

هزّ (هيثم) رأسه في بطاء وهو يتكلم، كأنما هو بصدد قرار خطير:

- أعتقد ذلك. كل جرائمنا ستكون كاملة، هذا بفرض أنها جرائم.

استعاد منه (فريد) طرف الخيط:

- جرائم الشخصيات الانتحارية كلها حتماً كاملة بمعنى ما؛ فليس



لديهم ما يخسرونه. وحين تقبض الشرطة على شخصية انتحارية، فلن تقبض في الواقع سوى على جثة أخرى.

كان يتكلم في هدوء موضوعي كعاداته، لكن أغلبهم لاحظ لمعة الإثارة في عينيه. وبينما يتحدثون كانت (يمنى) تنقل عينيها الكبيرتين اللامعتين دائماً بينهم، قبل أن ترد في شيء من الاستهجان:

- لكننا لسنا قتلة. ولسنا ضحايا بالضرورة لنتقم من المجتمع.

كرر (فكتور) متأملاً دخانه في لا مبالة:

- الانتحار قتل.

لكن (هيشماً) نظر إليها، ثم إلى الآخرين، وهو يقول في إصرار بطريقته الكاريزمية محرّكاً يده بحركات حاسمة:

- إحنا فعلاً وبالضرورة ضحايا. ربما لا يعلم بعضنا من المسؤول بالضبط عن اكتئابنا، لكن هذا المسؤول موجود، ويستحق القتل، لا نحن. ثم إن المنتحر فعلاً قاتل، وقاتل بدم بارد، فما بالكم لو كان يساعد الآخرين - كما نفعل نحن - على الانتحار أيضاً؟

هنا تدخل (فريد) بصوته المعدني، كأصوات المذيعين في الواقع، وسألها في برود:

- حضرتك شايقة أنك مش ضحية؟

هزّت ضفيراها، ومطت شفيتها، قبل أن ترد:

- مش عارفة.

كرهته (يمنى) لهذا السؤال للحظات، أما الحقيقة فهي أنها تعتقد



في كونها مكتتبة بسبب فشل زواجها، وخيانات زوجها السابق. وإذا كان (فريد) يقصد حصارها من حيث لا تستطيع مصارحتهم بذلك، فقد نجح بالفعل في معادلة تأثيرها عليهم. لكن (فريدا) لم يكن يقتصر على هذه التفاهات، بل يستهدف عادةً إقناع الآخرين فعلاً بوجهات نظره، ويستشعر انتصارات صغيرة في ذلك، لهذا استأنف في موضوعية، بطلاقة فكرية، تثير الإعجاب دائماً:

- يؤمن أغلب الأطباء بأن الاكتئاب - من جهة مسبباته - ينقسم إلى نوعين: خارجي ثانوي، وداخلي كيميائي. الأول يسببه عامل خارج المخ، مثلما يحدث لمرضى القلق الاجتماعي Social anxiety مثلاً؛ حيث يتسبب هذا المرض في عزلتهم، في الوقت الذي يحتاجون فيه إلى الآخرين، وبسبب صعوبة علاج هذا الاضطراب، فإنهم يكتسبون، بمعنى أنهم إن عولجوا، فسوف يتخلصون من الاكتئاب. أما النوع الثاني الكيميائي فهو يعني أن أمخاخنا كأعضاء مادية، لا عقولنا، هي السبب في اكتئابنا، وذلك لخطأ كيميائي في المخ، وهنا يلعب العلاج الدوائي دوراً في تصحيح هذا الخلل..

ضرب مثل القلق الاجتماعي تحديداً مستهدفاً (منصوراً)، الذي سحب يديه من سطح المائدة فعلاً، وهو رد فعل توقعه، ثم أكمل:

- .. لكن بعض الأطباء لا يوافقون مؤخراً على هذه القسمة، التي ستقرؤونها في أغلب الأدبيات حول الموضوع، مثل الدكتور Alex Lickerman⁽¹⁾، الذي يحتج على هذا التصنيف بأن أفكارنا ذاتها (العقل)

(١) هو مؤلف كتاب *The Undeafed Mind* والأستاذ المساعد سابقاً بجامعة شيكاغو.



تؤثر على كيميائنا الذهنية (المخ)، وهو ما عزّزته المشاهدات العلمية، وهو ذاته ما يستبعد النوع الداخلي الكيميائي، ويستبقي فقط النوع الأول الخارجي؛ حيث لا تستقل كيمياء المخ بتأثير حقيقي، بل هي رد فعل، وبما يعني أن هذا التقسيم خلط بين السبب والنتيجة، وهي مغالطة منهجية تقليدية في تفسير اقتران الظواهر. الخلاصة أن كل اكتئاب هو نتيجة لسبب خارجي بالضرورة. أنت مكتئب لأن المجتمع أجرم في حقك ببساطة، أو لم ينقذك مما تسبب في اكتئابك، و- ربما - رغبتك في الانتحار.

حرّك (فكتور) ذراعيه الضخمتين في ترحاب باسمًا، وهو يقول:

- شُفتم (اللاهوت)؟

أحنى (فريد) رأسه، أما (هيثم) فقال:

- ده التعليم الأجنبي يا بروليتاريا.

مشيرًا بذلك إلى دراسة (فريد) في إنجلترا للدكتوراه. هذا بينما صمتت (يمنى) مفكّرة، متأملة في سطح المائدة. ولما كان (فريد) عليماً بتفاصيل طلاقها فقد اختار مدخلاً بديلاً للقضية:

- ممكن نستعمل كلمات أخرى: في حياة كل واحد منّا شخص نتمنى قتله، أو نتمنى زوال وجوده على الأقل.

هزّ (هيثم) رأسه مؤيداً، وقال:

- أي نعم، الإسلاميين مثلاً.

سارع (فكتور) مؤيداً:



- أيوا.. بالذات الرأسماليين الكبار منهم.

أشار (هيثم) بكفه رافضاً:

- معلش ابعُد عن الرأسماليين، أنا كنت قبل الثورة بكسب ٦٠٠ ألف صافي ربح، وحالياً أقل من ١٠٠ ألف، يعني إحنا ضحايا برضه. وكنت با أدفع ضرايب، هي اللي أنت اتعلمت، وبتعالج بيها.

كاد (فكتور) يناقشه، لولا أن (فريداً) قال:

- موضوع الرأسماليين دا فيه شبهة أخلاقية ما.

وصمت لحظة لتجميع أفكاره، فسأله (فكتور):

- بمعنى؟

جال بعينه في الفراغ مفكراً، وهو يتكلم:

- يعني أنت مش (باتمان)، مش ها تقتل علشان تطهّر المجتمع من الجريمة مثلاً.

سأله (فكتور) مرة أخرى في تركيز:

- وليه لأ؟

فكر (فريد) بشكل أعمق، وضيّق عينيه، وهو يقول:

- لأنك لو فعلت ذلك، فلن تعود مكتئباً بالضبط، أو أن هذا يعني أنك لست مكتئباً من الأصل، ما دام لك هدف، وتسعى، بل وربما تنجح، في تحقيقه، مما سيؤدي على المدى البعيد، أو ربما القصير، إلى تمسكك بالحياة، أي أنك ستكفّ عن كونك شخصية انتحارية، وبالتالي لن تؤدي الجريمة الكاملة. ستعود بذلك إلى الرغبة في الحياة، التي تأتي



دائمًا مصحوبة بالخوف من الموت، ومن مسبباته، ومن الألم، ومن أن تلاحقك أجهزة الأمن.

صمت الجميع أمام منطقته. وابتسم (هيثم) وهو ينظر إليهم، كأنما يقول «أرأيتم لِمَا أصاحبه؟»، وقال ممازحًا:
- «آية الله».

وهو اللقب الذي كان يطلقه (فريد) أحيانًا على نفسه مازحًا بدوره. لكن الأخير لم يضحك، بل عاد يقول بشكل أكثر تقريرًا:

- القوة الخارقة الوحيدة Superpower التي نملكها هي إرادة العدم. وهي قوة خارقة نوعيَّة؛ فنحن لسنا أنصاف بشر/ أنصاف وطاويط مثلاً. نحن أنصاف بشر/ أنصاف عَدَم. ولا يمكن أن يكون لنا - من أجل الحفاظ على هذه القوة - أي دافع أخلاقي أو سياسي أو ديني. لا يجوز لنا أن نستجيب سوى للدافع الشخصي: كالكرهية، أو الانتقام، أو مجرد الرغبة في الإثارة.

ساد الصمت ثانية، وكان الجميع يتسم في إعجاب ما، حتى (منصور) الحائر المرتبك من بداية الجلسة، و(سلمى) السابحة خارج عالم الشهادة. لم تفهم الأخيرة كامل منطقته، لكنها فهمت أنه استطاع إقناع الباقين، لهذا ابتسمت في شيء من الانبهار، وهي تحرك جذعها لا إرادياً إلى الأمام نحوه، وتسند رأسها الطفولي على ساعديها على المائدة.

قطع الصمت (فكتور)، وقد بدا أكثر اقتناعاً، وثباتاً، ولمعت عيناه، وهو يدخل غليونه في شهية، ورائحة الفانيليا تفعم الغرفة، وقال بالفصحى:



- إنه لكلامٌ جميل.

ثم أردف:

- أنا شخصياً أحب أقتل الإسلاميين بدافع شخصي بحت. بكرههم بدقونهم وضيق أفقهم، وضحكهم ع الناس. إنما موضوع الرأسماليين ده واجب ثوري.

قال (هيثم) بقدر من الحماس والجدية:

- أنا كذلك.

ثم أشعل سيجارة، ووجه حديثه إلى (يمنى):

- وأنت؟

فكرت لحظة في اكتئاب، ثم رفعت عينيها إلى (فريد) تحديداً، وهمست بمزيج خافت غريب من الحزن والتحدي والوحشية:

- أقتل زوجي السابق.

فقابلها (فريد) بنظرة ثلجية، وقد تجمد أصبعاه على سيجارته، ولم يحب صراحتها. في الواقع كان لا يستريح في التعامل معها بالذات؛ لمباشرتها، وسرعة ردود أفعالها، ويفضل في العادة لعب (البوكر) مع الآخرين، لكنه كان يقبل بوجودها في الوقت ذاته؛ لما يقدره فيها من ذكاء فطري، وامتيازها في تخصصها العلمي (الكيمياء). قطع (هيثم) مواجهتهما، وهو يسأل (سلمى):

- والأخت؟

انتبهت (سلمى)، فسقطت عيناها سقوطاً حُرّاً، وتمهّلت كالعادة



قبل الكلام، ثم هزّت كتفيها العاريتين (أخيراً رأيناها؛ فالجوّ دافئ في الغرفة)، وقالت بلا مبالاة بصوتها المبحوح، وهدوء بالغ:

- يعني.. أيّ حد.

ساد صمت مستغرب لثوانٍ، وقلب (فكتور) كَفّيه، وهو لم ينسَ بعد ما حدث منها الليلة الماضية، ثم توجّه (هيشم) إلى (منصور)، وسأله:

- والباشمهندس؟

ارتبك (منصور)، وأشار بيديه أكثر من اللازم، وهي علامة الخجل أو اضطراب القلق الاجتماعي الشهيرة، وارتجف صوته قليلاً قائلاً في صراحة:

- الحقيقة يا جماعة.. أنا متدين، وهذه جريمة لا خلاف فيها.

التفت (هيشم) و(يمنى) كلاهما تلقائياً إلى (فريد)، الذي ردّ فعلاً:

- بالتأكيد. نحن لا نختلف معك هنا. لكن الانتحار أيضاً جريمة في الإسلام. كل ما هنالك أنك ستقوم بعملية إزاحة.

سأله (يمنى) في انعكاس:

- إزاحة؟

أشار برأسه مؤكداً:

- نعم، إزاحة. يعني إزاحة القتل؛ بدلاً من قتل هذا سيقتل ذاك. إزاحة من الذات إلى الآخر.

عقد (فكتور) حاجبيه مفكراً، وهو يقول في تفلسف:

- حسبما أعرف.. المنتحر في الإسلام يخلّد في النار.



عقد (هيثم) حاجبيه بدوره، وقال قانطاً:

- أعتقد أن هناك خلافاً فقهياً كالعادة في هذه القضية.

التفت إليه (فريد) قائلاً:

- لكن لا يوجد خلاف في أن الانتحار قتل على الأقل.

رد (هيثم):

- بالضبط. وعلى أي حال فهو من يقرر إذا كان سيشارك أم لا.

التقط (منصور) نفساً عميقاً ليسيّط على رجفته، قبل أن يرد:

- ها أفكر، وأرد عليكم.

تحركت (سلمى) في اللحظة نفسها بالصدفة لتتناول شيئاً من حقيبتها
مرأة صغيرة لتضع زبدة الكاكاو)، فالتفت إليها (منصور) التفاتة خافتة
جداً، ثم اعتدل. وهو ما لاحظته (يمنى) بوضوح. وخطر لها - وهي تنقل
نظرة واحدة بين الاثنين - أن (منصوراً) هو الجدير حقاً بـ (سلمى)؛ لما
يتمتع به من طاقة احتضان مهولة، لا تجد لها متنفساً مناسباً بسبب خجله،
يمكن لها أن تكتسب هذه الفتاة قدرًا من الاستقرار والثقة بالنفس والعالم.
وقد ألقى (فريد) نظرة كذلك على ثلاثتهم، وفهم أن (يمنى) قد فكرت
- غالباً - فيما فكرت فيه. ولم يستطع - حزيناً - أن يختلف معها كثيراً في
الواقع. لكنه غص بصره كيلا تراه (يمنى)، التي نظرت إليه فعلاً، وهي
تفكر. لم يلحظ (هيثم) أيًا من ذلك، وهو يسأل:

- وأنت يا دكتور؟

فوجئ (فريد) بالسؤال. لقد انشغل بالتنظير العام كالعادة، ولم ينتبه



إلى نفسه. لهذا فقد فكّر للحظات حائرًا، وضيق عينيه في تركيز، وقال مخاطبًا لا أحدًا:

- أنا.. في الواقع.. قد لا أستطيع قتل أحد بمعنى القتل.

عاجله (فكتور):

- وما عملته البارحة؟

ردت (يمنى) في سرعة:

- كان قتلاً خطأ.

زفر (فريد) في ضيق مكبوت؛ فهو يتهم (سلمى) في الموضوع، وصمّت. لذلك فقد سأله (يمنى) سريعًا:

- لكن ما معنى أنك لا تقدر على القتل؟ ما معنى هذا كله إذن؟

تأثّى (فريد) في ضيق من سرعتها عمومًا، وقال:

- يعني أنني لن أرغم أحدًا على موته. أستطيع فقط...

ثم حسم أمره، وواجه عيونهم قائلاً:

- .. أن أقنع الآخرين بذلك.

سأله (يمنى) مرة أخرى:

- وافترض أنك لم تستطع إقناع أحد؟

قال (هيشم) ضاحكًا:

- لا.. لا.. اطمئني.

فكّ (فكتور) غليونه لينظّفه، وهو يقول:



- بس إحنا كِدا يا جماعة انتقلنا من الفعل إلى وسيلة الفعل. هو ها يقنع الآخرين بالفعل، ودي وسيلته.

أسندت (يمنى) عنقها الطويل على راحتها، وقد آلمها من طيلة الجلوس، وغمغمت:

- أعتقد دا يعتمد على الموقف، أقصد الموقف ممكن يفرض الوسيلة.

هنا.. سمع الجميع (سلمى)، وهي تقول شاردة في براءة:

- السكين.

نظروا جميعًا إليها، إلا (منصورًا)، الذي غض بصره في نوع من الرهبة، و(هيثم) يسألها:

- السكين؟ وها تعرفي تستعمليه؟

صمتت كالعادة شاردة، ولم تجب سوى بهمهمة موافقة:

- إممم.

ابتسم (فكتور) في سخرية وهو ينظف غليونه، فنظر إليه (هيثم)، ثم قال في روية:

- أعتقد يا جماعة فيه نقطة أخرى محتاجة للنقاش: هل ها نساعد بعض؟ ماذا لو أن واحد مننا.. يعني..

غلبه الإحراج أن يشير إلى (سلمى) بأي وصف، لكنه نظر إلى (فريد) بدلًا من ذلك، وهو يعلم أنه يفهم مقصوده، فمسح الأخير على حاجبيه الكثرين، وقال بلهجة علمية:



- الأفضل فعلاً نشتغل كفريق. دا لا يعني حظر التنفيذ الفردي، بس
علشان نضمن أفضل درجة من النجاح محتاجين تشاور، والاستفادة من
خبراتنا مجتمعة. موافقون؟

أوماً الجميع إلا (منصورًا) و(سلمى)، فقال الأول:

- أنا قلت سأفكر في الموضوع ككل.

أما (سلمى) فلم تبرر سكونها، كأنما هي دائماً موافقة كمسلّمة.

ساد الصمت للحظات، كأن الجميع قد فرغ مما يريد قوله، قطعه
(فكتور)، وهو يكلم نفسه بصوت مرتفع في تأمل:

- أمس قُتِل شخص، وأخفينا الجثة، هذا مشير. (صمت) الحياة
تستحق مرة أخرى أن تعاش.

خفض (فريد) رأسه فيما بدا تقديرًا للكلام، أما (هيثم) فقد ابتسم
قائلًا:

- مبروك.

ثم أردف:

- أظن الآن ننهي الاجتماع، ونشرب حاجة.

وأشار مخاطبًا (منصورًا):

- طبعًا أنت مش بتشرب.

رد محرجًا:

- الحقيقة لا. ولا أدخن.



- عندنا شاي وقهوة.

قالها، وهو ينهض منهياً الاجتماع، فنهض (فكتور)، وهو يقول مداعباً:

- وبعدين أبو حنيفة حلل النبيت. وعندنا نبيت.

فابتسم (منصور) في تحفظ وإحراج.



خرج (هيثم) و(فكتور) يتبادلان بعض الكلام في السياسة، وعما إذا كان الإسماعيون سيفوزون بأول انتخابات تشريعية بعد الثورة، بينما وقفت (يمنى)، تشعل سيجارتها الرفيعة، وهي تستمع إلى (سلمى)، التي - فيما بدا - كانت تهمس لها بحكاية من حكايات البنات. وقد كانت (يمنى) عادة تحاول لعب دور الأخت الكبيرة معها، لما لمستته فيها من اضطراب عميق، ولفارق السنّ، الذي يربو على الأعوام العشرة.

وحين ابتعدت (سلمى) قليلاً؛ لتتحدث في هاتفها، جاء (فريد) بخطوات بطيئة، ليقف إلى جوار (يمنى). وتأمل قليلاً في (سلمى)، قبل أن يقول بصوت خفيض إلى حد ما:

- مش شايفة أنهم أبيض وأسود؟

- نعم؟

- القمر بيطلع بالليل.

تطلعت إليه (يمنى) في تساؤل وشك، محاولة فهم الفزورة، ومتضايقة من عباراته الملعزة، لكنها ذكية، فنظرت إلى (سلمى) بعين



حادة لثانية، ثم نقلت نظرتها إلى (فريد) نفسه، وهمست بنبرة نصف ساخرة:

- أنت بتحبها؟

هز رأسه في خفة، وتجمدت على عينيه لمعة حزن، واختلجت عضلات فكيه، وقال:

- ما أعتقدش أنني في المرحلة دي بالذات ممكن أحب.

- إنما هو بيحبها؟

حكّ لحيته الخفيفة المهدبة قائلاً بموضوعة:

- من أول نظرة. أنا مش بغلط.

- وهي؟

- هي لا يمكن تحب (هيشم) حب من النوع دا، و(فكتور) كارت محروق عندها.

- والأسود لايق عليها في نظرك؟

- الحاجة ك* أم الاختراع. والحب اختراع على رأي (نزار).

عادت إليها السخرية، وهي تغمغم:

- من امتى مهتم بالبشرية كدا؟

عقد حاجبيه في ضيق، وقال ساخرًا بدوره:

- تقدري تقولي إني «إنساني أكثر من اللازم» على رأي (فريدريك).

وأردف بلا مبالاة:



- وفي الحقيقة أنتِ اللي إنسانية أكثر من اللازم، اهتمي أنتِ بيها. أنا مجرد بس بكتب الروشته.

صمتت لحظات، وهي تفكر بشرود بسيط، مداعبة بعض ضفירותها بيدها الممسكة بسيجارتها، ثم سمع الاثنان صوت (هيثم)، وهو يصيح ضاحكًا من الصالون:

- تعال يا عم الحق. بيقول: علم النفس فودو - ساينس!

فابتسمت (يمنى) بجانب فمها، وقالت لـ(فريد):

- روح الحق لك سيجارة فودو - ساينس.

فالتفت لها (فريد)، وألقى عليها نظرة باردة غامضة، من عينيها، إلى صدرها، ثم هز رأسه بمعنى الموافقة، وانصرف.

وعندها تقدم (منصور) خارجًا من الغرفة، فاعترضته (يمنى) باسمه في لطف، وهي تقول:

- (منصور). الرجل الخفي. ما قلت ليش بتشتغل إيه؟

تراجع متفاجئًا من جرأتها، وهي تحاصره بصدرها الكبير المكشوف بعضه، وأجاب غاضبًا بصره باسمًا:

- أنا.. أنا قلت قبل كذا إني مهندس مبانٍ، وحاليًا أساعد والدي في بناء بيت.

ابتسمت مرة أخرى، وأشارت إلى نفسها، ثم (سلمى) قائلة:

- أنا فنيّ معمل، خريجة علوم قسم كيميا، و(سلمى) خريجة آداب قسم فلسفة، وصحافية، ولها محاولات في الشعر جميلة.



لم يجد ما يقول، وقد احتشد الدم في أذنيه، وبدأ نبضه يتعالى
كطلقات الرصاص في أذنيه، فهمس في دبلوماسية بلهاء:
- تشرفنا.. أنا.. أنا كذلك..

قرر أن يلعب دورًا غير دوره - كما خطر له - وهو يستأنف بعد أن
ازدرد ريقه في صعوبة، وارتجفت وجنتاه السمراوان:
- .. كانت لي محاولات.. زمان..

هزت رأسها (يمنى) مشجعة، وهي تبسم في لطف زائد، غير عليمه
بأنه يلاحظ ذلك، وأن ذلك يزيد الأمر سوءًا، ثم قالت لـ(سلمى):
- مش معاكي على موبايلك قصايد؟

تفكرت (سلمى) للحظة، وقالت ناظرة إلى اللانهاية:
- ليه لأ؟

هنا تصنعت (يمنى) الاعتذار، وهي تشير بيديها منصرفه:
- طيب يا جماعة، أنا رايحة أشوف بقايا (جاك دانييلز)، وماليش في
شغل الأدبائية دا. عن إذلكم.

ثم أشارت إلى (سلمى) محذرة، وقالت:
- ما فيش شرب ليكي النهار دا.. هاه؟

فأومأت (سلمى)، وهي تنفث دخان سيجارتها، بينما انصرفت
(يمنى).

أما (منصور) فقد وقف متسائلًا في داخله عما إذا كانت (يمنى) قد
ورطته، وهو يود لو تنشق الأرض أو الحوائط وتحتويه في حنان، بعيدًا



عن هذا العالم القاسي. ثم فكّر للحظات أنها فرصته، أن يتبادل مع هذه الجميلة شيئاً من الكلام، لكنه اختار أسوأ مدخل ممكن، وهو يسألها:

- فلسفة؟ يعني درست منطق وما بعد الرياضيات وكذا؟

فمطت شفتيها في بطاء مشمئز، وقالت ساهمة:

- يجوز.. أنا لسه بأسقط فيها.. مش خريجة.

كان أمامه المزيد من (العك):

- وليه بتسقطي؟

رفعت إليه عينيها، فلاحظ للمرة الأولى أن كلاّ منهما بلون مختلف؛ اليمنى عسلية اللون، واليسرى خضراء، مما يربك الناظر إليها عادة، وقالت في مزيد من الاشمئزاز:

- علشان كُليّة بض-**-..

فأرتج عليه. أما هي فاستأنفت في سخرية، وعيناها تومضان بمزيج من لونيها:

- .. زي ناس كذا.

وأخرجت دخانها من أنفها علامة الضيق، ثم أخرجت هاتفها لتطلب رقمًا ما متجاهلة إياه، بينما وقف هو محرّجاً أقرب إلى الصدمة، وشعر بعرق بارد، فابتلع ريقه مرة أخرى في عسر، وهمهم بشيء ما بلا معنى، وابتسم لها بسرعة قائلاً دون أن ينظر إليها:

- بعد إذنك، أصلي مستعجل.

وعاد إلى الغرفة ليتناول معطفه، وقد قرر أن يفرّ من المكان أولاً، ثم يبكي كما يشاء فيما بعد، وألا يعود مرة أخرى.



وفي الوقت ذاته كانت (يمنى) جالسة على مسند أريكة، تتناول كأسها من (هيثم)، وتنظر إليهما حيث وقفا، وهي تقول للأخير:

- شريهان وأحمد زكي.

قال لها (هيثم)، وهو يلفّ سيجارة (فودو):

- آه.. هي شبه شريهان فشخ، ده لو شريهان في الـ ٢١.

ثم شاهدا انصراف (منصور) المباغت، فوجمت (يمنى) قائلةً بالفصحى:

- أي.. لقد لسعته.

لم يكن (هيثم) يفهم الموقف، فلم يعلّق. أما (فكتور) فقد هز رأسه في بطاء فاهم متأملاً بقايا المشهد بين سحبه الغليونية. وكان الأول قد أنهى لفّ السيجارة، حين أقبل (منصور) معتذراً:

- آسف، مضطر للانصراف، وولتقي مرة ثانية.

هتف (هيثم) في دهشة بلهجته التي تجمع بين الأرستقراطية والشعبية (نظرًا لاضطراره للتعامل مع الفئتين في أعماله):

- لا يا معلم إزاي؟ ده لسه فيه كلام كبير.

فتدخلت (يمنى) محاولةً تخليص (منصور) من برائته:

- خلاص سيبه يروح، جايز يكون عنده حاجة مهمة.

فنهض (هيثم)، وصافح (منصورًا) مودّعًا:

- خلاص. ما تنساش تتصل تقولنا قرارك.



- وهو كذلك.

وفرّ من المكان، قبل أن يودّع المزيد. شيعته (يمنى) بنظرة آسفة، وهي تهز رأسها في ضيق، وكادت أن تتكلم مع (هيثم) - حيث بدأ يشعل السيجارة - في الموضوع، لكنها تراجعحت احترامًا فيما يبدو لخصوصية (منصور). ذلك بينما قال (فكتور):

- تفتكرواها يوافق؟

راقب (هيثم) في استبطانٍ تأثير الفودو في رأسه، وقلب فيهم عينيه حائرًا، ثم سأل (فريدًا):

- تفتكر؟

رمقه (فريد) بنظرة باردة، وقال في حكمة ماطًا شفتيه:

- الدين لم يتتصر يومًا على الاكتئاب.

قال (فكتور) في اهتمام:

- مع أن وظيفة الدين الأساسية هي منح الإنسان ملجأً وجوديًا.

قال في جمود تام بجمله الاعتراضية الكثيرة:

- يعني هي مسألة وقت. مع الوقت سيستنتج أن الدين، لو كان حقًا، لكان قد نجح فعلاً في تحريره هو - على الأقل - من الاكتئاب، ثم سيعرف أنه لكان - على الأقل أيضًا - قد استطاع وقايته منه.

جرع (فكتور) كأسه، واستطرد:

- يعني ها يعرف أن ما فيش عدالة أرضية.

رد (فريد) شاردًا:



- وربما ولا سماوية.

كان (هيشم) قد (اتصل)، بمعنى أن الفودو، أو اللاهوت، بدأ يحمل إليه وحيًا ما، وهو يقول في حماس:

- يا جدعان ما هو قال في القرآن.. ما أعرفش عندك في الكتاب المقدس إيه الوضع.. بس في القرآن بيقول «كلا بلا تكرمون اليتيم، ولا تحاؤون على طعام المسكين». يعني أنت اللي المفروض تعدل الميزان.

لم يكن (هيشم) متدينًا، لكنه يؤمن بعظمة القرآن، ويعتبره أبلغ الكتب، وأقيمها، وكثيرًا ما يستمع إلى التلاوات المصرية بمدارسها المختلفة. ردت (يمنى) متسائلة:

- مش هو بيقول «ووضع الميزان»؟

التفت (فريد) إليها قائلاً بسرعة:

- بس ما قالش إنه كان معتدل في الأصل، أو لعله يقصد ميزان الطبيعة: الفيزياء.

احتج (هيشم) مستمتعًا بالجدل تحت تأثير الفودو:

- المعنى مفهوم من السياق بالبداهة.

غمغمت (يمنى)، وهي تشيح بوجهها في ضيق:

- ربنا يتولاه.

تعني (منصورًا)، فردّ (فريد) مشيحًا إلى الجهة الأخرى:

- لا أظنه سيفعل.



٢ - عالم منصور

نزل (منصور) إلى الشارع في سرعة جعلته يكاد يتعثّر على الدرج، ولكنه شعر براحة حقيقية في الهواء الطلق البارد في الخارج. فكّر أنه أخطأ فعلاً بالتعرف إلى المجموعة؛ إنهم يشاركونه في رغبة الانتحار، ويختلفون عنه فيما عدا ذلك كله. لقد كان غيباً حين فكّر في محادثة (سلمى)، أما تلك الحمقاء السمراء (ماذا كان اسمها؟) فقد أدخلته إلى مستنقع خطر، وتركته وحده يتورط. فتاة صغيرة في العشرين تقريباً، تلبس القصير، وتدخن، وتشرب كذلك - كما أشارت السمراء - ليست مناسبة له حتماً. ولكن من تناسبه؟ إنه لا يناسبه أحد. إنه فاشل بالخلقة، ربما بالتربية، النتيجة واحدة. جينات ملوثة، أو نشأة قذرة، القذارة واحدة. لماذا ليس (ابن سوق) مثل (هيثم).. كاريزمياً، عالي الصوت، قائداً بالطبيعة، قوي الشخصية، يعرف ماذا يريد، ولماذا، أو ربما مثل (فريد). (فريد) ليس كاريزمياً، ولا ابن سوق. إنه مثقف متعالٍ، بالتأكيد متعالٍ. لكنه ذو منطق وعلم وقادر على الإقناع، ويحوز تقدير الجميع، حتى وإن لم يحبه أحد، والفتاة معجبة به.

ركل حجراً في الطريق وهو يسير بأقصى سرعة للابتعاد. خطر له أنه قادر على فهم الشخصيات. وما لا يعرفه أنه كذلك فعلاً؛ والسبب في هذه الميزة هو عينه سبب مشكلته؛ فزيادة الوعي الذاتي - الوعي بالذات كأنه يرى نفسه من الخارج - والحساسية تجاه الآخرين عادة ما يصاحبان اضطراب القلق الاجتماعي، الذي يمثل إعاقة حقيقية للمصابين به، تماماً كمن لا يبصر، فإن سمعه يزداد حدة، ويتحول عالم المسموعات بالنسبة له إلى كون كامل معقّد، لا يخبره المبصرون. تلك الحساسية تجعله أقرب إلى جهاز استقبال مرهف، يتلقّى من الآخرين أكثر بكثير مما يتلقّى غيره في العادة. لكن المشكلة أنه لا يستغل هذه المعرفة الثمينة.



توقف على ضفة الطريق منتظرًا التاكسي، وهو يشعر برغبة عارمة في البكاء. تبًا لهذه الحساسية! لماذا لا يقدّر الناس الشخص الطيب المحترم - هكذا يعرف نفسه - هل لابد أن أدخن وأشرب وأكفر بالله كي أعيش؟ ولكن.. لا بد أن العيب مني. من قال أن هؤلاء ليسوا محترمين؟ من يحكم؟ حيث بدأت آليات الإدانة الذاتية تعمل.

توقف تاكسي بالفعل، فاستقله إلى بيته. بالأحرى أوصله إلى بيت والده حيث يقيم، وحيث - برغم تخطيه الثلاثين وكونه ذا حالة مادية معقولة - لم يتزوج؛ لأنه أخجل من أن يتبادل علاقة حب مع فتاة، كما كان يفرض زواج الصالونات من حيث المبدأ. ويبدو أنه سيستسلم ليقبل به في النهاية كما خطر له.

كانت الساعة تقترب من منتصف الليل، حين دلف إلى المسكن، فسمع صوت أبيه الصارم ينهره:

- كنت فين يا أستاذ؟ وليه ما اتصلتش علينا تقول إنك ها تتأخر؟

فارتجف قلبه بين ضلوعه. إن والده كشخص مخيف في نظره. ويبدو أن هذا الوالد قد أدرك ذلك، وأدرك أن الاعتماد على ذلك هو الحل الوحيد لتربية ثلاثة صبيان وفتاة، في ظل خلافات مدمرة مع أمهم وعائلتها، فانتهج طريق الإرهاب، ولا أقل من ذلك في وصفه. وكأن شخصية الأب الكاسحة قد تغذت طيلة هذه السنوات على شخصيات أولاده، فتشكّلوا بلا مضمون، يتجنبون العالم، ولا يعرفون رد فعل عليه سوى الذعر. أما محاولة صاحبنا للانتحار فلم يعرف بها أي من أسرته، وأنقذه أحد أصدقائه، بعد أن استغاث هو به.

أحس أنه لن يتحكّم في بوله، وهو يرد مرتجفًا:



- الـ.. الـ.. الموبايل فصل شحن، وما فيش شاحن.

- وريني الموبايل.

أراه الموبايل مرتعشاً، فاتضح فعلاً أنه غير مشحون. ويل له لو كذب!
ألقي الأب بالجهاز على المائدة، حيث جلس يعبث في لحيته نصف
النامية بملقاط، منتظراً انتهاء الأم من إعداد العشاء، وقال لابنه في قرف:
- اتئيل غير هدومك علشان تتعشى.

فانصرف (منصور) إلى غرفته المشتركة مع أخيه الأصغر، وسمع
الأب يشيِّعه بقوله:

- اوعى تكون نزلت الميدان مع أصحابك الصيِّع.

يؤمن مثل هذا الأب بأن جميع أصدقاء أولاده (صيِّع) ومدمنون
وشواذ جنسياً، وكان لا يتحرَّج من استعمال ألفاظ كهذه، ربما في نوع من
احتكار (الصياغة)، لا يدري بالضبط. بدل (منصور) ملابسه، واغتسل،
وجلس إلى المائدة، التي حفر فيها وإخوته عشرات النقوش، حيث كانت
مقرّ مذاكرتهم الدائمة، وهم بعد أطفال. ظل خافضاً رأسه، يتأمل النقوش
في صمت، ليتجنب مواجهة أبيه، تماماً كما كان يفعل منذ سن السادسة
أو السابعة، منذ عرف الخوف.

خطر له أن جميع إخوته لهم طرقهم في التعامل مع الأب بخلافه؛
فأخوه الأكبر اتخذ سكناً مستقلاً، وانعزل تماماً عنهم، وعن العالم، أما
الأصغر فعرف طريق الفرار من المدرسة والتدخين والحشيش، وأما
أختهم فقد تزوجت، وسافرت مع زوجها إلى الخليج. لكنه هو الوحيد
الذي عانى أشد المعاناة، والذي لم يجد طريقاً للعزلة، أو التنفيس عن



مكبوته، أو الهجرة. هجرة من بلد بهدف هجرة أب؟! ولكنه ليس كأبي أب، كما أنه في الوقت نفسه ليس سوى أب.

كان يفكر في كل هذا، وهو يعلل اكتتابه ومحاولته الوحيدة للانتحار. إنه حتى ليس ناجحًا في ذلك. كانت الأم قد وضعت الأطباق، وجلست بالقرب منهما، لكنها لم تأكل. مدّ الأب والابن أيديهما للأكل. وهنا اشمأز الأب لأن الأكل بالغ الملوحة. لم يكن كذلك لكنه لسبب ما صار حساسًا للملح. هذا الأب مصرّ على أن الكل يتآمرون ضده، ويزيدون له الملح في الطعام. صاح في الأم أنها حمقاء ولن تفهم أبدًا، ثم بدأ يشرّح جثث (المحشي) على سطح المائدة بشوكتة باهتمام أكاديمي: «انظري.. لا توجد (صلصة) أو طماطم، كل ما هنالك أرز وملح». عندها لاحظ أن (منصورًا) لم يزل يأكل في صمت، فصاح به:

- أنت حمار ما بتفهمش؟ هو الأكل دا يتاكل؟

وألقى في وجهه ببعض الفتات. مسح (منصور) الأكل عن وجهه، وهو يقاوم البكاء، الذي يقاومه فعلاً منذ غادر الاجتماع، بينما كان الأب يأمر الأم ببعض من الجبن الأبيض على سبيل البديل. جلس (منصور) للحظات، لا يعرف ماذا يفعل. هل ينهض؟ قد يفسر الأب الموقف بأنه اعتراض على رد فعله. هل يستمر في الأكل المالح؟ هذه إهانة لرأي الأب. هل يأكل من الجبن؟ إنه يكره الجبن. هو فعلاً يكره الجبن.

ظل جالسًا لا يفعل شيئًا، يتأمل فقط النقوش الطفولية الساذجة على المائدة. (ألا- يفعل - شيئًا) هي الاستراتيجية الوحيدة، التي اعتمد عليها طيلة حياته في مواجهة أبيه. وخطر له كم كانوا أطفالًا مظلومين في هذه الأسرة! كل نقش يحمل ذكرى مؤلمة بالنسبة له. هنا عاقبه الأب لأنه لم



يحل مسائل الحساب، هنا عاقبته الأم لأنه لم ينجح في امتحان الشهر..
إلخ.

ظل يتفكر، حتى نهض الأب لينام، وهو يفكر أن نوم الظالم عبادة فعلاً. عبادة؟ أي عبادة ممكنة؟ حين يدمرك أبوك تمامًا فأني لبرّ الوالدين؟ المفروض أن يؤمّر كذلك بعقاب الوالدين، البر أو العقاب حسب الحالة. لو خشني مثل هذا الأب من العقاب لما جرؤ على ما فعله ويفعله بأسرته. الأم كذلك ليست أفضل حالاً، فهي غير قادرة على توصيل أي مشاعر لأبنائها، ولم يتعدّ دورها التربوي معهم دور تربية أربعة من الدواجن، التي عليها أن تطعمها بالأساس، ولم تعرف طريقاً للتحكم فيهم سوى الخرطوم أو الخفّ الثقيل، ويبدو أن ذلك بسبب اعتقادها في نجاح طريقة زوجها في التهذيب، أو لأن طريقته - بعد وقت ما - قد فرضت نفسها كأمر واقع. النتيجة كائن خائف لم يستطع حتى تبادل كلمات مع فتاة تعجبه دون أن تسخر منه، وأن يفرّ منها.

تذكر (سلمي)، والغريب أنه شعر بحنين إليها، وشفقة عليها، إنها ولا بد مظلومة محطّمة مثله.

كان الأب قد نهض للصلاة، فتناول هو ملقاطه المعدني الملقى على طرف المائدة، وحفر في سطحها عبارتين.

تقول الأولى:

- يا (سلمي).. أنا أحبك.

وتقول الثانية:

- يا ربّ.. يا أب.. أنا أكفر بك.



الفصل الثالث

الفراش

١ - عالم فريد

بعد ليلة الاجتماع السابق عاد (فريد) إلى شقته الصغيرة المنعزلة بمدينة السادس من أكتوبر. وهي شقة خلاء إلا من مكتب، ومكتبة، وبعض أدوات المطبخ، ومدفأة كهربائية، وحشية (مرتبة) للنوم موضوعة على الأرضية مباشرة دون سرير. كان (فريد) مسكوناً منذ مطلع شبابه بها جس أنه لن يعمّر طويلاً، وأنه على وشك الرحيل دائماً، لهذا لم يعد أي مشاريع بعيدة المدى إلا ما كان مضطراً له كالدكتوراه مثلاً، التي حصل عليها بمنحة إشراف مشترك بين مصر وإنجلترا. وبينما تزدان جدران غرفة المكتب بصور وقصائد لإدجار بو وروبرت فروست، شاعريه المفضّلين بين شعراء الإنجليزية، فإن غرفة نومه لا غرض لها فعلاً سوى النوم، مجرد مرتبة، وأغطية ثقيلة لدرجة غير معتادة في مناخ مصر، وسنعرف حالاً سببها، بالإضافة إلى عشرات اللعب المليئة والفارغة من الدواء، أغلبها مضادات اكتئاب، ومنومات، وزجاجتين أو ثلاث من الكحوليات، ومطفأة سجائر عامرة بجثث لفافات التبغ كمقبرة جماعية.

كان مرهقاً، خاصةً بعد الاجتماع، وبعد ما شربه ودخنه من ويسكي وحشيش وفودو وتبغ، لذلك فقد اغتسل، ثم ذهب إلى النوم مباشرة دون



منوم. إنه وحيد والديه، وهذا ما أنقذه من التجنيد، لكنه فضّل الاستقلال مع مكالمه هاتفية كل شهر، لا يكاد يقول شيئاً فيها؛ لأنه يعتقد - حقيقةً لا تصنعاً - أن العلاقات الأسرية تقاليد بالية. ولكنه كان لا يطيق الوحدة برغم كونه غير اجتماعي في الأصل، ولهذا فقد حافظ على شبكة صداقات متينة، وهو يفهم جيداً أن الناس يحترمونه، لا يحبونه، ويتباهون غالباً أمام معارفهم بضممه إلى مجموعاتهم؛ باعتباره مثقفاً فوق العادة، وكان عليه درءاً لمزيد من الوحدة أن يقبل ذلك. الفرق الأساسي بينه وبين (منصور) أنه أكثر ذكاء، وأنه قد طور سريعاً ثقافة وعلماً، يكسبانه المهابة اللازمة، التي تعمل كعازل ضد الآخرين، كما أنه قد شيد عبر السنين أسواراً من البرود والتعقل، مع فجوات فيها، يستطيع هو وحده تجاوزها؛ ليصل إلى من يريد، بينما يظل العكس مستحيلاً تقريباً.

تمدد على حشيته، والتفّ بأغطيته الثقيلة جداً، حتى لتكاد تصعب عليه الحركة تحتها، ونام على جانبه الأيمن في وضعية الجنين إياها. ففي الحقيقة لم يكن (فريد) في عالمه الخاص ذلك المثقف المتعالي، الذي يظنه من لا يعرفه جيداً منيعاً ناجحاً بلا اكتئاب ولا مشكلات، بل كان منطوياً على حزن شديد، وخوف يبتلع الجزء الغالب من وجوده ذاته. وقد احتار هو نفسه في تفسير الحزن، ربما بسبب المسافة التي يخلقها تلقائياً بينه وبين الآخرين إبحاؤه اللا إرادي بالتعالي، وأفكاره المركّبة، التي يصعب تلقيها، والتي يظن الناس طيلة الوقت أن تعقيدها مقصود. أضف إلى ذلك خصلة هامة فيه؛ هي أنه نادر الثقة في الآخرين، ويتعامل مع الناس عموماً بريية وتساؤل عن الدوافع الخفية خلف أبسط التصرفات، وهذا قد يتناقض مع سرعة فهمه للشخصيات، لكنه لا يتنافى معه كذلك. ولهذا يخفي دائماً جزءاً من شخصيته عن الآخر. قد يتغير



هذا الجزء بتغيّر الآخر، ولكن يستحيل أن يرسم أحدهم صورة كاملة له. أما الخوف فربما لأن مشاعره لا تتحرك غالبًا، فكما قلنا: لا شفقة ولا رحمة ولا حب ولا حتى كراهية، فلم يبقَ إلا خوف يلتهم كل شيء، أو ربما لأن مشاعره حين تتحرك بعد طول فترة تجميد، فإن حركتها تكون مفزعة، كأنما هي ماموث دفين في الأعماق المثلّجة، إذا دبّت فيه الحياة فجأة، بعد ملايين السنين من الكُمون، وأحدث شرخًا هائلًا، وزلزالًا مدمرًا. أيّا ما كان السبب فإنه بناءً على هذا كله قد نما لديه نوع من الحساسية النفسية من البرد والشتاء.

في تلك الليلة ظل يفكّر - تحت الأغطية - في تفاصيل اليوم، لكنه أغلق عينيه ومخّه بإصرار، وأخذ يتخيّل نفسه وأصدقائه في ثياب الأبطال الخارقين، مع أسلحة نارية مختلفة، يقاتلون شياطين وعفاريت. هذا الخيال كان - ويا للغرابة! - هو ما يمنحه شعورًا بالأمان، كأنما يستعيد مغامراته مع رفاق المدرسة وهو بعد طفل، حين كان يشكّل مجموعات لاستكشاف المنازل المهجورة أو تسلق المرتفعات والخرائب. كان يستأنف هذا الخيال كل ليلة تقريبًا في شكل دراما متصلة مدى الحياة، وكان في الليلة السابقة جريحًا ينزف بغزارة، بعد أن أصابه شيطان بقذيفة بلازما فوسفورية، لكن أحد أصدقائه، ربما هو (هيثم)، قد قتل الشيطان، وساعده في تضييد الجرح، .. إلخ.

كان قد بدأ ينعس، فتلاشت ساحة المعركة، وبدأ يتجسد الحلم. راودته في البداية مشاهد عشوائية من اليومين السابقين، مشهد (منصور) المرتبك، (يمنى) وهي تناقشه، (سلمى) وهي ساهمة، وفجأة.. رأى الجسد الملقى على قارعة الطريق مهشمًا نازفًا، فاستيقظ فجأة متفصّلاً. وخطر له أن يبذل وضعه، لكنه لم يكن يستريح على الظهر أو البطن، كما



أنه - بسبب تكلُّسات مؤلمة في الحوض على الجانب الأيسر - لم يستطع الانقلاب إلى الجانب الآخر. وفكّر أنه سيتحول مع الوقت والتكلُّس، الذي لم يعرف له الأطباء سبباً ولا دفعاً، إلى مزيج من الحَجَر والبَشَر، ككائنات (أوفيد) في (التحوّلات) وهي تتشكل مرة أخرى بعد الطوفان، وتجمع بين اللحم والصخر. نصف إنسان ونصف حَجَر صَوّان، مرض (السُّردان)، الداء الذي اخترعه طاهر أبو فاشا في (ألف ليلة وليلة) الرمضانية. لا يدري إن كانت قصص (ألف ليلة) الأصلية تذكر داءً مثل ذلك، فهو لم يقرأها كاملة.

ثم بدأ يتشكّل حلم جديد بدراما أكثر اتساقاً: كان يتّجه إلى مطبخ شقته لغرض ما، ففوجئ في المطبخ بـ(سلمى)، وهي ترتدي ثوباً خفيفاً، وتقبل عليه، قائلة:

- «أنا كنت عارفة أنك إنت اللي ها تيجي».

فنظر إليها في دهشة ولم ينطق، كان يريد سؤالها أن كيف جاءت ولماذا، لكنه لم يقدر على الكلام، والمشهد يزداد بطناً، ولزوجة، وإظلاماً، أما هي فقد عبرت جواره، ودخلت إلى غرفة النوم، وتركت بابها موارباً. فخطر له - في الحلم - أن يدخل عليها، لربما رآها عارية. تقدم نحو الباب في بطء شديد لا يفهم سببه، وفتحه، فوجدها تخلع ثيابها وسط الحجرة، وهي توليه ظهرها، كأنها لا تتبه إليه.

ثم لاحظ شيئاً غير عادي..

كانت المدفأة الكهربائية تشتعل، كأنها تحولت إلى مدفأة تقليدية، تشتعل بنار زرقاء، بدت له مخيفة لسبب مجهول. وفي الظلام النسبي تبين شيئاً غريباً تحت ثياب (سلمى) أكثر إرهاباً.



كانت قد صارت عارية تقريبًا، لكن جسدها كان مرَّكَّبًا من قطع عديدة كالسلطعون، مع زوائد مفصلية، تتحرك بعشوائية، وتصدر أصوات احتكاك عضوية بشعة. وقف ينظر في دهشة ورعب، وهي تخلع آخر ثيابها، لكنها انتهت إليه فجأة، فالتفت إليه وهي تنكمش، كأنما كشف حقيقتها، وهتفت:

- اخرج.. اخرج.

حاول التراجع لكن لزوجة الكابوس تضاعفت، ورأت هي الرعب على وجهه، فتحولت ملامحها بغتة إلى ضحكة عارمة وحشية ساخرة، وهي تشير إليه بسبابتها، كأنها تسخر من جنبه.

كانت عيناها المتباينتان تتوهجان في قسوة وشر.

حاول أن يتكلم فلم يستطع، فقط أطلق صرخة خشنة، كأنها زئير، كما تفعل الحيوانات المفترسة في المواجهة، علَّه يخيفها، لكنها ازدادت سخرية وضحكًا. فكَّر أن هذا حلم، أكيد هو حلم.

انتفض على فراشه مستيقظًا، لا يدري إن كان قد صرخ بالفعل أم في الكابوس فقط. وجلس لاهثًا، وأضاء شاشة هاتفه ليتبين الساعة: السابعة صباحًا. ظل يرتجف، وهو يستشعر بردًا لا وجود له. لقد رأى شيطانًا. لقد تسلَّل شيطانٌ ما إلى حلمه.

أحكم الغطاء، وعاد إلى وضعه الجنينيِّ محاولًا استئناف النوم. بعد ساعة كاملة اكتشف أنه لن ينجح في الحصول على مزيد من الغفوة، لهذا نهض، واغتسل، ثم أعد كوبًا من القهوة مع قطعة (كيك). وأثناء تناول هذا الفطور فتح حاسوبه المحمول، وظل يبحث عن تفسير للحلم على الإنترنت؛ فبرغم علميته كان واسع الخيال، يعتقد في وظيفة تنبئية ممكنة



للأحلام، وكان يقبل بفرضية أن عالمنا ليس الوحيد، وربما وُجد إله، أو (شيء ما) في (الخارج)، بحيث يمثل الحلم وسيلة تواصل. ربما كان عالمنا محاكاة simulation، بحيث (تسرّب) بعض المعلومات عبر أجزائه، وبحيث يستقبلها البعض في الأحلام أو بوسائل أخرى. لم يكن مؤمناً بأي من هذا، لكنه لا ينفيه كذلك. على أي حال لم يجد ما يفسر الحلم.

ظل يعث لدقائق في شعره الخشن، كما يفعل عادةً وهو يشرد (لكنه لا يفعل ذلك أمام الناس)، وراح يفكر: هل للأحلام فعلاً خاصية خارقة للطبيعة؟ ولكن ما الطبيعة؟ وإذا فرضنا أن بعض الأحلام نبوءات، فما النبوءة التي يحملها هذا الحلم؟ فتح صفحته على فيس - بوك، الذي نشط جداً إبان الثورة، وكتب سؤالاً عن علاقة الأحلام بالمستقبل بشكل عام على سبيل العصف الذهني، فردّ عليه أحدهم بعد دقائق قائلاً:

- لا توجد علاقة. الأحلام مجرد تعبير رمزي عن دوافع وإرادة لا واعية. ومن هذا المنطلق تمكن قراءتها.

كان يعرف هذا الذي ردّ، اسمه (سمير عياد)، وهو صديق له منذ شهور على فيس - بوك، يتمتع بثقافة فلسفية أثارت اهتمامه، فسأله:

- ماذا لو كان أغلب أحلامنا كذلك، وبعضها نبوءات؟

- ممكن، لكن هذه الطريقة في التفكير غير علمية، وهناك رسالة بجامعة القاهرة في هذا المعنى، ومما تنتهي إليه أن اعتقاد المسلمين في خواصّ خارقة للأحلام قد صرفهم عن محاولة تأسيس علم النفس الحديث^(١). على أي حال فحسب علمي لا استقرار حتى الآن على

(١) هذا حقيقي، وهي رسالة المرحوم الدكتور توفيق الطويل، التي نال بها الدكتوراه عام ١٩٤٣ بعنوان «الأحلام، بحث مقارنة». طُبعت عام ١٩٤٥، مكتبة الآداب، القاهرة.



ماهية الأحلام بين علماء النفس والأعصاب والنوم. ويبدو أن (محمود درويش) كان محققاً حين قال:

«الحُلْمُ، ما هُوَ؟

ما هُوَ اللا شيءُ هذا

[...]

يكسرني ويخرجُ مثل لؤلؤةٍ

تُخرجُ ضوءَها،

ويقول لي: لا تنتظرنِي

إن أردتَ زيارتي

لا تنتظرنِي!»!

فكّر (فريد) أن هذا استنباط سليم، لكنه لا يلغي احتمالية تلك الخواص الخارقة.. لبعض الأحلام على الأقل. يجب أن يقرأ تلك الرسالة. مع ذلك تضايق منه؛ إذ كثيراً ما يقتبس من الشعر، ولا يقتبس إلا من (محمود درويش)، الذي لم يكن يتمتع - من وجهة نظره - ببناء موسيقي أو دلالي محكم.

أغلق الصفحة، وحاول أن يتناسى الموضوع، كأنما يتخلص من بقايا الكابوس. أدار مجموعة موسيقية لـ (راجح داوود)، وهو يرتدي ثيابه كي يجلس على المقهى قليلاً، وقد قدّر أن ضوء الشمس سيقتل الميكروبات النفسية. لديه اليوم اجتماع آخر مع أعضاء النادي، أما عمله المنتظم فقد استقال منه مكثفياً بتعاونه أحياناً مع منظمات حقوق الإنسان، وكتابة



بعض المقالات العلمية لبعض المواقع العربية والأجنبية، والتي تدفع له بالعملة الصعبة. هذا يمنحه حرية ووقتًا، لكنه وقت كئيب في أغلبه كما نرى. وفكر أن تغيير نشاط النادي هو أفضل ثأر من كآبة حياته، إنه علاج وانتقام. كم كابوسٍ عضوي مروّع زاره في وحدته الباردة؟! هذه حياة يجب أن تبدّل. هل من وسيلة للتغيير أكثر جذرية من القتل؟!

أخرج سيجارة من جيب بذلته، وفتح باب الشقة خارجًا، فوجد (سلمى).

نعم، هي (سلمى) فعلاً!

تراجعت هي في دهشة، كما تراجع هو، وقد فاجأها أنه فتح الباب قبل أن تطرق.

نظرت إليه نظرة طويلة، في مزيج غريب من الشرود والدهشة، ثم قالت بشفتيها الحمرأوين الطفليتين:

- ممكن أدخل؟



استيقظت (يمنى) منزعجة على صوت ضوضاء نقاش مرتفعة، بالإضافة إلى ضوء الشمس، الذي انتهك صالة بيت (هيثم) تمامًا، حيث قضت ليلتها على إحدى الأرائك، فحجبت الضوء عن وجهها، وبدأت تفسر صوتي (هيثم) و(فكتور)، وهما يخوضان أحد جدالاتهما التي لا تنتهي. تربعت على الأريكة، بعد أن هذبت شيئًا من مظهرها، ثم أشعلت سيجارة، ونفخت دخانها في قوة.

كان (هيثم) يروح ويجيء وهو يتكلم، وهي العادة التي كانت



تستفزها فيه دائماً، لكنها كانت تحب نقاشاته مع (فكتور) بحق؛ فهو بطريقته الاستعراضية المقتحمة المتصاعدة «كريشندو»، و(فكتور) باندفاعه، وحماسه الأيديولوجي، واختلافه كثيراً معه، يصنعان حواراً لا تراه في الغالب سوى في أفلام (كويتن تارانتينو). وكان (فريد) هو الذي لفتها إلى ذلك، لكن وجود (فريد) عادةً ما كان يضيفني على الجلسة طابعاً أكاديمياً، لا تحبه كثيراً، كما أنه يطفئ من حماس الباقين، كأنه يستلب من مشاعرهم. مصاص دماء نفسي، ذلك الذي يتغذى على طاقة الضحايا، ويتركهم أجساداً جافة جعدة بلا روح.

تنبها إلى كونها استيقظت، فخفض (هيشم) من صوته، وهو يقول:

- .. زي ما بقول لك: الإسلاميين اكتسحوا الاستفتاء.. سوري يا (يمنى).. بس إيه بعد كذا؟ أول ما يبدأ عمل الأحزاب في الانتخابات التشريعية ها يفقدوا جانب كبير من تأييدهم.

هرش (فكتور) الطويل المعقود في قوة، كأنه ينفض عنه النعاس، حيث لم ينم جيداً أمس، وقال في اعتكار مزاج:

- مش شايف فرق بأمانة، الأحزاب ستصير، على العكس، واجهة شرعية، يمكن لهم من خلالها العمل بشكل أكثر انتظاماً.

رفع (هيشم) صوته، وهو لم يزل يتحرك، وهتف:

- يا بني آدم بقول لك: هؤلاء أصحاب زيت وسكر، ولا توجد لديهم مشروعات إصلاح، ولا شيء يبيعونه للناس غير الهوية الدينية.

صمت (فكتور) في قنوط مفاجئ، ونظر إلى لا شيء، وقال:

- هذا منطقي، لكنه لا يعني فشلهم في العمل الحزبي، فالجمهور لا



يبحث عن مشروعات بمعنى مشروعات، بل عن خطاب، وهذا ما يجعل الأمر ككل كئيماً.

تنحنحت (يمنى) لتزِيل آثار النوم من صوتها قدر الإمكان، وقالت، وهي تحني جانب فمها في مأساوية:

- مصيبة. هل استشهد ألف شخص تقريباً منذ بدء الثورة، بالإضافة إلى آلاف المعتقلين، كي نتحوّل إلى جمهورية إسلامية؟
وقف (هيثم) بينهما، وهو يرد:

- هذا هو هدفهم بالتأكيد، لكنه صعب المنال. ربما توقف الأمر عند حد جمهورية شبه علمانية كما في حالة تركيا.
ظل (فكتور) يتفكّر، وهو يستطرد:

- في حالة بلد كمصر، حيث لا يوجد حالياً تراث ديمقراطي منذ تحولات يوليو ١٩٥٢، ستحوّل تلك الجمهورية إلى شمولية كما في حالة إيران.

ابتسمت (يمنى)، وقالت في مشاكسة:

- أنتَ مش ماركسي برضه؟

التفت إليها سريعاً، وقال مُدافعاً:

- تروتسكاوي، مش شمولي.

أشار (هيثم) بيده إشارات القاطعة إياها، مع حركات أصابعه، التي توحى بإشارات بذيئة (لكنها ليست كذلك)، وهو يرد في كريشندو ممتاز:



- أنت في الحقيقة متأرجح بين الستالينية والتروتسكاوية. وأصلاً اشتراكي يعني شمولي. ها تطبق الاشتراكية إزاي بديمقراطية؟ ها تأمم وسائل الإنتاج برضا أصحابها؟ افرض خصومك السياسيين أسسوا أحزاب وتنظيمات تطالب بالعكس، ها تعمل إيه؟ ثورة يوليو أممت الأراضي الزراعية بديمقراطية؟ دفعت تعويضات مناسبة؟

وفي «دي - كريشندو» (إيقاع وشدة هابطين) أكمل:

- ناس حتى الآن ما قبضتش ولا مليم في مقابل ملكياتها اللي اتأممت. ناس اتشردت وافتقرت. أميرات وبنات عائلات اشتغلت في الدعارة علشان تعيش..

ثم استأنف في تنويع نهائي:

- .. واللي اعترض دخل السجن.

قال (فكتور) متأملاً:

- هذه إشكالية كل تغيير سياسي: كيف تغير الدولة من دون أن تتلاشى كلفة من جهة، أو تتحول إلى ديكتاتورية من جهة أخرى؟

قالت (يمنى):

- طبعاً.. يعني علشان تغير نظام، وارد أن الدولة ككل تنهار على رءوس الجميع؛ لأن اللي أنت عاوز تغييره، واللي بيحميها من التفكك، هما في الحقيقة شيء واحد.

مطّ (فكتور) شفتيه، وقال:



- مش بالضرورة. دا بيحصل فقط في حالة التماهي بين الدولة والنظام. لكن الخطر دا قائم في كل البلاد العربية في رأيي.

استأنفت (يمنى):

- .. وعلشان تغير النظام محتاج برضه أنك تمنع الارتداد للنظام القديم، يعني ها تعمل ديكتاتورية.

هز (فكتور) رأسه في حيرة، وهو يقول:

- نوعاً ما.. لكن الأمل عادةً أن تكون هذه الديكتاتورية مرحلة مؤقتة.

أما (هيثم) فقد أشهر إبهاميه، وهو يهتز بحركة راقصة، مخاطباً (يمنى):

- يا واد يا جامد. صباح الاستنتاجات.

ضحكت، وقالت بحكم كونها الأكبر سنًا:

- بس يا واد!

فضحك. أما (فكتور) فقد حاول إشعال غليونه بقداحة محترقة من محاولات سابقة، ولما فشل بسبب قنوطه ألقى بالغليون في ضيق، وقال:

- الإسلاميون سيحولونها إلى حرب خلال شهور، وهي يا قاتل يا مقتول، ومن يفهم ذلك أولاً يقتل أولاً. ومن يقتل أولاً ينتصر.

ثم شرد ببصره في مزيج طويل من المقت والخوف. وعاد يقول هارشا لحيته:

- منذ يومين كنا نخطط للانتحار، فلم يكن ما يحدث في البلد ذا تأثير



تقريبًا. لم نكن نفكر في المصير. أما الآن فقد عدنا إلى هذا العالم. بدلًا من العدم صرنا نفكر في الوجود، والوجود عذاب. لكنّ هذا يعني أن كلاً من الوجود والعدم فكرة؛ إذا فكرت في الانتحار غبت عن الوجود، وإذا عدلت عنه خلقت نفسك بيدك، أو أن قتل الأنا عدم، وقتل الآخر وجود. فتبادل كل من (يمنى) و(هيثم) نظرات متفاهمة، ثم قال الأخير في هدوء:

- على أي حال ننتظر ونرى.

هزّ (فكتور) رأسه نفيًا، وقال في خوف:

- هذه حتمية تاريخية، والإسلاميون مغرورون فعلاً بالقوة بعد طول اعتقال، كالسهم بعد طيلة نزع.

انتفضت (يمنى) كأنها تتذكر فجأة، وهتفت:

- مش فاكرين لما (فريد) قال إن قبل الثورة مباشرة كانت المعتقلات تفرغ من معتقليها الإسلاميين؟

جلس (هيثم) على مسند مقعد، وقال:

- هو قال أنها مجرد ملاحظة فردية. ربما كانت الصورة الأعمّ مختلفة.

مطت شفيتها دون أن تعلق. وساد الصمت لحظات، قبل أن يقول (هيثم) ضاحكًا:

- وحدووه.. نغيّر التيمة..

وفتح جهازه المحمول ليختار بعض أغاني (البيتلز)، وضغط زر



التشغيل، ولكن بدلاً من الأغنية سمع ثلاثتهم طرقاً قوياً مفاجئاً على باب الشقة.

انتفض (فكتور)؛ بسبب تجارب اعتقال قديمة، وسأل صديقه في خفوت لم يبدُ مبرراً:

- الساعة ٨. أنت مستني حد؟

عقد (هيثم) حاجبيه في ضيق وحيرة قائلاً:

- لا.. وكمان جرس الباب شغال.

توجّه إلى الباب، ونظر عبر العين السحرية، فانتفض في مفاجأة، لكنه دقق النظر مرةً أخرى، ثم التفت إلى (يمنى) و(فكتور) في دهشة وحيرة، وهمس كيلاً يسمعه الطارق:

- مش ها تصدّقوا.

همس (فكتور):

- بوليس؟

لكنّ (هيثمًا) فتح الباب، ليرى الجميع (منصورًا)، وهو يقول في صوت ثابت غير معتاد:

- ممكن أدخل؟



استمرت دهشة (فريد) لمرأى (سلمى) لثوانٍ، لمح فيها - وهو يكذب عينيه - طيفَ ابتسامةٍ خبيثة على شفثيها، حتى خُيِّلَ إليه أنها تعرف بأمر حلم البارحة! وحين أعاد النظر وجدها لا تبسم، بل تحمل ملامحها الشاردة إياها، وتتطلع إليه في تساؤل، فانتفض قليلاً، وهو يقول:



- آه.. اتفضّلي.

فتفضّلت، وكعباها العاليان يدويّان في الفراغ، مع رنين بسيط
لخلخال رقيق ذهبي اللون.

أغلق وراءها الباب، وهو يتطلع إليها من ظهرها، كانت قد صفت
شعرها المديد بعناية، وارتدت ثوبًا من أثوابها القصيرة، بدا أسفل
معطفها، وهي تجول ببصرها في الصالة العارية، وتقول:
- حلو الطلاء.

وأشارت إلى الحوائط المدهونة بأبيض مكسور بلمحة دخانية،
ومُحيط بمساحات عملاقة من أشكال كؤوس نبيذية اللون، حتى بدا
المشهد العام كأنه خلفية بار، حيث ترفرف أجنحة الدخان حول النيذ،
أو هكذا فسّرتّه.

التفت بجسدها إليه، وهي تحمل الملامح ذاتها. أما هو فقد وضع
يديه في وسطه، وهو يتأملها، ويلتقط شهيقًا عميقًا، وعلى وجهه نظرة
جاذبة مفكّرة. وساد الصمت لحظة، قبل أن يقطعه قائلاً:

- كنت على وشك الخروج. تشربي حاجة؟

- عندك بيرة؟

بيرة في الثامنة صباحًا؟! رفع حاجبيه وقال في برود:

- أيوا.. بس أنت بتسكري بسرعة.

ابتسمت ابتسامة مشرقة، فبدت أسنانها المُنْضَدة بعناية، وقالت:

- عرفت إزاي؟



لم يجبها، وهو يرمقها بنظرة طويلة، وفي دماغه بعض الأسئلة، ثم أشار إلى المطبخ إشارة مبهمة، وقال:

- أقترح تشربي (نسكافيه) أو شاي.

هزّت شعرها، وهي تشني لتخلع حذاءها، وتقول:

- ليه لأ؟

لم يعرف أشرب نسكافيه أم شايًا، لكنها بدأت تخلع معطفها، فأظهرت كتفيها العاريتين، وفتحة صدرها، حيث أغشاه وهج أبيض للحظة عن تبين التفاصيل، فانصرف إلى المطبخ، وبحث عن برطمان النسكافيه، فوجده أعلى رفٍّ شبه خالٍ. مدّ ذراعه بطولها ليناله، لكنه شعر فجأة بيدها على كتفه. بوغت بالتصرّف، وبكيفية تسللها من ورائه دون أن يشعر، فتجمّدت ذراعه لحظة، ثم هبطت دون نسكافيه، ودون أن يتكلم أو يتحرّك، وهي تلتصق به، حتى أحس بحرارة قوية من جسمها، جعلته يأخذ شهيقًا عميقًا ثانيًا، ووجد قلبه يخفق (وهو حدث نادر).

اقتربت بشفتيها من أذنه، فسمعها تقول لاهثة:

- هو أنا ممكن أبوسك؟

فالتفت بكليته إليها في بطاء، ونظر إلى عينيها، اللتين لمعتا بإثارة لا شك فيها، وفمها الفاجر قليلًا، وشفتيها المرتعشتين. تفرّس في ملامحها، وتبين للمرة الأولى أخطود نهديها المرتفعين، وما يظهر من حمالة صدرها على كتفيها من خطين أسودين يضغطان بيضاء رخوًا. وتساءل في ثانية واحدة عما إذا كان يريدّها؟ ولماذا يريدّها؟ وماذا تريد هي؟ وإلاّ يمكن أن يتطور الموقف مع هذه الشخصية الهوائية؟ غير أنه



لم يجب لنفسه سوى عن السؤال الأول؛ إنه يريدُها فعلاً. مع ذلك لم يتحرك، فقط قال في موضوعية تامة:

- ممكن.

فأحاطت وجهه بكفيها، وهي تشب على طرفي قدميها لتصير في طوله، ثم ألصقت شفتيها بشفتيه، وهو يشعر بلسانها، وبريقها، وبأنفاسها المحمومة، التي تسارعت، فبادلها القبلة، وكفاه تضمان خصرها الرشيق المشدود في خفة. وأخيراً ابتعدت عنه لستيمترات، ووجهها يتوقد بالحمرة، ناظرة إلى عينيه في إثارة خطيرة، وقد بدأ جسدها يرتعش، ثم تحولت نظرتها إلى تساؤل صامت، لم يدر معناه. انفصلت عنه دون أن تفارق عيناها عينيه، وهي شاردة بالنظرة نفسها لا تطرف، كأنها تنتقل إلى عالم ما خلف مقلتيه، ربما إلى عقله. طالعت ملامحه المستقيمة بهندستها الأرستقراطية، والتي توحى لها بأصل أجنبي ما، غير غربي، لكنه غير عربي كذلك، ثم أغلقت شفتيها، وهي تعض عليهما عضاً طفيفاً، وأحاطت كتفيها بذراعيها صامتة. كانت رعشتها قد صارت بادية، أما هو فقد وضع كفيه في جيبي بنطاله، والتقط نفساً عميقاً مسيطراً على شعوره ووجيبه.

نظر إلى عينيها في إمعان، وسألها بصوتٍ منخفض جاد:

- وبعدين؟

تحولت نظرتها إلى الاسترحام الشهير المُميت، وفتحت كفيها كأنها ستشرح شيئاً، لكنّ نغمة هاتفه المنبعثة من جيب بذلته قد قاطعتها. صمتت آذنه له في الرد، فالتقط الهاتف، وقال:

- أيوا يا (هيثم).



- أنتَ فين؟

- في البيت.

- اسمع.. حصل تطوّر فشيخ.. تعالَ حاااااااااا!



٢ - صُعود سَلَمَى

فوجئ (فريد) بوجود (منصور) في دار (هيثم)، خاصةً في هذه الساعة المبكرة نسبياً، ودلف إلى الداخل مع (سلمى)، حيث فتح لهما (هيثم) الباب، وعلى وجهه ملامح الخطورة والجدية، وسأله:

- فيه إيه؟

أجابه (هيثم):

- فيه جثة.

ففوجئ (فريد) مرة أخرى، ولم يفتحه مظهر (منصور) المشعث، وملامحه الصارمة المتجمدة على غير العادة، فأرسل إليه نظرة حادة فاحصة، وهو يكمل دخوله، ويجلس، دون أن تفارقه عيناه. نظرت إليه (يمنى) بعينٍ مماثلة، ولاحظت ما في نظراته من لمعة انتصار ما ممزوجة بالدهشة، ربما انبهار، ليست واثقة بعد. كان (فكتور) بالغ التوتر، وهو ينقل نظراته بين الجميع، في حين قال (هيثم) لـ(فريد):

- اليوم تمت أولى عملياتنا..

قاطعته صوت (منصور) المدلهم:



- أبويا..

قالها وهو ينظر إلى لا شيء، فساد صمت تام، ثم أكمل:

- قتلت أبويا.

بعينين متسعيتين محدقتين في (منصور) همس (فريد) عدّة مرات
بلفظ غير مسموع، كأنما هو ممسوس أو يتلو تعويذة ما، لكنّ (يمنى)
قرأت شفّتيه:

- «Winner! Winner! Winner!»

التقط (فكتور) نفساً قصيراً مرتعشاً، وهتف:

- ها نعمل إيه؟

خرج (فريد) من هوسه، وسأل:

- عاوز أعرف بالضبط إزاي.

انتزع (هيشم) جاكيتّه عن مشجب قريب من باب الشقّة، وارتداه، وهو
يقول في عجالة:

- ما فيش وقت، المرحوم مستني.

هنا فقط انفجرت (يمنى) في (فريد) بوحشية، انقضت عليه، ودمعت
عينها غضباً، وهي تمسك بياقته بكلتا يديها، وتصيح:

- كله بسببك. أنت السبب.

فأرتج على الجميع، حتى (سلمى) اتجهت إليهما كأنها ستحول
بينهما، أما (فكتور) فأمسك بذراع (يمنى) قائلاً:

- (يمنى).. ما فيش داعي.



استسلمت هي له، وهي تتراجع، حيث سالت دمعتان منها، ثم انزوت في ركن واضعةً رأسها بين راحتيها، وهي تعتصر عينيها بجفونها، أما (فريد) نفسه فلم يتحرك، ولم يحاول تسوية هندامه المبعثر، كأن كل ذلك متوقع، لكنه وجم إلى حد ما. وقف (هيشم) بينهم، وهو ينقل نظراته بين (فريد) و(يمنى)، ثم قال بصوت متحشرج:

- اللي حصل حصل. علينا نتصرف دالوقت زي ما اتصرفنا قبل كدا.

ثم رفع صوته وقال بصرامة:

- إحنا كلنا أحرار ويأئسين. افكروا ده كويس: أحرار ويأئسين.

وأشار إلى (فكتور):

- تعال أنت معايا.

ثم إلى (منصور):

- وأنت كمان.

وبيديه أشار للثلاثة الباقين إشارة أفقية ثابتة قائلاً:

- مش عاوز أي نقاش لغاية ما أرجع، كل واحد يقعد في (أوضة)، ويشوف حاجة يشربها، ولما أخلص ها أكلمكم.

واستمّر ينظر إليهم مثبتاً من موافقة الكلّ، فلم يتحرك أو يتكلم أحد.

ثم استدار إلى المخرج، وهو يقول لـ(فكتور) و(منصور):

- يا الله بينا.

ثم خرج معهما. ظل (فريد) محدّقاً حيث كان (منصور) يجلس منذ لحظات، و(يمنى) تهتّز في عصبية وهي لم تزل تخفي وجهها،



بينما جلست (سلمى) على حافة مائدة طعام، وراحت تحرّك ساقها كالفتيات الصغيرات، فيما بدا أنها لا تعي تقريباً ما حدث، أو تعيه بشكل جد مختلف. وحين لمحت (يمنى) بطرف عينها ساقها وهما ترقصان، رفعت إليها وجهها في نظرة صارمة غاضبة، فكفّت عن تراقصها على الفور، وهي تنظر إلى الأرض نظرة طفولية عابثة ضامّة شفيتها.

جالت عينا (فريد) في المكان بعشوائية وهو يفكر، ثم قرر أخيراً أن ينهض. غادر الصالة، ومشى في ممر قصير، ثم دخل آخر غرفة فيه، وأغلق الباب. اعتدلت (يمنى) كأنما استراحت لمغادرة (فريد)، وقالت لـ(سلمى) بخشونة:

- عاجبك اللي حصل؟

رمقتها (سلمى) بنظرة شبه ساخرة، شبه متعالية، وهي تخلع معطفها، ثم أخرجت سيجارة، واتجهت إلى باب الشرفة المغلق، وفي انعكاسها على الزجاج أشعلت السيجارة، وتأمّلت صورتها نافثةً الدخان في خط واحد كثيف، وهي تصعّر خدها للصورة في مزيج مثير من الغرور والبراءة. ظلت واقفة تدخّن، وهي تجرّب طرقاً مختلفة في الانعكاس لنفخ الدخان، ووضع السيجارة بين الشفتين، وحين انتهت السيجارة بعد دقائق ألقته في المطفأة، ثم جلست في ركن بعيد، وأخرجت مرآتها وراحت تصلح الأحمر على شفيتها، وهي تختلس من فوق المرأة أكثر من نظرة إلى (يمنى)، التي صارت شاردة تماماً.

خلعت نعلها في خفّة، ثم اتجهت بخطوات ثابتة عبر الممر إلى حيث دخل (فريد). لم تحاول طرق الباب كي لا تسمعها (يمنى)، بل فتحته بحرص وصمت تام، حتى وقعت عيناها على (فريد) المستلقي



على فراش صغير، يحدّق في السقف بلا انفعال. نقل إليها عينيه، فظلت
ترمقه لحظة، ثم سألته هامسة:

- ممكن أدخل؟

ودخلت دون أن يجيبها. ظلت تنظر إليه، وهي تتحسس موضع مفتاح
الباب المندسّ فيه من الجهة الداخلية، وحرّكته في حرص وخفوت
شديدين كي تغلق الباب، ثم استدارت إليه.

هذه المرة كانت نظرتها أكثر جرأة وحسمًا، كأنها اتخذت قرارًا
وأدرجته مدرج النّفاذ. وتقدمت إلى الفراش، حيث نظر إليها (فريد) في
ثبات بارد. ويبد لا تقل ثباتًا، ونظرة مماثلة، فكّت أزرار ثوبها، الواحد
بعد الآخر حتى النهاية، ثم خلعت الثوب في هدوء وخفّة، فلم يبق
على نصفها العلوي سوى حمالة صدرها، حيث بدا ما بدا من نهديها
المصقولين الناصعين أكبر مما توقع (فريد)، وقد زاد سواد الحمالة من
بياضهما. نظر الأخير إلى صدرها، ثم إلى بطنها، وسرّتها، ثم رأى يديها
تتجهان إلى (الجيب) القصير الضيّق، فتفتحه، وتشده، وتتركه ينسدل.

تأملها (فريد) وقد بدا له جسمها جميلًا حقًا، أجمل بكثير مما توقع،
وأجدر بممثلة إغراء أو (بورن). مع ذلك لم يتحرك، وهو يصدر أحكامًا
نقدية - جمالية بينه وبين نفسه. أما هي فاتجهت إلى الفراش، وصعدت
إليه بركبتين ناعميتين عاجيتين. وانحنت على (فريد) الراقد على ظهره
كأنها ستقبله، لكنها لم تفعل، بل اتجهت يداها إلى ما خلف ظهرها.
بدأ يشم رائحة جسدها، ورائحة مزيل العرق بالذات، وبدت له سحرية
ومُخدّرة. كان هذا حين عالجت حمالة الصدر، ثم بحركة واحدة رشيقة
خلعتها.



هنا انبجس نهذاها في وجهه، فخفق قلبه فجأة في قوة، وتحولت نظرتة إلى دهشة. أحسّ بالماموث المتجمّد في الأعماق يتشنج في عنف على بعد سحيق، وهو لا يقوى على النظر إلى النهدين، فانخفضت هي أكثر، حتى استقرّ نهذاها على صدره، ثم التقطت شفتيه بشفتيها في مجموعة قبلاّت قوية محمومة، وهي تحتضن رأسه براحتيها في وضع أشبه بالسجود، أما هو فقد قرر أن يقطف الثمرة، فأمسك بنهديها بكلتا راحتيه في اعتصار لم يحاول أن يتأنّى أو يتلطف فيه. وهنا وجدها تأخذ شهيقاً قوياً وقد تضاعفت إثارته بغتة، فقبلته مرتين أو ثلاثاً، ثم راحت - بيدين مرتعشتين - تحاول فتح أزرار قميصه، ففتح هو القميص، وخلعه، ثم راح يخلع بقية ثيابه في سرعة، وهي ترقد على ظهرها جواره، وتحتضن نهديها، وتتحرك أطرافها بحركات منتشية لا إرادية على الفراش كمنحلة وقعت في كأس من الرحيق. وحين انتهى من خلع آخر ثيابه التفت إليها، وجذب قطعته الداخلية الأخيرة، وأزالها عن طرفي قدميها العاريتين، فسمع رنين الخلخال الدقيق، الذي لم تعد ترتدي سواه. مدّت ذراعيها؛ لتعلق بعنقه وتجذبه إليها، لكنه لم ينجذب، بل قال لها بلهجة أمرّة:

- ادّوري.

فحدقت في عينيه لحظة في تساؤل، ثم استجابت.





الفصل الرابع الجدار

١ - صُعود منصور

لم يفهم (هيثم) بالضبط، وهو يقود سيارته مصطحباً (فكتور) و(منصورًا)، السبب في تلك الطاقة، التي سرت في أوصاله سريان الكوكابين ذاته. ظل يستدعي ما حكاه (منصور) لهم بشقته. فمنذ حوالي الساعة، وقبل أن يلتقيهم (فريد) و(سلمى)، كان (منصور) يسرد عليهم حكاية رهيبة:

علمني أبي أن أسير طيلة حياتي مُحاطًا بجدار، بل أن أتمنى في كل موقف أن ينشقَّ الجدار ويبتلعني، لكنني عرفتُ البارحة أنه هو الذي كاد يبتلعني، لا الجدار.

لقد أذاب شخصيتي، أو منعها من التشكُّل، فلم يقتنع بي صديق أو زميل أو أستاذ أو امرأة. عرفتُ الخوف في سن مبكرة، وظل كامناً في أقدم الذكريات، وأعماقها أصالة، في ذات الموضع الذي فيه يحتفظ الآخرون بعصر ذهبي أو فردوس مفقود. حين بصق على وجهي وأنا بعدُ طفل في الثامنة من العمر؛ لأنني عصيت له أمراً مستجيباً لأمر أمي، مررت بتجربة تناهز الاعتداء الجنسي. كلاهما اعتداء بدني، وكلاهما مهين، وعميق الأثر، ومُمتدَّة. كلاهما جسد مختلف يداخل جسدك في أشدِّ المواطن حساسية، والوجه الذي ترفعه إلى السماء، أو تقابل به الناس هو



موطن الكرامة في جسم الإنسان، الذي ينبغي ألا يُدَسَّس. هذا الوجه لم يرتفع أمس حتى في وجه تلك الصغيرة - (سلمى) - والتي أ فوقها بعشرة أعوام. حتى تدني هو من آثار تلك الأعضاء الأجنبية على جسدي، التي لا أعرفها حقًا، ولم أقبل باتحادها بي يومًا بمحض الإرادة. حتى الله أرغمني عليه هذا الأب، الذي ضربني على الصلاة في الطفولة، وصار هو والقديم واحدًا خاصًا بي، لم أجده يومًا رحيماً، ولم أعد أقتنع بعدالته ليحاسبني، ما لم أنصب نفسي - كذلك - قاضياً، يفصل في منطقته ذاته، الذي يفصل به بيني وبين نفسي. كيف يحاسبك مَنْ لا تستطيع محاسبته؟ كيف تقبل ذلك؟ ومَنْ يشهد بعدالته؟ وما معنى أَنْ يبرِّئَ أو يعفو أو يُدين؟ قررتُ أَنْ يتَّحدَ أبِي بالجدار بدلاً من الله، أن يصير هو والجدار شاهداً واحداً على مقبرتي الروحية. قلت لكم أنني قتلْتُ روحي، ومَنْ لا رُوحَ له لا حياة له أو موت، لا خير له أو شر، ليست له خطيئة أو براءة، والقَاتِلُ العَدْلُ، وحَامِلُ أختام الجحيم.

في الصبيحة المبكرة لذلك اليوم اغتال (منصور) أباه فوق سطح داره، الذي كان يتعاون معه فيه لإضافة دور مزيد، بعد أن استدرجه، مُهَشِّمًا رأسه ببضع ضرباتٍ بقالب طوب، ومهشِّمًا القالب في الوقت نفسه كذلك. وحين تيقن من وفاته ذهب ليلتقي أعضاء النادي.

شعر (هيشم) بشيء حقيقي في كل هذا. هناك حقيقة تكشَّفت عنها هذه الخبرة، هناك كَشَفٌ. لقد وُلِدَ إنسان ومات آخر، أو حين مات الآخر، أو حين تهتكَّت تلك الخيوط الخفية الطويلة، التي يحركنا بها الله. أحس بمعنى هذا وإن لم يستطع صوغه في كلام، أو ربما وجد أن أي صياغة سوف تقصر عن وصف الطريق الموحش المروِّع، الذي تمخضت عنه هذه التجربة. سوف يصحب (منصورًا) في جزء من هذا الطريق. سوف



يحقق له جزءًا مما تمنّاه. سوف يزيد الميّت موتًا والحيّ حياةً. سيدفن القتيل، ويرقص في ميلاد إنسان جديد: إنسان تتماهى معه التخوم بين الحياة والموت.

قال:

- أنت الآن منصور فعلاً يا (منصور). كلنا نتصر ونهزم، لكنّ الفارق أنك الآن غير قابل للهزيمة. أنت حرّ، حرّ وحقيقي.

ظل (منصور) جامداً هادئاً، وقد تبدلت سحتته نوعاً عمّا عهدناه في مشاهد الاجتماعات. أما (فكتور) الجالس في المقعد الخلفي للسيارة فقد ظل يدخن متوترًا، وشاعرًا فعلاً أنه مقبل بمشاركته في هذا على مرحلة مختلفة. خطر له أن لدغَةً قد تؤدي إلى الموت، وأن أخرى قد تؤدي إلى القتل. خطر له أن القتل قد يتم فجأة، وقد يتمّ بالتدريج، وأن أولى مراحلها هي الكراهية أو الاحتقار، وأنه كذلك قد اقترب جدًا من أحكامه الخاصة للإعدام.

كان هذا حين توقفت السيارة عند دار (منصور)، فترجّل الثلاثة، وصعدوا الدرج دون أن يقابلهم أحد. وفوق السطح، وداخل غرفة في ذلك الدور غير التامّ، رأوا الجثة، التي تناثرت حولها شظايا الرأس، كأنه لم يزل ينفجر في صمت وبطء شديد. تأمل (هيثم) المشهد في مزيج من الإثارة والخوف والدهشة، ثم قال في خفوت:

- هذه الآثار على الأرضية من السهل إزالتها أو دفنها، ولكن علينا أن ننقل الجثة أو ندفنها.

تفكر (فكتور) لحظة، ثم قال:



- يمكن أن نصب عليها الإسمنت في هذه الغرفة، وستبدو فقط أعلى درجة من بقية الغرف لسبب مجهول، ولن يكتشفها أحد.

ثم نظر إلى (منصور) ليعرف رأيه، فجاوبه:

- فليصِر الشاهد قبرًا. والجزاء من جنس العمل. وعلى أحدنا - أنا أو هو - أن يلتهمه جدار.

كان (هيشم) يذكر هذه الطريقة في الدفن من حكايات (فريد) عن قصص (إدجار بو). بدت له مخيفة ومريضة، ولكنها بالفعل الطريقة الأفضل والأسهل فيما بدا له آنذاك؛ لصغر مساحة الجدران مقارنة بالأرضية. قال في تأمل:

- إحنا كدا على الطريق الصحيح. طالما بدأنا بـ(دوستوفسكي)، يبقى نختم بـ(إدجار بو).

وكانت أدوات البناء ومواده متوفرة، فقط كان عليهم خلط المزيج وتنضيد القوالب لتكوين جدار أمام جدار، بحيث تختفي الجثة بين الجدارين، اللذين يفصلهما أقل من متر واحد. هذه الحيلة أصعب على الكشف، ولا تفضّلها سوى عقلية، ينسب إليها تأسيس أدب التحريّ البوليسي، كعقلية بو. في النهاية اكتمل الجدار. لم يكن جيد الانتظام، لكنه متماسك، وحين يجفّ تمامًا لن يفكر أحد في نقبه، كما أن (منصورًا) الآن هو من يتولى بنفسه العمل على إكمال البناية بعد وفاة الأب.

وعندما علا الجدار، ولم يعد ينقصه سوى قالب واحد، أخذ (منصور) قالبًا من (هيشم) قبل أن يضعه، وقد قرر أنه هو من يجب أن يضع اللمسة الأخيرة. كان يتخيّل المشهد من الداخل، لو أن من بالداخل كان حيًا،



والقالب الأخير يسدّ آخر منافذ عالم الأحياء. يتخيل قسوة الحجارة، وبرودها، وهي تستجيب فقط لقوانين هندسة البناء، بحياة تام، صماء عجماء، مترصّصة في جنازة صامتة بلا تفكير، ومُسدّلة سجنًا لا ينتهي على ساكنها الوحيد، أو حُبلى بجثته حتى تموت هي نفسها انهدامًا.



كانت هذه من المرات القلائل التي يوقف فيها (فريد) عقله تقريبًا عن العمل مندمجًا إلى الحد الأقصى الممكن مع (سلمى)، ومع ذلك لاحظ - في دهشة - انفعالاتها المتطرفة، وهي ترتجف في إثارة تفوق ما يعرفه عن الجنس، كأنها ستعرض للقتل ذاته، وأنها تستعذب ذلك بشكل ما، وتتطلع إلي دُئوه في ترقّب واشتهاء عارمين. كانت تطلق نظراتها وأناتها المسترحمة، والتي بدت له مع الوقت غير بشرية. لكن الأمر اختلف تمامًا حين تواجهها، مع تغيير الوضع، وهي راقدة على ظهرها.

فجأة اختفت الإثارة من وجهها وصوتها لسبب غير مفهوم، وبقي فقط الاسترحام، وهو يبلور تصوّرًا مبينًا للموقف ككل، ثم ترافق الاسترحام مع اشمئزاز واضح، بدا في محاولتها - غير الجادة مع ذلك - لدفعه عنها في وهن. بعد لحظات ظهر عليها الألم كذلك. حاول أن يقبلها فأشاحت بوجهها، لكنه كان قد اقترب من الذروة، وصار التوقف عسيرًا. وحين وصل إلى القمة، وانخفض المنحنى حثيثًا، كانت هي تتلقى كل حركاته في ميكانيكية تامة، مع قدر أكبر من التقرّز والوجع، ثم تقلّصت ملامحها، كأنها على وشك البكاء، وانقلبت إلى جانبها. رقد جوارها لاهثًا، وهو لم يزل يشعر بأنه مرّ بالخبرة الجنسية الحقيقية في حياته، مع أجمل من عرفهن من نساء. أما هي فقد نهضت بسرعة، والتقطت بلوزتها على عجل، ودون حتى أن تغلق أزرارها كانت قد خرجت من الغرفة إلى الحمام المقابل لتغتسل، وتركته وحيدًا عاريًا مندهشًا متفاجئًا.



وفي ببطء بدأ دخان أسود من أفكاره يتصاعد بين تلافيف محّه، ويغزوها الواحدة بعد الأخرى، كغاز سام يفوح في حرب قذرة. لقد شعر أنه اعتدى عليها. وتملكه إحساس بشع بسبب ذلك. الأبخع أنها- كما استنتج قد احتالت عليه بشكل ما ليشعر بذلك! وبالتالي أحس أيضًا أنه اعتدى عليه. نهض جالسًا منحنيًا في حزن وقهر، ومتقززًا وجريحًا من الموقف ككل.

ثم نهض تمامًا محاولًا التخلص من المشاعر القاتمة التي انتابته، والتي - فيما ظهر له - سوف تبقى برغم كل شيء. ارتدى ثيابه، وغادر الغرفة، فقابلها وهي راجعة من الحمام، نصف عارية، لا تنظر إليه، وعلى وجهها أمارات صارمة، كأنها كانت بصدد مهمة محددة، وقد انتهت. توقف، ونظر إليها متسائلًا، وهو يحول بينها وبين الغرفة، لكنها تجاهلته، وهي تلتف حوله؛ لتدخل، وتكمل ارتداء ثيابها.

اتجه إلى الصالون، فوجد (يمنى) واقفة في الشرفة تدخن، فانفرد بمجلسه، وأخرج سيجارة، وظل يدخن، ثم يشعل سيجارة بأخرى في كمد تبدى في أحجام الدخان وأشكاله، كأنها أشباح تتصاعد من صدره. وحين حاول صرف ذهنه عما حدث على سبيل تقيّة الاكتئاب، وجد نفسه تلقائيًا يفكر فيه. التقط هاتفه واتصل بأحد متاجر الكحوليات ليتاع زجاجة من الويسكي المصري، وقد قدر أن هذا السائل الحارق سوف يعقّمه من الروح نفسه.

لاحظ أن (سلمى) لم تخرج إلى الصالون، وسمعها تتحدث هاتفياً باكية دون أن يتبين كلامًا محددًا. قال لنفسه: «طبعًا، هذا هو ما تكمل به مشهد الغتصاب أمام نفسها. إنها ممثلة ومخرجة وتريد جمهورًا». لقد خُذع خدعة حقيرة من شخصية مريضة، لكن هل هي مريضة حقًا؟



وأخذ يركب أجزاء الصورة، ووجدتها متناسقة تمامًا، ولم تعد لغزًا. هكذا كان هدفها - كما استنبط - أن تجعله يعتدي عليها بطريقة ما، وهي تجيد الانسحاب في اللحظة المناسبة، بحيث يكون هو في الذروة؛ فلا يستطيع منع نفسه من انتهاكها رغمًا عنها، وعنه. هذا يتسق مع عقلية الفريسة، التي تتمتع بها، لكنه يضيف إليها كذلك بُعد المفترس، ويوحى بأبعاد أخرى مقيّنة ومخيفة. في النهاية كان جليده الداخلي قد تحطّم، لكنه لم يذب قط، مخلفًا كسرات عملاقة دامية وقاتلة.

وبعد أكثر من ساعتين، حين كان قد أنهى نصف الزجاجاة وعلبة تقريبًا من التبغ، دخل (هيثم) و(فكتور)، وهما باديا الوجوم، مع مظهر عام مغبر غير مهندم. انتزع (فريد) عقله هذه المرة بنجاح من أفكاره، ونظر إلى رفيقيه في تساؤل. نظر إليه (فكتور) دون أن يجيب، أما (هيثم) فقد أومأ برأسه إيجابًا أن قد تمّ الأمر. عادت (يمنى) من الشرفة، وسألت:

- فين (منصور)؟

بلل (فكتور) شفّتيه بلسانه، ثم أجابها دون أن ينظر إليها:

- راح شغله.

- والجثة؟

- دفناها.

تحشرج صوتها، وهي تسأل:

- فين؟

زفر (فكتور)، وصمت لحظة، ثم أجاب:



- هو أصرّ أنه يدفنها في جدار في طابق تحت الإنشاء ببيته، واختفت إلى الأبد.

همد جسدها على مقعد قريب، وقد اسودّ وجهها دون بكاء، كأنها لم تعد تجد منه ما يرتجى، فعاجلها (هيثم):

- ما لك يا (يمنى)؟ إيه اللي فاجأك؟ لو أنت مكانه كنتِ ها تعملي زي ما عمل.

اختنق صوتها قائلةً:

- لكنه ما كانش في المكان دا. ما كانش قاتل.

ثم التفتت إلى (فريد)، وهتفت في شراسة:

- وأنت اللي حولته لدا. أنت اللي تأمرت عليه وعليها.

ألقي إليها (فريد) نظرتة الباردة، و(فكتور) ينظر إلى كليهما متوترًا، أما (هيثم) فرفع صوته صائحًا مشيرًا بسبابته:

- اللي قتله دا بصق عليه وهو لسا طفل.

هنا قال (فريد) في ببطء ومقت ضاغظًا على مقاطعه، نافثًا الدخان من منخريه كتنين غاضب:

- دي بصقة على جبين البشرية نفسها.

عاد (هيثم) يصيح بلهجة أسرع:

- دا إحنا: بشر، منتقمين، وبنفهم المعنى الوحيد للكراهية، اللي ما فيش غيرنا بيّفهمه، وعلينا إننا نكُون أنفسنا بدون تزييف. إحنا ما لناش دية عند نفسنا، واللي مالوش دية عند نفسه ما حدش له عنده دية.



نقل (فكتور) نظراته بينهم، ثم واجه (يمنى) قائلاً:
- (يمنى).. هي قاتل أو مقتول. ولو ما كانش قتل السبب في انتحاره
كان انتحر.

- وهو دالوقت مش ها ينتحر؟
أجابها (هيثم) بعينين متسعيتين:
- دالوقت له هدف في الحياة. النشوة نفسها أصبحت هدف. الواحد
بيتعوّد على المخدرات بعد فترة، لكن القتل دائماً خطر.

ثم أردف في حسم أكبر:
- (يمنى).. أنت ممكن تراجعني لو شايقة الموضوع أكبر منك.
محتاجين ننهي ده النهار دا. محتاجين نعرف مين ها يستمر، وهل اللي ها
يستمر فاهم العواقب كويس ولا لأ.
صمتت، فقال:

- فكّري، وها نعقد اجتماع اليوم بعد ما (منصور) يخلص شغله
ويعدّي علينا.



٢ - قواعد القتل الأربع

في مساء اليوم التقى الستّة في غرفة الاجتماعات، وافتتح (هيثم)
الاجتماع قائلاً:

- اليوم تمت أول عملية، قام بها (منصور)، وكان رد فعل (يمنى)



معارض لها، دالوقتِ أعتقد أننا محتاجين نعرف منها بوضوح إن كانت
ها تستمر أو لا.

نظروا إلى (يمنى)، التي كانت خافضة الرأس في أسي. وبعد لحظات
قالت مقتضبةً في استسلام:

- أنا ما ليش مكان في العالم غير هنا.

تراجع (هيثم) في ارتياح، وقال:

- تمام. أظن موقفها واضح للجميع، أرجو إننا لا نسمع اعتراضات
انفعالية من النوع دا تاني من أي حد.
وأخذ شهيقاً عميقاً، ثم قال:

- النقطة الثانية اللي محتاجين نناقشها هي عملية (منصور) نفسها.
العملية دي استوفت شرط مهم؛ أنها تمت بناءً على دوافع شخصية بحتة،
وده كويس، لكن المشكلة أنها تمت بدون تحضير. صحيح أن (منصور)
نفذها كويس لكن فيه ظروف كتير ساعدته في دا؛ مثلاً أن الدور اللي
تمت فيه تحت الإنشاء، وسهل تختفي فيه جثة، وأن ما حدش شاف ولا
سمع، وأن وسائل الدفن كانت متوافرة في نفس المكان. لكن فيما بعد
محتاجين التشاور والتخطيط بيّنًا لتجنب المخاطر، وخاصة إن معانا
(فريد)، وهو طبيب شرعي، وعنده جانب من الخبرة الجنائية. قلنا في
الاجتماع السابق ما معناه: أن أسوأ حاجة ممكن تحصل هي أن واحد
منا يتقبض عليه، ويضطر للانتحار ساعتها، ومش ها تفرق كتير لأنه كِدا
كِدا مقرر الانتحار، لكن إحنا مش عاوزين نضطر للأسوأ.

وافقه الجميع في صمت، وقد بدا (منصور) مختلفاً عمّا عرفوه



أمس أو صباح اليوم؛ بدا هادئاً غير متوتر، وغير واجم، واختفت النظرة الصارمة من عينيه، لكنه لم يزل متحفظاً ومقتصدًا في توزيع نظراته. وما لاحظته (فريد) و(يمنى) أن (سلمى) بدأت تنظر إليه نظرة فضولية. ويبدو أن ما كانت تتمناه (يمنى) بصددهما سوف يتحقق بشكل ما. أما (فريد) فقد شعر بسخرية الموقف؛ حيث سيلحقه ما سبقه هو إليه من (سلمى).

نظر (فريد) إلى (هيثم)، وقال مستعيداً برودة صوته:

- في رأيي محتاجين كمان صياغة مجموعة قواعد أساسية لعمل النادي.

- آه.. بالتأكيد.

ثم تناول قلمًا غليظًا أسود، واتّجه إلى لوح كتابة على الجدار المقابل، تحت لوحة (العشاء الأخير)، وهو يتلو ما يكتب:

١. كل عملية يجب أن تُناقش في اجتماع قبل الشروع في تنفيذها.

٢. يمنع منعًا باتًا التحدث عن نشاط النادي في العالمين الواقعي والرقمي، أو أي إشارة إلى وجوده.

٣. دوافع التنفيذ شخصية بحتة، دون أي أسباب سياسية أو دينية أو عنصرية بشكل عام. لا مكان للعنصرية في النادي بأشكالها.

٤. لا يمكن لأي منّا التراجع عن العملية بعد بدء تنفيذها. كل ما يبدأ يجب أن يتم.

تراجع خطوة ليراجع ما كتب، ثم التفت إليهم قائلاً:

- أعتقد فيه إجماع على القواعد الأربعة دول. حد عنده اعتراض؟

حد عنده إضافة؟



أشار الجميع نفيًا ما عدا (فريدًا)، الذي فكّر أن نقطة هامة تنقص هذه القواعد، وربما تقدمت عليهن جميعًا؛ خطرت له لجزء من الثانية لكنه نسيها، ولم يستطع استعادتها.



بعد استراحة قصيرة قال (هيشم):

- الآن لدينا مسألة هامة أخرى. لن يجوز بدءًا من الآن استعمال المكالمات الصوتية في التواصل بصدد العمليات؛ فهي سهلة المراقبة، وذلك للاحتياط. سوف نستعمل بدلًا منها رسائل مشفرة بطريقة خاصة، وسوف يطلعنا (فريد) على ذلك.

نقل (فريد) عينيه بينهم في جدية قائلاً مع بعض المصطلحات الأجنبية كعادته:

- هذه الشفرة طوّرتها بناءً على رياضيات (هلبرت)، وما تعلّمته من المقامات الموسيقية. باختصار، وبدون الدخول في تفاصيل، فقد طوّعت أسلوب التتابع النغمي، الذي له نظام معين، أقرب إلى لغة عند كل موسيقار، لإنتاج شفرة لا يمكن حلّها بالوسائل الشائعة لكسر الشفرات، وقد اخترت الموسيقى (شوبرت) تحديداً؛ لأنه أقل شيوعاً من (بيتهوفن) و(موتسارت) مثلاً، كما أن نظامه اللحني عالي الاتساق، بحيث ينتج تتابعات يمكن توقعها عن طريق برنامج محدد، صغته بنفسه طبقاً لخبرات سابقة تمّت على أيدي آخرين في هذا المجال من البرمجيات^(١). (ثم أظهر لهم هاتفه) وسيكون مع كل منكم برنامج كهذا،

(١) هناك بالفعل برامج يمكن لها توقّع الألحان بناءً على أولى المعطيات حسب أساليب الموسيقيين، وربما كان أشهر الأساليب، التي استطاعت تلك البرامج التنبؤ بها، هو أسلوب موتسارت.



هو كيبورد Keyboard رقمي مكوّن من عدة أوكتافات، كل ضغطة تنتج نغمة، لكنها - طبقاً لنظام معيّن - سوف تتحول إلى كلمات. وكل ما عليك هو أن تعزف ما تريد قوله. الموضوع يبدو معقدًا، لكنه سيصير بسيطاً بعد التمرين. وبرغم أنها شفرة تناظرية symmetrical، أي أن مفتاح الكتابة ومفتاح القراءة واحد، بما يعني أنها كلاسيكية نوعاً، وأبسط حتى مما يستعمله بروتوكول HTTPS الذي ترونه في متصفّحات الإنترنت، والذي يستعمل كلاً من النظامين التناظري وغير التناظري، فإنها صعبة الكشف. نحن نتكلم هنا عن قتل، وبالتالي نحتاج إلى تأمين اتصالاتنا.

نفخ (فكتور) سحابة ضخمة كناية عن الاهتمام، وقال:

- لم أفهم كل هذا، لكن لم أعرف عنك الاهتمام بالموسيقى الكلاسيكية.

- في حدود الاهتمام الرياضي فقط.

- وما دور (شوبرت) ونظامه في الموضوع؟ يعني ألا يمكن أن نعبّر عن كل حرف بنغمة على الكيبورد وينتهي الأمر؟
أجابه هازاً كتفيه:

- عندئذٍ سينتهي أمرنا نحن؛ فما تقوله هو في الحقيقة أحد أسس صياغة الشفرات، هو النظام الإحلالي substitutional، أي المعتمد على إحلال حرف محلّ حرف يليه أو يسبقه أو من لغة أخرى، وهكذا، لكنه نظام تقليدي جداً، ويمكن حتى لغير المتخصص كسره بطريقة إحصائية تُدعى بالهجمة الإنتروبية أو Entropic attack، حيث نعرف مسبقاً أكثر الحروف تكراراً في اللغة المستعملة، والتي لن تخرج عن العربية أو الإنجليزية في حالتنا، بما يعني أن المراقب يستطيع معرفة مقابل الألف



واللام مثلاً طبقاً لنمط تكرارهما، وتتابعهما، أو مقابل ذلك بالإنجليزية، وبالتالي مع بعض الجهد يمكن فك هذا التشفير بسهولة، خاصة مع استعمال برامج الكمبيوتر الإحصائية.

ثم أشعل سيجارة، وقال مضيقاً عينيه اللتين آذاهما الدخان:

- لكن هذا النظام الذي ابتكرته مختلف؛ فهو - كما يمكن القول - يُنتِج لغةً جديدة في كل مرة، بحيث تُكتب كل كلمة بلغة مختلفة، بل - بالنسبة للكلمات الطويلة - كل نصف من نصفي الكلمة. تخيل شفرة إحلالية مثلاً، كالتي تصفها، تستعمل لغة مختلفة لكل كلمة، هذا سيجعل الأمر أعقد بكثير، وسيحتاج إلى كمبيوتر أسرع، وربما إلى أكثر من جهاز كمبيوتر. إنّ نظام (شوبرت) النغمي ثابت، لكن المعطى كلّ مرة مختلف، بما يجعله ينتج كل مرة نظاماً نغمياً مختلفاً، يتحول إلى أبجدية عربية عند المستقبل. وعن طريق بعض الرياضيات يمكن تبديل الناتج، حتى لو كان المعطى ثابتاً. يعني لو أرسلت لي عبارة (الاجتماع اليوم) عشر مرات مثلاً، فإنها سترجم إلى لحن مختلف كل مرة من مجموعة كبيرة جداً من الألحان، كلها تعمل بنظام (شوبرت)، وهذا - فيما أعتقد - عسير على الكشف.

مطّ (فكتور) شفتيه، وهزّ رأسه وكتفيه دلالة على الموافقة مع عدم تمام الفهم، بينما سأله (منصور)، الذي بدا صوته غريباً، وهو يشارك بإيجابية للمرة الأولى:

- وهل أنتَ واثق من أمان هذا النظام؟

أوماً (فريد) إيجاباً، وقال:

- إلى حد كبير، ونحن لا نتعامل مع الـ CIA على كل حال.



سألته (يمنى) بصوت هادئ، يمزج الإعجاب بالمقت والدهشة:

- كيف تعرف كل هذا؟

جالت عيناه الغائرتان في هاليتين داكنتين في فضاء الغرفة، وهو يفكر في إجابة لا تبدو تعالياً، فقال:

- طوّرتُ هذه الشفرة لكتابة أجزاء معينة من مذكراتي.

ثم شرد. وحين طال شروده لحظة، ابتسمت (سلمى) مع لمعة انتصار ما، وهو ما لمحة لجزء من الثانية، وأوّلها أنها بتقديرها له قد توصلت إلى أنها أحسنت فعلاً اختياره كضحية. فكّر أن هذه الفتاة قد اغتالته روحياً بحق، وأنه لم يغفر الإساءات قط، لكنه يتناساها إلى آجالٍ مقررة في الغالب.



بعد الاجتماع انصرفت (يمنى) إلى دارها، وبقي (فكتور) و(هيشم) و(فريد)، بينما لحقت (سلمى) بـ(منصور) وهو يدخل إلى المصعد. نادته فتوقف، وقالت:

- ممكن توصلني؟

رسم ابتسامة باهتة، وقال:

- للأسف مش معايا عربية.

- عارفة. أقصد لغاية لما ألاقى تاكسي.

دخلا المصعد معاً، وهي تقول:

- اسمع. أنا ما كنتش أقصد أضايك بكلامي امبارح. أنا ساعات

مندفعة و.. و..



- وعفوية.

- وعفوية. وبعدين أنا عيلة ما تاخذش على كلامي.

ضحك ضحكته المكتومة، ولم يعرف بما يرد. فسألته، وعلى شفيتها
ابتسامة غير مفهومة:

- مَوْتٌ باباك؟

وجم، وقد فاجأه الموضوع، فسألته مرة أخرى:

- ودفتته في الحيطه؟

تنهد دون أن يجيب، فقالت:

- أنا كمان كان نفسي أَمَوْتُ بابا، بس بعد ما كبرت عرفت إنه بني آدم
غلبان.

بدت له لهجتها طفولية، فابتسم، وكانا خارجين من المصعد، حين
واجهها وقال بصراحة:

- (سلمى).. أنا بحبك.

تنهدت بدورها لحظة، ثم قالت بنظرها المسترحمة:

- عارفة. بس أنا.. ها أدمرك.

هز رأسه كناية عن التعاؤل، وقال:

- مش مهم، اللي بيحب مش بيكره.

فكّرت أنها سوف تفتقد ردود (فريد) غير التقليدية، لكن (منصورًا)
بدا لها، بما قام به اليوم، أسطوريًا بشكل ما، فخفق قلبها، وهي تسأله:



- هـ.. هو أنا ممكن أبوسك؟

نظر إليها غير مقتصد في الدهشة، يتأمل العينين غير المتماثلتين لونها، حتى يخيل إليه أنه أمام امرأتين متداخلتين. وحين بدا لها أنه لن يتحرك جذبته إليها، ليصير في ركن بمدخل البناية، وطالعت بشرته السوداء التي تضفي على ملامحه الفرعونية ما هو أقرب إلى الأناقة من الوسامة، بقامته المديدة، وعينه المندھشتين دوماً، فشبت على طرفي قدميها، وأخذت رأسه بين كفيها، وقبلته. كانت هذه أولى قبلات حياته، فتزاحمت مشاعره، وتضاربت، إلى الحد الذي لم يعد معه يشعر بشيء. اندمجت أولاً في القبله، لكنها ابتعدت عنه بعد ثوانٍ - لدهشته - وانكمشت في الركن، كأنما تبحث عن مهرب عبر الجدار، ومُشيحة بوجهها، الذي ارتسمت عليه معالم عذاب مجهول. استجمعت أنفاسها، ثم تحرّكت خارجةً، فتبعها. وحين خرجا من البناية سألهما:

- ما ليك؟

تحولت ملامحها إلى نوع من المهينة والصرامة، تماماً كما حدث بعد مضاجعتها لـ (فريد) منذ ساعات، وقالت:

- ما فيش. أنا ها ألاقى تاكسي لو حدي. بعد إذنك.

وانصرفت سريعاً في خفة. أما هو فقد وقف فاقد الاتجاه، ثم قرر أن هذه الفتاة مرهقة لسبب ما، وجريحة، وأنها تحتاج إلى بال طويل من التفهم. وكان بنزعة رومانسية، تميزه وتثير سخرية بعض أقرانه، وناطقة في الواقع عن قلة خبرته بالنساء، قد اعتقد أنه هو القدير على فهمها، ولم يتهمها بشيء.





الفصل الخامس

الصالون

١ - جبروت بدون صوت

بعد يومين انعقد اجتماع جديد. وعلى رأس المائدة كالعادة جلس (هيشم)، وافتتح الاجتماع قائلاً:

- النهار دا يا جماعة ها نناقش ٣ مشروعات مقدمة من (يمنى)، و(سلمى)، و(فكتور). الأهداف المختارين هما: (محمود عبد الرحمن) الزوج السابق لـ(يمنى)، و(مدحت الشرقاوي)، دا هدف (سلمى)، والحقيقة مش عارف علاقته بها إيه بالضبط، لكن ها نتكلم، وأخيراً (سيد عبد المنعم)، ودا قيادي سلفي من سلفيي ما بعد الثورة، كلكم عارفينه، وهو هدف (فكتور).

عاجلهم (فكتور) بقوله:

- أنا بأكد يا جماعة أن اختياري لهدفي شخصي بحت، (ثم وهو يوجّه كلامه إلى منصور تحديداً) مش بدافع ديني يعني. وأنا أعرفه شخصياً من زمان؛ لأنه كان يساري معايها في النشاط السياسي، وتحول.

قال (هيشم) في سرعة:

- ده مفهوم يا مان، مش محتاج توضيح.



كان (منصور) يهزّ رأسه أن لا حرج في استهداف الإسلاميين، ثم قال:

- ما عنديش مشكلة. على كل حال أنا مسلم عادي مش إسلامي.

التفت (هيثم) إلى (فكتور) وقال:

- المهم كذلك ما يكونش الدافع سياسي.

هزّ (فكتور) رأسه، وهو يعبئ غليونه، ويقول:

- لا خالص. أنا بكرهه مجّاناً.

نظر (هيثم) إلى الجميع قائلاً:

- ممتاز. وطبعاً دوافع (يمنى) شخصية ومفهومة. باقي (سلمى).

ظلت (سلمى) تدخن سيجارتها، التي اصطبغت بأحمر الشفاه، دون أن ترد، كأن كلاماً لم يوجه إليها، فعاد (هيثم) يقول متصنعاً الرسمية في مخاطبتها:

- يا آنسة.. إيه دوافعك؟ ومين (مدحت)؟

مطت لحظة شفيتها، وظلت صامتة لثوانٍ، ثم قالت في بطء وبساطة دون أن تنظر إليه:

- طالما الدافع شخصي ها أوضح ليه؟

تنهّد (هيثم) في صبر، ثم قال:

- ما هو إحنا هنا علشان نتأكد أن الدافع شخصي. يعني زي ما (فكتور) وضّح كدا.



تجولت بعينها مفكرة في صمت لحظات، ثم هزت كتفيها، وقالت:
- الدافع شخصي.

أشار (فكتور) إلى (هيثم) ليتدخل في النقاش، وسألها:
- طيب ممكن أطفل عليكِ وأسألكِ ليه عاوزة- لا مؤاخذه- تتخلصي منه؟

ظلت تتفكر في هدوء، وهي تداعب المطفأة بطرف السيجارة، ثم هزت كتفيها مرة أخرى قائلة:
- موش عارفة.

نظر (فريد) إلى (هيثم) وقال في تقرير:
- إجابة صحيحة.

أسند (فكتور) رأسه على معصمه ضاحكًا، بينما سيطر (هيثم) على ابتسامته، وعاد يقول للجميع:
- ها ننتقل دالوقتي لمناقشة الوسائل. ونبدأ بـ(يمنى).

مطت شفتيها في اشمئزاز، ونظرت بنظرة خاصة إلى (فريد)، وهي تقول:

- أنا ما ليش في الوسائل الدموية، أنا ممكن أستعمل السم.
أوماً (فريد) لسبب ما برأسه موافقًا، كأنه توقع ذلك، بينما سألها (فكتور)، وهو يستعيد وقاره الغليونى:
- وعندك سم فعّال؟



ابتسمت وهي تهزّ شعرها كناية عن الخبرة، وقالت:

- أنا كيميائية يا باشا. ركبته بنفسِي.

التفت (هيثم) إلى (سلمى) متسائلاً:

- والآنسة؟

ردت بصوتها المبحوح في ملل:

- أي سَكينة تنفع.

نظر (فكتور) إلى (هيثم)، وقال:

- السلاح الأبيض محتاج قوة معينة.

قال (فريد) جامداً:

- وشراسة معينة.

فكّر (هيثم) قليلاً، ثم قال:

- عموماً إحنا ها نكون موجودين قرب المكان، وها نتفق على رنة

موبايل لو فيه أي مشكلة. بس خلّي بالك يا (سلمى): يا قاتل يا مقتول.

يعني لو فشلت، وفضل صاحي، ممكن هو اللي يقتلك.

قال عبارته الأخيرة بحدّة مُنذرة، لكنها ظلت تدخّن دون انفعال. ظل

ينظر إليها دون استجابة منها، لذلك فضّل الانتقال إلى (فكتور). التفت

إليه فقال:

- الحقيقة ما ليش خبرة كافية بالسلاح.

رد (هيثم) مفكراً:



- ها نناقش الوسائل بشكل أوسع بعدين.

ثم انتقل إلى نقطة أخرى:

- المكان والزمان.

وأشار إلى (يمنى) أولاً، فقالت بصوت متحشرج:

- أنا عندي معاد معاه بكره في شقتي. وشقتي بالدور الأرضي. وسهل ننقله بعدها للعربية، وبعدين نتخلص منه.

قال (فكتور) في حرارة متوترة:

- أنا ممكن جداً بعد بكره، والمكان شقته أو شقتي، وها أستدرجه بمناقشة أيديولوجية من بتوع زمان، ولو ما نفعش، ها أقول له إني عاوز أغير ديانتي.

رد (هيثم):

- ممتاز. والآنسة؟

قالت (سلمى)، وقد بدأت تضيق بالأسئلة والتنظيم:

- بعد يومين أو ثلاثة ها أروح له شقته.

سألها (فكتور):

- بأي حجة؟ وها ننقل الجثة إزاي؟

ردت في بطاء:

- وننقلها ليه؟ مش ها تكون فيه أدلة، ومش ها سيب له فرصة يقول

لحد إني رُحت له.



عاد يسأل:

- وها تروحي له إزاي؟ لأي سبب يعني؟

بدا سؤاله للجميع زائداً عن الحاجة، فالتفت الجميع عنهما. وهنا وأدثت سيجارتها ببطء، ثم - بحركة سريعة جانبية لم يلحظها غيره - فتحت زراً في بلوزتها، فظهر نصف نهديها بوضوح، وألقت إليه بنظرة صامتة صارمة، فقابلها بدهشة.

كان (هيثم) يقول:

- طيب كدا حددنا المطلوب في ٣ عمليات قادمة للأيام الثلاثة أو الأربعة الجاية. بعد الاجتماع دا الثلاثة أصحاب العمليات بس ها يجتمعوا بـ(فريد) لمناقشة الجوانب الجنائية.

أوماؤا برؤوسهم موافقةً، وقال (فكتور):

- حالياً مش فاضل غيرك و(فريد).

كاد (هيثم) يرد متمهلاً، لولا أن قالت (يمنى) بنظرة معينة إلى (فريد):

- (فريد) أنجز فعلاً

كانت تعرف أنه هو صاحب الفكرة وتطويراتها، بدءاً من العلاج الجماعي، مروراً بالانتحار الجماعي، ثم القتل العلاجي، وأخيراً عملية (منصور)، التي تنسب له دوراً محورياً فيها. أما (فريد) فلم يرد أو ينظر إليها، وقد قدر أن في ذلك عدلاً ما دامت تتكلم عنه بصيغة الغائب.

نقل الجميع عيونهم بينهما، حتى قال (هيثم):

- الاجتماع انتهى. ممكن (منصور) ينصرف، وها يفضل (فريد) مع



أصحاب العمليات لاستكمال الأوجه الباقية. وأنا عن نفسي محتاج لاهوت.

قال جملته الأخيرة وهو ينهض بالفعل، وخرج إلى الصالون، ولحق به (منصور)، فجلسا على أريكتين متقابلتين، و(هيثم) يسأله، وهو يبدأ في رصّ المعسل مع الحشيش:

- عامل إيه يا باشا؟

قال (منصور) في وجوم عام، وهو يتحاشى النظر إليه مباشرة:

- عندنا في البيت حالة قلق عامة. قلت لأمي إني ها أبلغ البوليس عن اختفاء المرحوم. وبعدين قلت لها إني بلغت فعلاً. وطبعاً ما بلغتش.
- وأخواتك؟

- عادي مش فارقة.

هزّ (هيثم) رأسه في استحسان، وأخذ نفساً عميقاً من (الجوزة)، التي اشتراها من الحسين خصيصاً للتحشيش، وقال:

- عظيم. يعني أنت حققت هدف قومي.

ثم ناوله الجوزة، فأعرض عنها في حرج، فقال:

- لسه متدين؟

هرش (منصور) شعره، وقال:

- مش عارف. الدين استعمله أبويا كتير ضدي. وفي المقابل أنا ما عرفتش أستعمله لصالحي.

وجد (هيثم) أن الآن ليس وقت التفلسف، فضغط زر الريموت



كونترول ليفتح التلفاز، الذي يستقبل إرسالاً من اليوتيوب، واختار بعض الأغاني، وظلا يستمعان لنصف الساعة، حتى انتهى (فريد) من تلقين الآخرين بعض التعليمات. اجتمع الستة في الصالون، وتبادلوا الجوزة، ما عدا (منصورًا)، الذي استأذن لينصرف. لحقت به (سلمى) خارج الشقة، قائلةً في تعلق طفولي، كأنها تودّع أباهما:

- خلي بالك من نفسك.

- مش ها تروّحي؟

- ها أروّح كمان شوية.

نظر إليها طويلاً، ثم قال بصوت خافت كيلا يسمعه من بالداخل:

- طيب اتصلي بي لما تروّحي.

ابتسمت موافقة:

- ماشي.

انصرف، فدخلت إلى رفاقها، واقتربت من (هيثم)، ثم جلست على ركبتيه في جراءة وبساطة، ثم نادته:

- داداي..

- همم؟

- ما فيش فودو؟

كان (هيثم) قد انسلط إلى حد ما، فقال بعينين شبه مغمضتين:

- لا، لا، ما فيش ليكي فودو. مش فاكدة لما حصلت لك bad trip

وما عرفناش نفوّقك؟



فخففت رأسها صامتة وباسمة في دلال بريء، ثم أخذت تهزّ ساقها في طفولة كعادتها. وساد صمت يفوح برائحتي المعسل والحشيش الذكيتين، قطعه (فكتور)، بعد أن توهّج الحجر، وهو يشدّ منه نفساً طويلاً:

- مش ملاحظين، كح، كح،.. مش ملاحظين حاجة شريرة في موضوع العمليات دا؟

دوّت ضحكة ممطوطة من (يمنى)، وأخرى مجلجلة من (هيثم)، وقد بسطه الحشيش، وقال في استنكار شديد ضاحك:

- شريرة؟!!!

ضحك (فريد) بدوره، حيث كان الحشيش، والمخدرات عموماً، الشيء الوحيد الذي قد يكسبه مرحاً، وقال:

- في الواقع أيوا.. الشيطان بس هو اللي ممكن يخرجك من دماغ اللاهوت.

نظر لهم (فكتور) بعينين محمرّتين، وقال:

- بتكلم بجدّ. (موضوعات) العمليات الثلاث القادمة شباب من عمرنا، جيلنا نفسه اللي قام بالثورة. الصراحة ضميري مش مستريح.

وضع (فريد) ساقاً فوق ساق، وهو يسترخي على الأريكة، وقال، والحشيش يكسبه طلاقة وتأثيراً أكثر:

- المكتئب مُعاق.. إعاقة مسببة للانتحار. وكل شيء بالنسبة له مشروع حين يصل إلى هذه النقطة، اللي وصلنا إليها كلنا. قرار الانتحار المخطط له أقسى من القتل؛ لأنه قرار إعدام. يعني أنت عارف أن دي



هي آخر مرة ها تشوف فيها أمك، آخر مرة ها تسمع فيها موسيقى، آخر مرة ها تشوف فيها نور الصباح، وأن ساعة عمرك بتتناقص بسرعة مخيفة، ودا عذاب رهيب، أعتقد أننا كلنا مررنا به. وبعد كل دا مش من حق حد يحاسبك على أي فعل، ولا معنى هنا للأخلاق كلها أصلاً؛ لأنك لما تاخذ قرار بالانتحار فأنت إما مختلّ إلى حد بالغ، أو مظلوم إلى أبعد مدى، وفي الحالتين لا مسئولية ولا حرج عليك، واللي عاوز يحاسبك فالمفروض يحاسب اللي وصلك للمرحلة دي، مش أنت. اللي عاوز يحاسبك فين حسابه هو؟

استلم (هيثم) الجوزة ثانيةً، وقال:

- يعني ضميرك يموت، ويستريح للأبد.

ثم التفت، وكأنما تنبه الآن فقط إلى كلام (فكتور) عن الثورة:

- وبعدين يااا دي الثورة! يا جدعان دي مش ثورة. دي احتجاجات، احـ... تـ... جا.. جات.

قالت (يمنى) ساخرة من (حزب الكنية):

- «خربتوا البلد».

فضحك الجميع عدا (هيثم)، الذي قال:

- أيوا فعلاً خربوا البلد. الحشيش بقى سعره زي الذهب.

ثم بدا كمن تذكر شيئاً، فقال بلهجة جادة:

- فكّرتوني.. لازم أتصل بـ(إبراهيم).

و(إبراهيم) هو متعهد توريد الحشيش وسواه من الأصناف، كما يعلم الجميع، فسألته (سلمى)، وهي ترفع كفيها إليه في ابتهال:



- أكلّمه أنا يا دادي؟

طلب الرقم على هاتفه، وقال:

- لا، ده موضوع كبير.. آلو.. إزيك يا معلم؟ أنتَ في اللاهوت ولا في الناسوت؟

اللاهوت يعني كما نعرف المخدرات، أما الناسوت فيعني أن معه امرأة. ويبدو أنه كان (في الناسوت)؛ لأن (هيشمًا) قال:

- .. طيب.. خلّص وكلمني. بس بقولك.. الموضوع مهم.. أنا محتاج جبروت، جبروت ما لو ش صوت.

وبعد أن أغلق الاتصال قالت (يمنى):

- جبروت؟

خفض (فريد) رأسه كمن يفهم، بينما أجاب (هيشم)، وهو يحبس الدخان، فجاء صوته غليظًا أجوف:

- أيوا.. يعني سلاح.



٢ - عالم يمنى

في اليوم التالي هاتفت (يمنى) زوجها السابق للتأكيد على مواعدهما في شقتها. وقبل الموعد كانت قد جهّزت سمًا فعليًا، يقتل الضحية في دقائق. الأهم من ذلك ربما أنها حضّرت منه قنيتين صغيرتين بحجم (أمبول) المحقن؛ الأولى له، والثانية لها. كانت قد فكرت في احتمال



إلقاء القبض عليها، برغم كل الاحتياطات التي فكّر فيها (فريد)، بحيث يمكن لها الانتحار قبل بدء التحقيق معها.

وفي تمام التاسعة مساءً جاء طليقها بهدف معلّن، هو إحياء زواجهما، وهدف حقيقي هو إحياء الليلة معها. وفي صالون الدار جلسا. وضع ساقاً فوق ساق، وهو يتأمل جسدها بنظرة تعرفها جيداً. وقال:

- همم.. عاملة إيه؟

- حلوة.. أنت عامل إيه؟

كان بينهما سحب شفاف من البخار، الذي يتصاعد من كوبي الشاي. أشعل سيجارة ونفت دخانها، ثم رد:

- معقول. الشغل ماشي كويس. اتأثر كثير بعد الثورة، لكن مستمر.

أشعلت سيجارة رفيعة من سجائرهما، وقالت بهدوء جاف:

- ابتديت التدخين امتي؟

ارتشف من كوبه، ونفخ المزيد من الدخان، وقال في تعب:

- قاعد لوحدي.. مفيش حد.. مفيش حاجة.. قلت أعمل إيه؟ قلت أدخن.

تأملته بنظرة لطيفة، وهي تفكّر في طريقته للضحك على الحماقات، مثلها سابقاً. لا بدّ أنه يكرر ذلك مع كل امرأة. تذكّرت كيف تعرّف إليها بالنبرة نفسها، وكيف أحبته، وكيف اكتشفت خيانة بعد أخرى. أما نقطة التحول فكانت زميلة لها بالمعمل، تعرّفها في حفل عيد ميلادها هي. ظلت تجتّر ذكريات شعورها بالصدمة وعدم التصديق في البداية،



بإحساس عضوي مادّي بطعنة في قلبها، باهتزاز ثقتها في نفسها، بإدانة نفسها هي، بالإهانة، بالفضيحة حين كانت هي آخر من يعلم، بالخجل من هذه الفتاة الصغيرة، التي فضلها عليها، وكيف اكتأبت حتى فكرت في الانتحار، وكيف تغيرت معاني الحياة والكون تدريجيًا، وكيف صار العالم كله قشرة، تسقط لتكشف عن قشور تحتها قشور، بلا حقيقة واحدة.

وحين ارتشف رشفةً أخرى قال شيئًا ما، لكنها لم تنتبه، كانت تتساءل أيهما يستحق القتل، هو أم زميلتها، أم الاثنان معًا؟ لكنها فكرت في ذلك مرارًا من قبل، واهتدت إلى أن مشكلتها الخاصة مع زوجها، لا زميلتها، وأنها حتى لو تخلصت من هذه الزميلة - نظريًا - فستظل المشكلة قائمة. المشكلة أنه لا يحبها، رغم أنه يدّعي حتى هذه اللحظة العكس، وأنه السبب في انتكاستها، وفي تحولها إلى شخصية انتحارية، بل قاتلة. ولكن - في رأيها - قاتلة يدينها الناس خيرٌ من بريئة تدين ذاتها.

«(يمنى)؟».

انتفضت لحظة، وقالت:

- همم؟

- كنت بقول...

وشردت مرة أخرى. قاتلة؟ هل هي فعلاً قاتلة، أو على وشك أن تكون كذلك؟ ولكن كما قال (فريد) بالأمس: لا معنى للأخلاق عند المكتئب المتحرّج. فما بالك لو كانت الضحية هي السبب في تخطيطه للانتحار؟



هنا بدأ يسعل، ويمسك معدته، ثم بدا أنه سيتقيأ، لكنه لم يفعل. كانت ملامحه المحتقنة حائرة، وهو لا يفهم بالضبط ما يحدث.

- (يمنى).. أنا.. أنا تعبان.

ظلت تراقبه كأنما تراقب حيواناً في المختبر، وأدهشها أنها لا تشعر بشيء، لا التشفي، ولا السعادة، ولا الصدمة كما تخيلت، بل تتحرى تأثير السم عليه. هل هكذا يفقد القتلة شعورهم؟ هل يفقدون الشعور أصلاً؟ هل يكتسبون مناعة معينة؟ هل يغير القتل من طبيعة الإنسان؟ أم هل يعيد الإنسان إلى طبيعته، طبيعة منتقمة قوية شرسة كالحيوان؟

وحين توقفت حركاته، وهمد جسمه على سجّاد الصالون، انحنت إليه، وجست نبضه وتنفسه. لقد رحل.

عادت إلى مقعدها لا تعرف فيما تفكر. ثم خطر لها أن الأكيد - على الأقل - هو مهارتها كيميائية. وبعد دقائق تناولت هاتفها، وكتبت عن طريق شفرة (فريد) رسالة، فحواها أن المهمة قد تمت.

وفي سيارته القريبة من الشارع نفسه تلقى (هيثم) الرسالة، وإلى جواره (فريد)، وفي المقعد الخلفي (فكتور)، حيث قال الأول:

- المهمة تمت يا رجالة.

سأل (فكتور) مندهشاً متوتراً:

- بالسرعة دي؟

رد عليه وهو يدير السيارة:

- كيدهن عظيم.



قال (فكتور) ممازحًا، وهو يحاول إخفاء توتره:

- المرة العجاية لازم هي اللي تحضر لنا اللاهوت.

تحرك (هيثم) بالسيارة وقال في نفاذ صبر:

- المرة العجاية ما ينفعش ننفذ المهمة وإحنا sober.

يعني دون مخدرات. سأله (فكتور) ثانيةً:

- مكان التخلص من الهدف فين؟

قال (هيثم) ساخرًا:

- مصر كلها خرائب.

هنا تكلم (فريد)، فقال ببرود:

- خرائب وعجائب.

ضحك (هيثم)، وقال (فكتور) وهو يمسخ عرق جبهته:

- ربنا يستر.

ابتسم (هيثم)، وهو العليم بأمر الحاده، ثم أزداد سرعة السيارة منطلقًا،
وشاعرًا بالهواء البارد قليلًا يضرب وجهه، فانتعش. ازداد حماسًا للقيادة،
وقال لهما:

- حاسّين بالأدرينا لين؟ اللي ها يقول أنه مكتّتب بعد النهار دا ها
أضربه بالنار.

ثم خفض سرعته، وأطفأ أنواره، وهو يتقدم إلى الشارع الهادئ.
وعند مدخل دار (يمنى) توقّف في هدوء. وأرسل إليها بالشفرة رسالة



تفيد وصولهم وأن الطريق أمان، وعندئذٍ فتحت (يمنى) الباب. دخل ثلاثتهم، ثم انحنى (فريد) على القتل؛ ليتيقن من الوفاة، فقالت (يمنى) في ضيق شبه هيسستيري، وشعرها المضفر يثور، فتبدو حقًا كميدوسا:

- إحنا اتفقنا أنني ها تأكد بنفسي من دا. وأنا قلت لكم أنه خلاص. خلصوني منه دالوقت.

انبعثت في اللحظة نفسها آلام ساقى (فريد) وحوضه، الناجمة عن تكلّساته إياها، وخطر له أن هذه الميدوسا قد حوّلت جزئيًا إلى حجر بشكل ما. نظر إلى (هيشم)، وأوماً إيجابًا، فأشار (هيشم) إلى (فكتور)، وهو يقول:

- معانا يا فحل.

إشارة إلى ضخامة (فكتور). وكانت الخطة ألا تظهر (يمنى) بأي شكل في الصورة، وأن يتجنب زائرها، القتل حاليًا، أن يراه أحد قادمًا؛ خوفًا على سمعتها، وبالتالي خرج فقط الأربعة: (هيشم) و(فريد) و(فكتور) و(الهدف). وبعد أن اطمأن (فريد) أن أحدًا في الشارع لا يرى قاموا بنقله إلى السيارة. لن يستوقفهم أحد غالبًا؛ لأن نفوذ عائلة (هيشم) يصل إلى أعلى المستويات.

وكما تخلصوا من جثة المجدّد على طريق الواحات، تخلصوا من هذه الجثة. صحيح أن بالأمر مخاطرة ولا شك، لكنهم لا يفكرون بهذه المعايير، التي يفكر بها الأحياء. إنهم في الحقيقة بين الحياة والموت. ودون المخاطرة لا معنى لما يقومون به. وبالتأكيد لعبت المصادفات، والانفلات الأمني بعد الثورة، والانفلات الأمني الطبيعي في مصر دون ثورة، دورًا في نجاح هذه العملية، والعمليتين السابقتين.



في النهاية أرسل (هيثم) إلى (يمنى) قائلاً إن المهمة قد تمت على أكمل وجه، فاستشعرت الخلاص. النهايات - كما خطر على بالها - هي الحل الوحيد الممكن لبعض البدايات.



التقى الستة في صباح اليوم التالي. جلسوا في الصالون، الذي تحوّل تدريجياً بشكل ما إلى صالون ثقافي من نوع خاص، للاحتفال مع بعض الويسكي والحشيش. وكان النجاح باهراً، والأداء نظيفاً ودقيقاً. أكّد (فريد) على حسن تصرف (يمنى)، التي حكّت لهم كيف أنها جهزت لنفسها قنينة سم تحسباً لفشل العملية. فاقترح (فريد) أن تزودهم (يمنى) جميعاً بقنينات مماثلة، وقال:

- مع هذه القنينة، التي يجب ألا تفارق أجسامكم لحظة حتى في الفراش، ستشعرون بالأمان في العالم؛ لأن هناك نافذة صغيرة تسمح بالهرب حين تتعقد الأمور. نحن لن نعرف الخوف؛ فنحن لا نخاف الموت، لكننا نخاف الألم. وهذه النافذة ستسمح لنا بالخروج من الوجود بأقل قدر ممكن منه، وبأكبر سرعة متاحة. قلت لكم من قبل إن قوتنا الخارقة الوحيدة هي إرادة العدم، ولا معنى لإرادة العدم دون القدرة عليه في أي وقت، وأي ظرف.



وفي اليوم التالي، وفي تمام التاسعة مساءً أيضاً، تحرك (فكتور). لم يجد حجة مناسبة لاستدراج هدفه إلا ادّعاءه رغبته في تغيير ديانتها، وقد ربط الأمر برغبته في دخول معترك السياسة إلى جانب الإسلاميين، بدلاً من فشل اليساريين، في ظل صعود التيارات الإسلامية بعد الثورة، وهو ما أقنع ضحيته.



توجّه إلى شقة (سيد عبد المنعم)، وهو يعلم أنه يحيا وحيداً، فهو غير متزوّج؛ لأنه ذلك المزيح الغريب من سلفي ومثليّ الجنس، يؤنّبهُ ضميره دومًا بعد كل ممارسة. لكن هذا الرجل قد صار وجهًا إعلاميًا سلفيًا بسرعة الصاروخ بعد الثورة، وراح يتحدث في كل القنوات الفضائية عن أهمية المادة الثانية في الدستور، ونضاله الشخصي للدفاع عن المعتصمين بميدان (التحرير) في اليوم المعروف إعلاميًا بـ(موقعة الجمل)، وبين شباب الثورة بـ(الأربعاء الأسود). وقد كان (فكتور) موجودًا بنفسه في ذلك اليوم، الذي كان أسود فعلاً بكل معاني الكلمة، وهو متأكد أن هذا الرجل قد فر من الميدان حين لاحظ أن كل منافذه تنغلق تباعاً عن طريق العشرات، وربما المئات، من البلطجية.

فكّر (فكتور)، وهو يصعد إلى دار (سيد)، أنه هو نفسه ليس بريئًا تمامًا من الكذب، ككل الناس، لكن الفارق بينهما أن هذا الـ(سيد) مصرّ على إكمال كذبه، في حين فضّل (فكتور) الانتحار على الاستمرار في عالم كاذب. من معه الحق؟ من يملك السلاح يملك الحق. غير أنه عدل عن ذلك، فيما بدا له مبررًا، وفكّر أن الحق معه؛ ليس لأنه الأقوى سلاحًا، أو الأعتى تأمرًا، بل لأنه الأقرب إلى الموت. وتذكّر كلام (فريد) عن إرادة العدم الخارقة. وتذكّر كذلك كلامه عن أهمية قنينة السمّ، التي أعدتها (يمنى)، ووزعتها عليهم اليوم. شعر بأن هذه القنينة هي سلاحه الأمضى في الحقيقة؛ فهي التي ستدراً عنه كل خوف. (الاستياع)، لا القوة المادية، كما يعرف كل مقاتل شوارع، هو الفيصل. هل هذا فعل ثوري؟ لا، لقد اتفقوا ألا شأن للثورة أو السياسة أو الأخلاق بالموضوع، فلماذا يبحث عن مبررات لنفسه واتهامات ضد الآخرين؟

لم يكن (فكتور) صبورًا كـ(يمنى). رحب به (سيد)، ودعاه للدخول،



فجلس أمامه في الصالون، وأرهف السمع والانتباه، فلم يستشعر وجود غيرهما بالمكان. على أي حال هو يخاطر، ومعه سلاح يكفي لقتل عدة أشخاص، ومعه وسيلة اتصال فعّالة بالعدم.

«هاه؟ احكِ لي الموضوع. تشرب حاجة الأول؟».

كذا سأله (سيد) بوجه مستبشر باسم، وخطر له أن تلك هي تحديدًا الابتسامة، التي يتدرّب عليها أمثاله من المنافقين، والتي تظهر قواطعهم البيضاء، ويُعتقد أن لها مفعولًا سحريًا ما. نظر (فكتور) إلى ابتسامته هادئًا، وتأملها لحظة صامتًا، ثم ضغط زناد السلاح الذي كان يوجهه إليه تحت المنضدة.

وبصوت خافت كانت الرصاصة قد أردت هدفه، فسقط أرضًا، لكنه عالجه برصاصة ثانية تحمل رائحة الانتقام والكرهية. لهث لحظة، وساد التوتر، ثم بدأ يهدأ. هناك حرية ما في هذا الفعل. هناك أصلًا فعل. رأى (هيثم) بعد عملية (منصور) أن في القتل حقيقة، أما هو فقد استشعر خلاصًا من نوع غريب من خطيئة غريبة، كأن البراءة المزيفة أشد فتنة من القتل. أخرج هاتفه، وراسل رفاقه، ثم غادر الدار دون أن يترك أثرًا كما علّمه (فريد).



في صباح اليوم التالي اجتمعوا للنقاش والاحتفال كالعادة في صالون (هيثم). كانت السعادة واضحة، واختفت النبرة الاكتئابية الواجمة من أغلبهم. (سلمى) فقط كانت حزينة. سألتها (هيثم) نصف المسطول، وهو يدلّ لها:

- ما لك يا (غتي)؟ (سحلانة) من إيه؟



هزت كتفيها ناظرة إلى الأرض:

- ما فيش.

داعب شعرها، وعاد يقول مقلداً (عبد الحليم):

- «أي دمة حزن لا لا لا..»

كان يحب (عبد الحليم حافظ)، ويعتقد أنه قد تنبأ بوفاته المأساوية في اختياره لكلمات أغانيه. الأمر الذي كان يراه (فريد) دائماً مبالغاً. قالت (سلمى) في إحباط:

- كلكم بتعملوا حاجة مفيدة، إلا أنا.

ناول (فريداً) سيجارة الحشيش، وقال:

- لا إزاي؟ أنتِ بكره عروستا.

وضحك في انتشاء تام، فقال (فكتور)، ووجهه يحترق بسبب ابتلاعه السريع لكأس ويسكي كامل:

- المهم الأداء يا عروسة.

أخرج (فريد) عدة دوائر منتظمة من الدخان، وهو ما كان يجيد صنعه بدقة جراحية، وقال ما لم يفهمه أحد حتى الآن:

- اطمئن. أنا شخصياً واثق من قدرات (سلمى). (سلمى) قادرة على فهم الزمن نفسه.



لا يذكر أحد بالضبط سبب اختيارهم الساعة التاسعة تحديداً لأداء عملياتهم. يزعم (فكتور) أنه هو السبب، حين تحدّث مرة عن



أن رقم تسعة مقدّس بطريقة ما في الموسيقى؛ فما من موسيقار تقريباً أتمّ سيمفونيته التاسعة بعد (بيتهوفن) إلا ومات، كما مات (بيتهوفن) بعد تاسعته، وهو ما يعرف عند مؤرّخي الموسيقى بـ (لعنة السيمفونية التاسعة)^(١). تسعة هو رقم الكمال، ورقم الموت. رقم كل شيء، ورقم اللا شيء.

على كل حال بدأت (سلمى) تحرّكها لتصل إلى منزل (مدحت) (الشرقاوي) في التاسعة مساء اليوم التالي. (مدحت) شاب في الثامنة والعشرين، أعزب، يعيش وحيداً. ليست له مع النساء تجارب حقيقية. لا تربطهما أي علاقة سوى زمالة المقهى، الذي كان يجتمع عليه بعض المثقفين، وقد كان كاتب قصة متواضع الموهبة، ذا مجموعة واحدة منشورة على حسابه الخاص. شارك في الثورة، وكتب مجموعة عنها تنتظر الاكتمال، ويبدو أنها سوف تنتظر إلى الأبد.

فتح الباب فوجدها أمامه في كامل بهائها. كانت قد ارتدت أقصر أثوابها وأفضحها، وصففت شعرها بعناية، ولم تفكر فيما ستفعل. هذه كانت طريقتها في التخطيط المحكم؛ ألا تخطط على الإطلاق، وأن تترك لنفسها زمناً طويلاً جداً. سألتها، وهو يرمقها مندهشاً:

- ممكن أدخل؟

فافسح لها المدخل. دلفت إلى المكان، وراحت تتأملها، ثم قالت:

- حلو الصالون.

كانت قد صعدت سلم الدار حافية، وهو يتساءل عن السبب. السبب

(١) هذا حقيقي أيضاً.



طبعًا هو كي لا تحدث صوتًا على الدرج. أَلقت حذاءها أرضًا، ثم تربعت كالقطة فوق أريكة. سألته ثانيةً:

- أنت لوحدك؟

قال وهو يتخلص من دهشته:

- أيوا.. آ.. تشربي إيه؟

- عندك بيرة؟

- لا للأسف.

- طيب تعال.

فجلس جوارها متطلعًا في تساؤل. نظرت طويلاً في شبه شرود إلى عينيهِ، كأنها تمارس عليه نوعًا من التنويم. ولاحظت ما به من وسامة، فابتسمت. وخطر لها أنه جميل جدًا، جميل ويستحق أن تمنحه أمنية حياته، بشرط أن يمنحها حياته ثمنًا. لا يمكنه أن يحتفظ بكليتهما للأسف.

- هو أنا ممكن أبوسك؟

وهو طلب لم يرفضه أحد فيما نعلم. وأثناء القبلية المحمومة، التي استمتعتُ هي بها على الأخص، كانت تفتح أزرارها، ثم راحت تخلع باقي ثيابها. وبرغم أنها لا تحب ممارسة الجنس على الأريكة، وترى في هذا (عدم استقرار)، لكن الوقت من دم، والحُكَّام - أعضاء النادي - ينتظرون إنجازها في شغف وشك.

كان يبدأ مضاجعتها، وهي تفكر في كلام (فريد) عن قنينة الخلاص،



السم، والتي تضعها في مكان سرّي بجسدها، سوف تتأكد أنه لن يصل إليه على أي حال. إرادة العدم؟ ما معنى هذا الكلام؟ هل يعني الانتحار؟ وهل الانتحار عدم؟ هل الموت عدم؟ عدم ماذا بالضبط؟ لا يهم، المهم أنه كلام تم رصّه بعناية، وأنه يقنع الآخرين، إنه قويّ جدًّا، ليس كـ(هيشم) الحنون كاسح الشخصية، لكنه قوي على طريقته، والغريب أنها برغم مضاجعتها إياه لم تفهمه. كانت إذا أرادت فهم شيء دعتّه إلى الفراش. بالضبط كما يلفّ (هيشم) أي مجهول في سيجارة لكي يفهمه.

ابتسمت إليه في صعوده وهبوطه عليها، لا بد أن يقترب من الذروة، وهي - بخبرة متراكمة - قادرة على تمييز قمة المنحنى. هنا.. وجدت نفسها تنكمش وتتألم، إنه يغتصبها حرفيًّا، ولا يستطيع التراجع حتى لو أراد. في كل مرة ينبعث من خلفية مظلمة مجهولة كيان ما من الأعماق، يتحسس جسدها في شهوة حيوانية، ويحلّ في كل من تضاجعه في هذه اللحظات بالذات. من هذا الشيطان؟ ومن أين أتى بالضبط؟ أمّن عالم قصيّ أم زمنٍ آخر؟

التقطت سكينًا حادة طويلة من حقيبتها جوارها في خِفة، وفي الثانية التالية طعنته في عنقه بيد حاسمة. اتسعت عيناه في دهشة مهولة، أما هي فقد انتزعت السكين، حين وجدته لم يزل يتحرك، ثم حرّكته أفقيًّا على عنقه، لتذبحه تمامًا في قوة لم تتخيلها. همد جسده وجسدها، وهو يقذف دمائه الحارّة، والتي أثارها الجنس، على صدرها العاري. كانت تلهث، لكنها شعرت أنها ترتوي، تروي، فأغمضت عينيها، واستسلمت للنعاس، ونامت.

لا بد أنها غفت لمدة دقائق، كما قدّرت. أزاحته ليهوي أرضًا، ثم نهضت. وأسرعت إلى الحمام لتغتسل. خامرها شعور بالضيق؛ لأنها



ستتخلص من هذه الدماء الثمينة. هذه الدماء لها معنى، وفيها حياة، وأريق في سبيلها هي دون سواها. إنه شهيدها، ولا يستحق أن تضيع دماؤه في المجاري. للأسف لا يوجد حل آخر. بابا (هيثم) أمرها بذلك، وعليها أن تكون فتاة طيبة.

أزالت كل آثار الدماء عن جسدها، ارتدت ثيابها، التي لم تتلوث، وصففت شعرها بعد تجفيفه، ووضعت أحمر الشفاه، وكحل العينين. إنها فوضى حقيقية في الصالون الآن، لكنها ليست مشكلتها. لا بد أن له أمًا أو أختًا سوف تعني بذلك. هي ليست خادمة. ولكن ما هي؟ نظرت إلى صورتها في المرآة، وأشعلت سيجارة (برغم أن فريدًا حذرًا من هذا لسبب جنائي ما لا تذكره)، سحّاقًا (فريد)! راحت تتأمل مشهدها، وهي تطلق الدخان في احتراف سينمائي، وقالت لنفسها إنها لا تعرف ما هي، لو كانت تعرف لما كانت هنا والآن. هذا ينافس أقوال (فريد) الملتفة المنمقة الغامضة ولا شك: نحن نفعل كل هذا لنكتشف أنفسنا من جديد، أو كي نصير شيئًا ما لا نعرفه.

أخذت كل متعلقاتها، وتركت السكين، فقد ظلت ترتدي قفازًا طيلة الوقت، والتقطت حذاءها، لأنها ستنزل دونه كي لا يحدث صوتًا، ثم طالعت وجه (مدحت) المندهش الميت. لا تنسني يا (مدحت) حيث ذهبت. لا تقطع الرسائل والأحلام. تأملته قليلًا، ثم انحنى لترك قبلة رقيقة طويلة على جبهته. وأحسّت بالحزن من أجله، ثم كتبت رسالة إلى رفاقها، تخبرهم بنجاح العملية.

وحين خرجت من الدار، شعرت بحزن أكبر، ومشاعر الفقد، والوداع. وعندما دخلت إلى السيارة، حيث انتظرها (هيثم) و(فريد) و(فكتور)، وحين جلست فعلاً جوار (فكتور)، وبدأت السيارة



تتحرك، انفجرت في البكاء. سألتها (هيثم) عن السبب، وبعد نشيج طويل أجابت:

- مسكين. حسيت إنه غلبان. كان ولد كويس.

فاض بـ(فكتور)، فصاح فيها:

- أنتِ مجنونة؟ حد ينفعل كدا في مهمة زي دي؟ مش أنتِ اللي اخترتيه؟

نظرت إليه في دهشة، وتراجعت خائفة، ثم بكت مرة أخرى بفيها المفتوح، وهي تنظر لـ(هيثم)، الذي قال لـ(فكتور) بصرامة:

- بالراحة يا مان، مش كدا. ما حدش يكلمها كدا.

ثم موجهًا كلامه إليها:

- ما تخافيش. خلاص الموضوع انتهى. والليلة ها أخليكِ تكلمي (إبراهيم) تتفقي على اللاهوت.

استنشقت دموعها، وهي تعتدل في جلستها، وتكف عن البكاء، وتقول موافقة:

- ماشي.



٣- عن مقامات الحشيش الثلاثة

في الليلة نفسها اجتمع الستة في صالون (هيثم). كانت (سلمى) بالفعل هي التي تحدثت مع (إبراهيم) بخصوص اللاهوت، والذي



جاء سريعاً، فبدأ الاحتفال المرتجل. وقد قررت (سلمى) أن ترقص. صعدت فوق منضدة في مركز المكان، حافيةً، وراحت ترقص على لحن إحدى أغاني (عبد الحليم) بشبابها المثيرة. وكان الجميع سعيداً. تضايق (منصور) قليلاً بسبب تحررها، لكنه في عهد التحوّلات، وهي فتاة جميلة، ومن حقها أن تستمتع بجمالها. بالرغم من ذلك تجنّب أن يصفق لها مع الآخرين، وابتعد قليلاً إلى حيث جلس (فريد) على الأرضية مباشرةً معترلاً، ومستكشفاً أبعاداً جديدة للسطل، أو الـ(هاي) كما يقول الغربيون.

جلسا شبه صامتين، والآخران مشغولون برقص (سلمى)، والكؤوس تدور، وتُملأ، وتفرّغ. وبعد هدوء الموسيقى، ونزول (سلمى)، التي صارت متشّية تماماً، سمع (فكتور) (فريداً) يقول لـ(منصور):

- .. أما ما يفعله هؤلاء الجهلاء بالمزاوجة بين الكحول والحشيش فهو أمر صعب التصديق.

قال (فكتور) بحدة إلى حد ما؛ فهو أحد هؤلاء الجهلاء وفقاً لـ(فريد):
- ولماذا يا دكتور كيف؟

التفت إليه، وأجاب بموضوعة:

- لأن هذا كيف وهذا كيف آخر. السُّكر عكس الهاي. السكر يجعلك غير متنبه، ويذهب بعقلك فعلاً، أما الهاي فيجعلك متنبهاً أشدّ من المعتاد. في الواقع تقوم المادة الفعّالة في الحشيش THC بتنشيط مراكز دماغية معينة، تجعلك أكثر تركيزاً، وإن كان هذا يختلط ببعض الأفكار العشوائية.



- قال (هيشم) بصوته الجمهوري:
- طبعًا. أفضل قراراتي اتخذتها وأنا مسطول.
- عاجلته (يمنى) ضاحكة:
- ما عدا الزواج.
- تعرف أن (هيشمًا) قد تزوج وطلق. فرد ضاحكًا:
- فعلاً ما عدا الجواز.
- عادت تقول ضاحكة أكثر:
- وما عدا الجواز الثاني.
- ضرب (هيشم) جبهته بكفّه، وهو يقول:
- فعلاً، صحيح، وما عدا الجواز الثاني.
- فهي تعلم أنه تزوج مرتين وطلق مرتين. ضحك الجميع.
- سأل (منصور):
- وما الذي تشعر به مع الهاي؟
- أجابه (فريد):
- هذا يتوقف على المقام.
- قال (فكتور) وهو يمسك كأسه:
- أول المقامات هو (الاندماج).
- علق (فريد) قائلاً:



- هذا صحيح، ويحدث فيه السطل أفقيًا، بمعنى أنه يجعلك أكثر اندماجًا مع الآخرين المسطولين مثلك، أو كأنَّ أفقًا ما يسبح فوق رءوس الجميع، لكننا عن طريق الحشيش نندمج فيه، نتصل، بحيث نصير كلاً واحداً.

قال (فكتور):

- هذه هي المرحلة التي يحدث فيها الضحك و(الفرفشة).

عاد (فريد) يقول:

- صحيح. أما المرحلة التالية، مع زيادة التعاطي، فهي مقام (العدالة). وتعني أن كل شيء فيها متعادل مع سواه. لا فارق بين مكان وآخر أو زمان وغيره. لا خوف ولا أمل. استغناء كامل، وشعور بأنك فوق العالم فعلاً، أو أسمى، أو (هاي) حرفياً. وهي غاية التحشيش الأساسية. وإذا كانت مرحلة الاندماج أفقية، فإن هذه المرحلة، والتي تليها، رأسية.

مط (هيثم) شفتيه، وقال في أسف:

- طبعا الحشيش المصري لا يصل بنا إلى هذه المرحلة، ويتوقف في الغالب عند (الاندماج)، ولا يتعداه.

قال (فريد):

- الحشيش في أوروبا مختلف. هناك في الغالب لا يصنع من نبات نقي حالياً، بل هجين، يدعى ناتجه النهائي (سكأنك) Skunk بسبب رائحته النفاذة. وهو تهجين لنوعي الحشيش الأساسيين: الساتيفا والإندিকা، حسب تصنيف (لامارك)، وهو ما قد يحوي ستة أضعاف



نسبة المادة الفعالة، التي نجدها في الحشيش في مصر مثلاً في العادة^(١). السكانك نفسه يتفرّع إلى أنواع كثيرة جداً.

صفرت (يمنى) انبهاراً، وقالت:

- واو! يعني سيجارة واحدة تساوي ست سجائر؟

رد (فريد):

- هذا ما يجعل أمستردام جنّة حقيقية لطلاب السعادة. لكن يجب أن تتوقف هذه السعادة عند حد معين، وإلا وصلت إلى المرحلة الثالثة والأخيرة.

تابعه (منصور) في اهتمام، فقال:

- المرحلة الثالثة تحدث حين يسلك الحشيش مسلكاً خطأً في العقل، وذلك مع زيادة التعاطي عن الحد المطلوب للوصول إلى (العدالة). هذه المرحلة الأخيرة هي مقام (الحقيقة)، وفيها تعرف الحقيقة.

سأله (منصور):

- حقيقة ماذا؟

أجاب ببطء، وهو يبدو كمن يتذكّر خبرات سابقة:

- ليست حقيقة شيء ما، بل مجرد فعل المعرفة. فجأة تجد نفسك تعرف، وتعرف أكثر، وتعرف أكثر وأكثر، وفي كل معرفة انسلاخ، وفي كل انسلاخ ألم، وبالتالي فالحقيقة ألم لا متناهٍ.

سأله (يمنى):

(١) هذا كذلك حقيقي.



- ألم جسدي؟

- بل عقلي، أو معرفي بحت. وهي مرحلة بالغة السوء، ويحدث فيها فقدان شبه كامل للذاتية، بحيث لا تعود تحدد ذلك المركز الذي فيه تجتمع الإدراكات في شيء اسمه (أنا) أو (ذات) أو (نفس). هذا المركز يتلاشى، أو يتحرك، فلا يصير مركزاً.

ثم التقط نفساً من سيجارته، واستأنف:

- شجرة المعرفة ليست فقط محرمة، بل هي مغرية إلى حد العذاب الحقيقي. أو هي محرمة لأنها الجحيم نفسها.

ثم مط شفتيه، وأردف:

- مع ذلك فقد جعلني المرور لعدة مرات بهذه المرحلة، على شناعتها، أدرك شيئاً من الحقيقة، أو عنها.

سأله (منصور):

- وماذا أدركت؟

تفكر لحظة، ثم مط شفتيه قائلاً:

- ذات مرة من مراحل (الحقيقة) تبين لي أن الله حقيقة؛ لأنه يمكن لنا من حيث المبدأ معرفته، لكن الحق أمر مختلف، إنه شيء نكسبه أو نخسره. ثم تبين لي أن هناك علاقة بين الحقيقة والحق؛ فالإنسان يضحّي بالحق في سبيل الحقيقة على الدوام. إنه يفترض أن في نقائصه وآلامه في الدنيا حكمة ما يجهلها، ولكنه يعتقد في وجود هذه الحكمة في سبيل الحقيقة، وفي سبيله إلى ذلك ينسى، أو يتناسى بحماقة، أن له حقاً،



وأبسط حق ألا يتألم. وبالتالي فإن الفكرة الأساسية من هذا النادي هي استعادة هذا الحق، بدلاً من السعي غير مضمون النتائج إلى الحقيقة.

لمعت عينا (يمنى) في ذكاء، وهي تقول في سرعة:

- الحقيقة غير مضمونة، قد لا نعلمها بعد كل كفاحنا في الحياة، أما الحق فيمكن لنا انتزاعه بالقوة هنا والآن.

ثم تراجعت مفكرة لحظات، وتساءلت عن الغايات البعيدة التي يرمي إليها (فريد) من هذا النادي، والتي - فيما يبدو - هي أبعد مما ظنت، ومما يظن الجميع. على أي حال قطع (فكتور) الصمت، وأخرج دفترًا صغيرًا من جيب بذلته، وقال:

- سأقرأ عليكم قصيدة.

جلس (هيثم) على مسند مقعد، وقال:

- اسمعوا (فكتور) يا جماعة. أولى قصائده في عهده الجديد.

تنحنح (فكتور)، وأخذ يقرأ:

- «أنا السبب الباطل لموتي ما دمتُ حيًّا. أنا الموت الذي لم يأت في كل محاولاتي الفاشلة للفناء. دخينتي هي (خط الفناء الساخن) بيني وبين السماء. تقول التعليمات الرسولية: حين تفكر في الفناء اتصل فورًا على هذا الخط. وحين اتصلتُ بكل الآلهة عبر دخان الحشائش وسُموم فطر الغراب، كانت كل الخطوط مشغولة بالذين يفكرون في الفناء. لستُ الوحيد الذي فكر فيه، لكنني الوحيد الذي لم تردّ عليه قَطُ الخطوط المحترقة.

كان العدم قدرتي الخارقة الوحيدة، التي اكتسبْتُها حين فَقَدْتُ كُلَّ



شيء. لا أستطيع أن أرى عبر الجدران، أو أن أخاطب الموتى، لكنني أتحوّل إلى لا شيء حين أريد. فقط عليّ أن أقرر الفناء، ليكون الموتُ معجزتي الوحيدة الممكنة.

كانت الشمس تفتّحُ العيونَ والمَشاهدَ بِشَفَرَاتِ الأَشْعَةِ، حين تجمعتُ في رأسي غيمة رعدية. كنتُ أتحوّل إلى لا شيء يقف على كتف حبيبي الصاحبة، لا شيء يسهر الظلامَ معها، لا شيء يمنحها الخلودَ في قَصيدٍ، لا شيء يزرع في لحمها جنيناً مزيجاً من البشر والعدم.

حين تفقدن كلّ ما معكِ يا حبيبي، كلّ شيء، سيكون هذا أنا، هذا هو كل شيء.

هزّ (فريد) رأسه في بطن مردداً مُتأَمِّلاً: «أنا السبب الباطل لموتي ما دمتُ حيّاً».

وقال (هيثم) في حَسَم:

- شاعر.

قالت (يمنى) مفكرة:

- لم أفهم جيداً علاقة الحبيبة بالموضوع، وشعرت أنها مقحمة.

رد (فكتور)، وهو يهز كتفيه:

- هذه قصيدة. ليست مقالاً لنشرط فيه الاتساق. وعلى كل حال يمكن أن تكون خطاباً موجهاً إلى الحبيبة من البداية ضمناً.

حرّكَ (فريد) سيجارته ليصنع سطوراً تتلاشى من الدخان، وهو يتأملها قائلاً:



- «كان العدم قدرتي الخارقة الوحيدة، التي اكتسبْتُها حين فَقَدْتُ كُلَّ شيءٍ». هذا هو ما يلخّص الموقف. لكن ما يكمله هو أننا سنستعيد كل شيء حين نريد العدم.

نظروا إليه، وأكثرهم لم يفهم مراده بالكامل. فصعد إلى المقعد جالسًا، وقال بلهجة مختلفة كأنها رؤيا:

- الحقيقة هي تمام الوجود: الله، لكن الحق هو ما نناله بتمام العدم: الانتحار والقتل. هكذا نحن رُؤاد حقيقيون للعدم. وسوف يأتي بعدنا مَنْ يدعون العدمية فرارًا أو يأسًا، لكننا سنبقى أبناء العدم الشرعيين. نحن مُبشِّرون بعصر القتل بعد الربيع العربي. العرب كانوا وثنيين، ثم مسلمين، ثم صاروا الآن أنبياء الموت، الذين يستعجلون بأيديهم آخِرَ الحضارة، ونهاية التاريخ.

أنا أرى في أحلامي المستقبل: سوف ينتشر القتل، وستسيل الدماء باسم الدين تارة، وباسم الوطن تارة، وستحترق المُدُن، وستُهْدَم الآثار، وستسير النساء سبايا في سلسلة مجدولة بالحديد والنار على لهيب الصحراء. سنصير شتاتًا كاليهود، وسيجفّ النيل، وستنقطع السماء. سيتآكل العالم كما يذوب في الحمض. ولن تبقى سوى صبغة الدماء أثرًا وحيدًا على حضارة كانت في هذا المكان، ثم سيتلاشى المكان وينتهي الزمان. سيذكرنا الناس لأننا كنا أوّل مَنْ آمَنَ بالنهاية. ونحن حملة آخِر وحي. ونحن كتّبة العهد الأخير.





الفصل السادس المكتب

١ - صفحة الوفيات

توجّه (فريد) في أحد الأيام التالية إلى أحد المراكز الحقوقية، التي يتعاون معها بشأن ضحايا العنف والتعذيب؛ حيث كان لديه موعد مع (محمد عبد اللطيف) في تمام التاسعة صباحًا. هذا الأخير شاب في أواخر العشرينات، تعرض لتعذيب شديد، ويعاني عمومًا الفاقة وسوء معاملة أسرته؛ نظرًا لكونه ملحدًا. هكذا تصنّفه أسرته على أي حال، أما هو فكان يعرف نفسه باعتباره لا - أدريًا، لكن الناس، كما هو معلوم، وبسبب انخفاض عام في مستوى الثقيف الفلسفي، لا تفرق غالبًا بين الموقفين.

لم تكن تلك هي الجلسة الأولى معه، فقد اجتمعا عدة مرات، وتناقشا في الحالة في سياق إعادة التأهيل. وفي أحد المكاتب في ذلك المركز كان (محمد) يقول:

- هكذا ترى يا دكتور: تحولت حياتي إلى مشكلات تتولد عنها مشكلات، وكلها بلا حل؛ فلا حقي أناله، ولا راحة لي حتى بتنازلي عن حقي.

قال (فريد)، وهو معتكر المزاج؛ لأن المركز يمنع التدخين داخله:



- لا بد أن تتمسك بحقك في كل الأحوال.

- وما الفائدة؟ هل تمسّكي بالحق يمنحني القوة لاستعادته؟ أنا فكّرت طويلاً في الانتحار، وحتى هذا لم أفدر عليه.

أمسك (فريد) قلمه بين أصبعيه على سبيل التدخين البارد، وقال:

- الإنسان القوي لا يمكن أن يُدَلَّ من أجل الحياة. لا يمكن أن يقبل الخضوع إلى الناس والمكان والزمان. والانتحار من حقوقك الأساسية. إن أردت فغادر الحياة، هذا إذا ابتغيت القوة الحقيقية. فليكن الموت هو الشيء الوحيد الذي تحققه بإرادتك.

اندھش (محمد) لسماع هذا الكلام، الذي لم يتصور أن يتلقاه من طبيب، وحيث كل الأطباء، وغير الأطباء، ممن قصّ عليهم أمر محاولاته للانتحار، قد حاولوا بشكل أو بآخر إثناءه عنه. لكنه شعر براحة لأول مرة بلا شك؛ لأن واحداً على الأقل يشاركه مضمون أفكاره، بل ويعبر عنها بالصيغة المثلى من وجهة نظره. سأله:

- ومن وجهة نظر الأخلاق.. هل أعتبر أناً إذا فعلتُ؟

- لا، على الإطلاق. إذا اتفقت معي أن الانتحار حق من حقوق الفرد فلا معنى هنا أن تتهم نفسك أو يتهمك أحد بشيء لمجرد أنك مارست حقك.

- يعني أنا أحياناً أفكر في أمي وأبي. لقد أساءا معاملتي لكنهما لا يستحقان أن أدمر حياتيهما بانتحاري.

قال (فريد) بلهجة محايدة:

- هذا كذلك نقاش زائد عن المسألة. وعليك أن تفكر بشكل مختلف



بصدد أحبائك: فهم صنف من اثنين؛ إما أنهم لم يريدوا تقديم مساعدة تنجيك من التفكير في الانتحار، أو لم يستطيعوا تقديمها وإن أرادوا. وفي الحالتين أنتَ غير ملزم بشيء تجاههم على الإطلاق. من لم يرد مساعدتك، فلا تقدم له المساعدة، ومن لم يستطع، فأنتَ أيضًا لا تستطيع. نحن لا نتكلم هنا عن مساعدة وحسب، نحن نتكلم عن قرار وجودي، وحق من حقوقك كما قلنا، فلا تتنازل عن اختيارك الوجودي وحقك في سبيل من لم يُرد حتى مساعدتك، أو لمجرد أنه عاجز عن ذلك.

ثم نظر إليه في إمعان، واستأنف:

- الانتحار قرار خطير. وما يوصلك إليه هو - بالتبعية - خطير. وحين تصل إلى هذه النقطة تكون لديك كل الصلاحيات، وتصير فوق المحاسبة.

ازدادت نظرة (محمد) حيرة، وقال كأنما يحدث نفسه:

- احترت كذلك في اختيار الوسيلة. الموت مخيف، ولحظة الموت مؤلمة...

قاطعه (فريد) في هدوء:

- ما أدراك أن الموت مخيف؟ لم يعد أحد ليحكي. وإذا فرضنا وجود إله عادل وعليم تلتقيه بعد الموت، فهو أعلم بظروفك، وأقدر على تقدير موقفك. وبالنسبة لألم الوفاة فهناك طرق أقل ألمًا مما سواها. قطع شرايين الرسغ مثلاً طريقة سهلة، وبها ألم قليل؛ مجرد لحظات من التوتر، وربما أعراض صدمة وعرق بارد، ثم غيبوبة، ينتهي بعدها كل شيء في سلام.



السلام! فكّر (محمد) أن كم هي عزيزة هذه الكلمة! إنه لا يريد فعلاً سوى السلام. ماذا لو كان السلام هو مصير الموتى؟ منطق الدكتور مستقيم، من حيث الغاية، ومن حيث الوسيلة. والأهم أنه يفهم فعلاً - كما يبدو - عقلية المنتحر.

كانت هذه آخر محادثتهما. في الواقع كان هذا آخر يوم في حياة (محمد عبد اللطيف)؛ فقد عُثر عليه فعلاً في اليوم نفسه جثة هامدة، مقطوعة الشرايين، في حمّام داره. الجدير بالذكر أن أمه نفسها انتحرت بسبب ما رأت. لكنها قد اختارت القفز من الدور السادس. وهي طريقة غير موصى بها؛ لما يتخلف عنها.

وتساءل (فريد) حين عرف القصة:

- إذا قررت أن تنتحر، فلماذا تحمّل الآخرين مسؤولية تنظيف المكان، وتعرض عليهم مشهد رعب، لم يطلب مشاهدته أحد؟



وكان (هيثم) في مساء اليوم ذاته قد نجح في إصابة ثلاثة من (الأهداف) في ليلة واحدة، بـ(الجبروت الذي هو من دون صوت) على حد تعبيره. وتم نقل الجثث والتخلص منها كما في المرات السابقة. كان منهم اثنان من الإسلاميين، وواحد من الليبراليين. هذا الأخير وجه تافه آخر اشتهر بعد الثورة، وعضو مؤسس في أحد تلك الأحزاب الثورية الجديدة. لقد كان (هيثم) يفضل العمل بالجملة. وكان تفسيره أنه يفكر بعقلية المدمن. إنه يدمن أي شيء، من الشاي والقهوة، مروراً بالهيروين والكوكايين والفودو، حتى القتل. وفي كل مرة يحتاج الأمر إلى جرعة



أكبر. لكنه كان ذكيًا، أو هكذا ظن في نفسه، ويعرف كيف يتوقف قبل
الجرعة الزائدة. مزيد من القتل = مزيدًا من الأدرينالين.



الاسم: سيد عبيد

السن: ٢٦ سنة

المهنة: صحافي

التوجه السياسي: يساري

سبب الوفاة: تسمم



الاسم: محمود محفوظ

السن: ٣٥ سنة

المهنة: مخرج مسرحي

التوجه السياسي: غير محدد

سبب الوفاة: طعنة نافذة



الاسم: ممدوح عبد الجواد

السن: ٤٠ سنة

المهنة: طبيب بشري



التوجه السياسي: إسلامي - إخواني

سبب الوفاة: طلق ناري



الاسم: حمزة أبو الفتوح

السن: ٢٩

المهنة: مهندس اتصالات

التوجه السياسي: إسلامي - سلفي

سبب الوفاة: طلق ناري



الاسم: نيفين أرمانوس

السن: ٢٥

المهنة: طالبة

التوجه السياسي: ليبرالية - ناشطة في مجال حقوق الأقباط

سبب الوفاة: انتحار - قطع شرايين الرسغ



الاسم: حسين عوض

السن: ٥٤

المهنة: أعمال حرة



التوجه السياسي: غير محدد

سبب الوفاة: ضربة على الرأس أفضت إلى الوفاة

.. إلخ.



هكذا توالى الوفيات، مع القدرة على استبيان ملامح عامة متصلة فيما بينها؛ فوسائل الاغتيال لم تتغير تقريباً بالنسبة لكل عضو من أعضاء النادي، وكذلك وسائل التخلص من الجثث. تحوّل طابق (منصور)، الذي سيظل تحت الإنشاء دائماً فيما يظهر، إلى مقبرة جماعية، مسكونة ببعض الجثث الدفينة في الجدران، وفي الأرضيات المُعاد صبها. طوابق البنايات تُبنى لكي يسكنها أحدٌ ما على كل حال. أما طريق الواحات، والعديد من الخرائب على ضفاف الطرق الصحراوية، فقد صارت المقرّ النهائي لأجساد أصحابها. بعض هذه الحالات وصل إلى الشرطة فعلاً، وأحياناً إلى الإعلام، وخاصةً الأسماء الشهيرة للنشطاء السياسيين، ولكن قُيد الحادث ضد مجهول أو انتحاراً دائماً.

ومع الوقت ازداد أعضاء النادي الستة احترافاً وجرأة في التنفيذ، وقوي بينهم روح الفريق، وقضوا أوقاتاً مليئة بالإثارة. وتوطدت علاقة (سلمى) و(منصور)، رغم أنها لم تأخذ قط أبعاداً جنسية؛ نظراً لرفض (منصور)، ويبدو أن هذا وحده ما جعل (سلمى) تستمر في تعلقها به. أما على جانب (سلمى) فقد تعددت علاقاتها، وانتهت أغلبها إما بقتل الهدف، أو بفرارها من العلاقة كما فعلت مع (فريد). دخل (فريد) في علاقة مع امرأة لمدة شهرين، ثم انفصلا. وصار (هيثم) يستعيد بعض ما خسر من أعماله، بعد أن أمّن الجبهة الداخلية النفسية من الاكتئاب.



(يمنى) تخلصت إلى حد بعيد من كراهيتها للرجال، والتي نتجت عن طلاقها، وصارت لها ضحية أو اثنتان من النساء. أما (فكتور) فقد لازمته طيلة الوقت تقريباً تلك الازدواجية بين اعتقاده الباطني في الفعل الثوري لعملياته، وبين إنكاره من حيث المبدأ لهذا الاعتقاد. وهكذا مضت الشهور، حتى أكتوبر ٢٠١١، والحياة واعدة بالمفاجآت، والشخصيات تكتسب صقلاً وصلابة، والأذهان تزداد حدة، والحياة السرية لهم كافية لتبرير الساعات والأيام.

كان هذا قبل أن يزورهم الرائد (أدهم درويش).



٢ - الظهور الأول للدرويش

في تلك الليلة كان على الرفاق التخلص من إحدى جثث عمليات (يمنى). تولّى (هيثم) و(فريد) و(منصور) التخلص من الجثة، ثم توجهوا إلى بيت الأول كالعادة للاحتفال، بينما صحب (فكتور) كلاً من (يمنى) و(سلمى) ليلحقوا بهم بسيارته. دخل الجميع إلى الدار ضاحكين، وتسبقهم رائحة الحشيش، حيث صار (هيثم) يفضل التحشيش عادة في السيارة قبل نقل الجثة وبعده. أضاء (هيثم) أنوار الصالون، ثم اتجه إلى غرفة المكتب ليخفي فيها مسدّسه، الذي صار يحمله دائماً من باب الاحتياط، إن لم يكن من منطلق الاستعمال.

وحين أضاء مصباح الغرفة لم يصدق للوهلة الأولى عينيه.

كان يجلس إلى المكتب رجل في الثلاثينات من العمر، في مثل سنّ أغلبهم، يرتدي الحلة الكاملة، رمادية اللون، أسود الشعر، خفيفه، هادئ



تمامًا إلى حد البرود، يدخن سيجارة، وصل خيط دخانها إلى السقف. الجدير كذلك بالذكر أن معه هو الآخر (جبروت بدون صوت)، وأنه يصوبه إليه.

التقت العيون، وكان (هيثم) يقول لرفاقه شيئًا ما بصوت مرتفع قبل أن يضيء الغرفة، لكنه بتر عبارته، وتوجهت يده لا شعوريًا إلى مسدسه، ثم عدل عن ذلك. وساد صمت. الرفاق في الخارج يستمعون إليه وهو يتكلم، ثم وهو يصمت، ثم بدأ أحدهم بالكلام فرد عليه آخر. هكذا بدا له الموقف كه مهمة خلفية لجمهور يطالع - في شيء من عدم الاكتراث - هذا المشهد الجدير بالسينما.

قال الرجل في ثبات:

- هات سلاحك، وتعال، وقول لهم يعملوا كذا.

أزاح له (هيثم) سلاحه في ببطء حذر، ثم وجه خطابه إلى من بالخارج، وقد ارتجف صوته قليلًا:

- تعالوا يا جماعة، بهدوء. واللي معاه سلاح...

ولم يعرف ماذا يقول بالضبط، فأكمل له الرجل:

- .. يسلمه بعد ما يدخل.

استأنف (هيثم) بصوت مرتفع:

- .. يسلمه بعد ما يدخل.

وأد الرجل سيجارته في مطفأة بلورية، حين أقبل الجميع، فأشار إليهم بطرف مسدسه للدخول. ولم يكن مع أحدهم سلاح سوى (فكتور)،



الذي أزاح مسدسه إلى الرجل بدوره. فوضع الرجل ساقاً فوق ساق مسترخياً أكثر في جلسته، وتأملهم لحظة دون انفعال، ثم توقفت عيناه على (فريد). قدّر (فريد) للوهلة الأولى السبب بأنه هو الوحيد الذي لم يبدُ عليه انفعال، تماماً كهذا الزائر غير المتوقع. لكننا سنعرف بعد قليل السبب الحقيقي.

أشار لهم بالجلوس:

- ممكن تستريحوا.

جلسوا عدا (هيثم) و(فريد)، فحرّك مسدسه قائلاً:

- لكن أي حركة غير متوقعة من أي حد أنا معايا تصرّيح بالقتل الفوري.

كان (فريد) أول من تكلم، فقال في تساؤل حقيقي:

- مش ممكن يبقى معانا سلاح ثاني؟

أوماً الرجل نفيًا، وقال في رتابة:

- لأ. المؤكد عندنا أن ما فيش غير قطعتين سلاح.

حاول (هيثم) التغلب على توتره، وهو يقول:

- ممكن نعرف أنت مين؟

أوماً إيجابًا، وقال:

- بالتأكيد. التعارف جزء أساسي من لقائنا الليلة. وبما أنني عارفكم جميعًا، فما فيش غير أنني أعرفكم بنفسي.

ورسم ابتسامة باردة قائلاً:



- أنا الرائد (أدهم درويش) من إحدى الجهات الأمنية المعروفة. وحاليًا تم نقلي بعد الثورة إلى قطاع مختلف، لكن لسا بقوم بعملنا المعتاد إلى حد ما.

ثم جالت عيناه في الأرضية، ثم فيهم، وهو يأخذ نفسًا عميقًا، ليقول:
- الحقيقة أنا وعدد محدود جدًا من زميلي على علم بنشاطكم: قتل عشوائى، بدون روابط تقريبًا، مع تشابه في طرق القتل أحيانًا، وطرق إخفاء الجثث والأدلة، ومع بعض التركيز على كوادر سياسية، أغلبها من نشطاء ما بعد الثورة، وفيما زاد على ٢٠ قتيل في خلال كام شهر.

امتقع وجه (يمنى)، أما (سلمى) فقد ظهر الخوف عليها جليًا، لكنه لم يتجاوز مظهر الخوف الطفولي من العقاب. فاق (فكتور) (هيثمًا) في توتره، بينما تجمّد (منصور) تمامًا، واتسعت عيناه. راقب الرائد كل هذا، ثم قال:

- والحقيقة إحنا لم نكتشف كل ده بسبب سذاجتكم، زي ما ممكن يخطر لكم. الحقيقة هي أن عملياتكم تمت فعلاً من جهة بشكل محكم، ومن جهة أخرى في ظل مناخ أمانى سائب. والنتيجة أنكم أحسنتم استغلال الظرف. لكن حاجة واحدة بس كشفتكم، هي أولى عملياتكم، معجند الجيش.

أشاح (هيثم) بوجهه أرضًا في مزيج من الأسف والغضب، والرجل يتابع:

- معجند واحد في الجيش مش مجرد رقم زي ما أكيد فكرتم. الموضوع حاز الاهتمام، وتدخلنا بسرعة لمعرفة الجناة.



ثم ابتسم وهو يهز كتفيه في بساطة قائلاً:

- وإحنا عارفين أن دا كان قتل خطأ.

ثم تلاشت ابتسامته، وهو ينظر إليهم ملياً، قائلاً في بطة:

- القتل الوحيد الخطأ في كل اللي قمتم به.

وتراجع في مقعده مستأنفاً في ملل:

- ولكن دا كان طرف الخيط، اللي قادننا لكشف كل اللي قمتم به.

هنا استعداد (هيشم) رباطة جأشه، وقال:

- إحنا ما نعرفش أي حاجة عن اللي حضرتك بتقوله. حضرتك معاك

إذن النيابة؟ حضرتك تعرف أنا مين، وابن مين؟

أوما الرائد إيجاباً، وقال:

- أيوا. عارف أنت مين، ووالدك مين، وأخوك مين.

ثم رفع كفه المفتوحة الخاوية أمامهم، وقال:

- وأنا مش معايا إذن من النيابة. ودا مش ممكن على أي حال، وها

تعرفوا حالاً ليه. إنما ومن البداية، وعلشان ما يحصلش سوء تفاهم.. أنا

هنا مش علشان أقبض عليكم. أنا هنا علشان نتكلم بس.

نظروا بعضهم إلى بعض في تساؤل، ما عدا (سلمي)، التي زفرت

في ارتياح، وارتخى جسمها على المقعد. لكنهم أعادوا النظر إلى الرائد

في دهشة، وهو يخفض سلاحه، ويضعه بهدوء وحرص على سطح

المكتب، ويقول:

- وكعلامة على حسن النية، دا سلاحني أنا كمان.



واستقر السلاح في موضعه. نظر (فريد) مضيقاً عينيه إلى (هيشم) دون أن يلتفت إليه، وكأنه يفكر معه في شكّ وحيرة، لكن الرائد عاجله قائلاً:
- وما فيش حد في الجهاز كله يعرف إني هنا دالوقت، أو إني جاي لكم. بل إن ما فيش حد أصلاً في أي جهاز في مصر يعرف حاجة حالياً عن نشاطكم السري.

ثم قال كأنه يتذكّر في اصطناع:

- زمايلي اللي كانوا متابعين العملية دي معايا.. حالياً.. إمام (ثم مطّ شفّتيه لحظة).. مش موجودين.

ثم بادلهم جميعاً النظر في صراحة متابعاً:

- وما فيش أي إذن من النيابة، لأن ما فيش أصلاً قرار بالتحقيق حالياً، ولا فيه أي أمر بالقبض عليكم بالتالي.
وبابتسامة عريضة صفراء:

- أنا هنا علشان أتكلّم بس زي ما قلت. مجرد حوار وديّ.

ثم شبك يديه أمام جذعه، وهو يتحرّك قليلاً بالمقعد الدوّار، ويقول:

- أنا في الواقع ليا صفة أخرى غير الصفة اللي قدمت لكم بها نفسي.
أنا - بالإضافة لعملّي المعلن دا - لي عمل ثاني مع جهاز آخر مرعب، ما لوش علاقة بأي جهاز أمني في مصر، ولا هو أصلاً في مصر، معروف باسم الـ«فافاك». طبعاً أغلبكم ما يعرفش يعني إيه. لكن أنا عارف أن فيه واحد هنا على الأقل أكيد يعرف اللي باتكلّم عنه.

والتفت إلى (فريد) تحديداً، وهو يقول:



- صح يا دكتور؟

فخفض (فريد) رأسه في صمت، أما (يمنى) فتساءلت:

- «فافاك»؟

جاء صوت (فكتور) من جوارها دون أن ينظر إليها، وقد تضاعف توتره:

- يعني المخابرات الإيرانية.. مخابرات الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

التفت (هيثم) إلى (فريد)، ثم إلى الرائد، وسأل في حدة:

- وإيه علاقة (فريد) بالفافاك؟

نظر إليه (فريد)، ثم إلى الرائد، صامتاً، وبدأ أنه يترك الإجابة للرائد، الذي قال:

- (فريد) نفسه مالوش أي علاقة بالفافاك، لكن له علاقة بإيران، ويبدو أنه ما اتكلمش معاكم في الموضوع دا قبل كدا.

مط (فريد) شفتيه، وهز كتفيه، قائلاً:

- أمني إيرانية. وهي معلومة غير مهمة على أي حال.

عاجله الرجل:

- لكنها مهمة بالنسبة لنا.

فعاجله (فريد) قائلاً للجميع بموضوعة:

- كلمة «إيران» معناها «أرض الآريين».



نظر الرائد إلى الجميع مفسراً:

- إيران دولة عنصرية في الواقع. دي حقيقة مهمة في التعامل مع الحكومة الإيرانية بأجهزتها المختلفة، وفي التعامل مع الإيرانيين عموماً. ونظرًا لأنك ربع إيراني، وبتعرف الفارسي، فهما قرروا التعاون معاك.

وعاود الابتسام قائلاً:

- دا طبعًا إلى جانب إن ما فيش واحد من ضحاياك أنت بالذات اتقتل. كلهم ماتوا منتحرين. وحسب معلوماتنا عملوا بالضبط زي ما أنت وجّهتهم. ودي كذلك معلومة مهمة جدًا بالنسبة لنا.

ثم تنحّج، كناية عن خطورة ما سيقول، وصمت لحظة مستجمعًا أفكاره، ثم قال بلهجة أكثر عمقًا:

- الرسائل الخاصة بنشاطكم، اللي بتبادلوها على المحمول بشفرة ما، وصلنا أغلبها، بعد ما عرفنا نفك الشفرة، وكانت هي أهم مفتاح قادنا لأغلب عملياتكم.

خفض (فريد) رأسه مرة أخرى في ضيق، بينما نظرت إليه (يمنى) في اتهام صامت غاضب، لكن الرائد سارع بقوله، وهو يضغط على مقاطعه:

- لكن المثير، والمهم في الأمر، واللي كان العامل الحاسم في نقل ملفاتكم إلى الفافاك، هو أن الشفرة دي ما يصممهاش غير خبير تشفير.

ثم هزّ رأسه دلالة على الحيرة متأملًا (فريدًا)، وهو يكرر:

- خبير تشفير حقيقي.



فابتسمت (يمنى) رغباً عنها، وهي تنظر إلى (فريد) في دهشة، فتابع
الرائد:

- بدون مبالغة؛ الشفرة دي حققت حلم كثير من خبراء التشفير: شفرة
بتتغير مع كل كلمة، مع الاحتفاظ بنمط عام، استغرقنا وقت طويل فعلاً
في فهم طبيعته. دي الجينات الآرية لما تشتغل. ورأيي أنك لو كنت
اخترت مجال الرياضيات، أو العمل في المخابرات، كان ها يكون لك
شأن خطير.

هز (فريد) رأسه متفهِّماً، لكنه ترك لـ(هيشم) زمام القيادة كعادته، فقال
الأخير فعلاً:

- أنا مش فاهم إيه المطلوب مننا، ومش فاهم إيه اللي يرغمنا على
التعاون معاكم.

قال (فكتور) مندفعاً في عصبية:

- إحنا حياتنا نفسها مش مهمة. كل واحد مننا كان على وشك الانتحار
فعلاً من شهور.

هز الرجل رأسه موافقاً، وقال:

- آها، دا صحيح، نادي الاكتئاب، اللي تحول إلى نادي الانتحار، ثم
إلى نادي الاغتيال. والخبراء النفسيين عندنا بيؤكدوا أن عندكم بلا شك
وسيلة انتحار خفية في حال تأزُّم الظروف.

تبادلوا النظرات ثانيةً في صمت، والرجل يستأنف:

- ولهذا السبب ما فيش أي إرغام لأي حد منكم. لكن في نفس الوقت
إحنا حريصين على موافقتكم جميعاً؛ لأنكم بتشكّلوا فريق متكامل. غير



كِدَا أَنْتُمْ مَعَانَا هَا تَقُومُوا بِنَفْسِ اللَّيْلِ أَنْتُمْ بِتَقُومُوا بِهِ فَعَلًا، وَلَكِنْ مَعَ تَغْطِيَةِ
مَخَابِرَاتِيَةِ عَلَى أَعْلَى مُسْتَوًى، وَبِتَدْرِيبِ خَاصٍّ، وَمُقَابِلِ مَادِي هَا يَسْمَحُ
لَكُمْ بِالتَّفَرُّغِ التَّامِّ لِعَمَلِيَّاتِكُمْ. التَّغْطِيَةُ وَالتَّدْرِيبُ دَوَّلٌ مُهِمِّينَ رَغْمَ أَنْ
عَمَلِيَّاتِكُمْ وَصَلَتْ لِدَرَجَةِ عَالِيَةٍ مِنَ الْإِحْتِرَافِ. مَعَانَا بَرَضُهُ هَا تَمَارَسُوا
نَشَاطَ الْقَتْلِ بِسَبَبٍ، وَمِنْ غَيْرِ سَبَبٍ، زِي مَا أَنْتُمْ عَاوِزِينَ. دَا يَسْعَدُنَا
بِالْمُنَاسَبَةِ؛ لِأَنَّهُ تَدْرِيبٌ مُتَوَاصِلٌ لِلْعَمَلِ. لَكِنْ فِيهِ شَخْصِيَّاتٌ بَعَيْنَهَا
مُحْتَاجِينَكُمْ تَعْطُوهَا وَقَتَكُمْ، وَشَخْصِيَّاتٌ تَانِيَةِ نَتْمَنَى تَصَرَّفُوا نَظَرَ عَنْهَا.

بَعْدَ لِحْظَةٍ صَمَتٍ وَتَفْكِيرٍ سَأَلَهُ (هَيْشَمُ):

- مُمْكِنُ تَفْهَمْنَا أَبْعَادَ الْمَوْضُوعِ أَكْثَرَ؟



٣ - مَحَاوِرَاتُ تَخَابُرِيَّةٍ

قَالَ الرَّائِدُ (أَدْهَمُ):

- مَعْلُومَاتُنَا وَتَوَقُّعَاتُنَا، مَشْ بَسْ فِي إِيرَانَ، لَا كِمَانِ فِي مِصْرَ، بِتَفِيدِ
إِنْ الْإِخْوَانُ الْمُسْلِمِينَ هَا يَفُوزُوا بِانْتِخَابَاتِ الرِّئَاسَةِ الْجَايَةِ، وَهَا يَشْكُلُوا
أَوَّلَ حُكُومَةِ إِسْلَامِيَّةٍ فِي تَارِيخِ مِصْرِ الْحَدِيثِ. مَشْ كِدَا وَبَسْ، دَا كِمَانِ
فِيهِ اِحْتِمَالٌ كَبِيرٌ وَخَطِيرٌ أَنَّهُمْ يَخْتَرِقُوا أَجْهَزَةَ الدَّوْلَةِ لِأَعْلَى مُسْتَوِيَاتِهَا.
الْكَلَامُ دَا مَعَ تَوَقُّعَاتٍ مُوَازِيَةٍ بِظُهُورِ قُوَّةٍ سَنِيَّةٍ مُدْعُومَةٍ سَرًّا مِنَ السَّعُودِيَّةِ
وَالْإِمَارَاتِ وَأَمْرِيكَ قَادِرَةٌ عَلَى تَشْكِيلِ دَوْلَةٍ فِي الْعِرَاقِ وَسُورِيَا. يَعْنِي
هَيْتَمُ حَصَارِ إِيرَانَ إِقْلِيمِيًّا مِنْ خِلَالِ ٣ مَحَاوِرِ سَنِيَّةٍ أُسَاسِيَّةٍ: هِيَ السَّعُودِيَّةُ
وَحَلْفَاؤُهَا، وَالدَّوْلَةُ السَّنِيَّةُ فِي مِصْرَ، وَالدَّوْلَةُ السَّنِيَّةُ الْمَتَوَقَّعَةُ فِي الْعِرَاقِ
وَالشَّامِ. دَا طَبْعًا زَائِدُ الْحَصَارِ الدَّوْلِيِّ.



قال (هيثم) مستنكرًا:

- الإخوان؟ الإخوان ها يكسبوا الرئاسة ويشكلوا حكومة؟

أوماً الرائد يقينًا، وهو يقول:

- بالضبط. دا مش مجرد تفكير سائل. دا توقع مبني على معلومات مؤكدة.

ثم اختلفت لهجته، واكتسبت المزيد من الصرامة والجدية، قائلاً:

- والفاك بيشغل على عدة محاور للسيطرة على الوضع في مصر بعد الثورة لمنع الإسلاميين من الوصول للحكم، أو - على الأقل - للحد من استقرارهم فيه، واختراقهم للمفاصل الأساسية في الدولة. وأحد المحاور دي هو محور الاغتيالات.

ثم نظر لكل منهم في تركيز، وهو يردف:

- فيه شخصيات أساسية من الضروري إزاحتها من المشهد، أغلبهم إسلاميين، وبعضهم مش إسلاميين؛ ليبراليين، يساريين، متلّوين، بل وبعضهم من أضلاع النظام القديم نفسه، اللي ها يقدموا دعم مهم للإسلاميين، مع العلم أو عدم العلم بنواياهم. بعضهم حتى مُعادي للإسلاميين، ويسعى لبناء دولة ديمقراطية علمانية في الجوهر. لكن معلوماتنا بتقول أن الإخوان، في ظل أي حكم ديمقراطي في مصر، عندهم التنظيم والتمويل الكافيين لاختراق أي نظام مُخلخل. بالتالي عودة النظام القديم هي هدفنا الأساسي.

رد (هيثم):

- لكن النظام القديم كان بيمارس دور في حصار إيران الإقليمي.



وأضاف (فكتور)، وقد بدأت الغريزة السياسية تتحرك في دمه:

- دا غير أنني مش مصدق أن الإخوان ها يتعاونوا مع السعودية بأي شكل.

قال الرائد في هدوء:

- النظام القديم في مصر ما كانش متعاون مع إيران، صحيح، لكن هدف المهمة الفعلي هو الوقاية من نظام ديني - إسلامي - سني يتعاون مع القوى السنية الأخرى بشكل أكبر، ومن منطلق مذهبي، ويقفل الدائرة على إيران. أما السعودية والكويت والإمارات فها يضطروا تحت ضغط الخوف من تمدد المشروع الإيراني إلى التعاون مع الإخوان بصيغة معينة، تضمن عدم التدخل في شئونهم من جانب الإخوان من جهة، ومن جهة ثانية تحقيق مصالح مشتركة، أو تبادل مصالح على المدى البعيد. ومع الوقت ها يتشكل محور إخواني حرّ الحركة، يقاسم إيران وإسرائيل خريطة الشرق الأوسط، وحركته مش ها تكون في صالحنا.

تبادل (هيثم) و(فكتور) النظر مفكرّين في صمت. ولما طال صمت الجميع نهض الرائد، وأعاد سلاحه إلى جرابه، قائلاً:

- فكّروا كويس. ولو وافقتم ابعثوا لي على الرقم ده (يضع أمامهم بطاقة صغيرة). وفي حالة الموافقة ها توصلكم مننا تعليمات بصدد تدريبكم. أغلب التدريب ها يتم خارج مصر، ويتضمن استعمال أسلحة خفيفة متنوعة، وطرق التسلل، واسترجاع المعلومات، وخلافه. وجزء أساسي من التدريب، والتكليف فيما بعد، مراعاة شخصية كل واحد وواحدة منكم؛ لأن يهمننا عدم إجراء أي تغيير جوهري على المجموعة؛ بهدف أنها تشتغل بالدرجة نفسها وأكثر من التعاون. التواصل ها يتم



مؤقتًا بالشفرة اللي بتستعملوها، لكن أثناء التدريب ها تستلموا مننا نسخة معدلة أكثر فاعلية منها. وجهزوا أنفسكم للسفر، يعني إلغوا أي ارتباطات على المدى المتوسط، مهّدوا الأمر لمعارفكم بحجج مناسبة. (سلمى) مثلاً ممكن تقول لأسرتها أنها ها تاخذ دورة تدريبية في الخارج في العمل الصحفي. (هيثم) لازم يعمل حسابه أن شغله يقوم به من يمكن أنه ينوب عنه لمدة تتجاوز الشهرين. الباقيين أعتقد ما عندهم مشاكل كبيرة. ولغاية ما تاخذوا قرار يجب أنكم تمتنعوا تمامًا عن القيام بأي عملية. الجاي كثير.

ثم نظر إليهم باسمًا مودّعًا، وهو يقول:

- أسيبكم بالوقت. ولكن افكروا أن ما فيش داعي للرفض، وأن دي فرصة العمر، وأنكم مش ها تعملوا في الحقيقة غير اللي بتعملوه فعلاً، لكن بشكل أكثر كفاءة، وأنكم بتقدموا خدمة لنفسكم وأهلكم؛ لأن ما أظنش تحبوا تعيشوا في ظل حكومة إسلامية.

ثم شبك يديه أمامهم قائلاً بتشجيع مصطنع:

- أهم حاجة يا جماعة روح الفريق. لازم تفضلوا يد واحدة. تصبحوا على خير.

ثم انصرف.



ساد صمت طويل في حجرة المكتب بعد رحيل الرجل، صمت يخفي عاصفة من الحيرة والدهشة والتساؤل. كانت (يمنى) أول من تكلم، فقالت:



- إيه القرار؟ دا تطور ما كانش في الحسابان.

لم يجبها غير (هيثم) قائلاً في حيرة:

- مش عارف. إحنا رجال مخدرات، مش مخبرات.

قالت ماطة شفيتها:

- يجوز العالمين دول مش منفصلين للدرجة دي.

قال (فكتور):

- إحنا اتفقنا على عدم توجيه نشاطنا لخدمة هدف سياسي أيّا كان.

قالت (سلمى) في تعب:

- أنا عاوزة أروّح.

فنظر (فكتور) إليها مندهشاً، ثم التفت إلى الباقيين، وقال:

- غير كدا الموضوع غير قابل للتصديق. يعني بصراحة هل حد زي

(سلمى) مثلاً ممكن يكون عميل مخبرات؟

قال كلماته الأخيرة في تهويل متعمّد، فأجابه (هيثم) وهو يفكر في

عمق:

- هم أدرى مني، ومنك، ومن (سلمى).

ثم أدرك نقطة أبعد، فقال:

- دا غير أنها مش ها تبقى فتاة مخبرات بالضبط.. إحنا في نظرهم

فريق اغتيالات.

حرّك (فكتور) ذراعيه في توتر، وهو يقول:



- أوكي.. أنا عن نفسي مش ممكن أتعاون مع إسلاميين شيعة ضد إسلاميين سنّة. إسلاميين بيضربوا في بعض.. أنا مالي؟

أجابه (فريد) هذه المرة شاردًا دون أن ينظر إليه:

- ما تنساش أن فيه هدف مشترك بينك وبين الشيعة دول؛ هو منع الإسلاميين في مصر من السيطرة.

قال (هيثم) في حدة:

- دا إذا كان الهدف المعلن هو فعلاً الهدف الحقيقي. والمفروض زي ما قال (فكتور) أن نشاطنا مجرد من المنفعة، وأنه مجرد نشاط علاجي.

ساد الصمت ثانية، وكل منهم يقلّب في ذهنه الاحتمالات والتصورات، ثم التقط (هيثم) نفساً عميقاً، وعاد يقول لـ(فريد):

- أنتَ رأيك إيه؟

هزّ (فريد) رأسه في بطاء شارد، وهو يقول:

- رأيي إنها فرصة العمر فعلاً.

هتف (فكتور):

- يعني ها نوافق؟

رد (فريد) في سرعة:

- وها نتدرّب.

ثم أخذ شهيقاً طويلاً، وقال:

- إحنا مش ها نخسر حاجة، بل المكسب أكيد. حد عنده اعتراض

على دا؟



لم يعترض أحد، فاستأنف:

- رأيي نستغل فرصة التدريب. وبعدها ها نكون أقدر على تقييم الموقف. وفي جميع الحالات إحنا مش مرغمين، وما حدش يقدر يرغمنا على حاجة. إحنا أحرار تمامًا زي الآلهة، أو الموتى.

ثم تأمل لحظة، وقال كأنه يكتشف حقيقة:

- فوق كدا أعتقد أن لقاء الليلة مع الرائد دا هو أهم اختبار لمدى حريتنا؛ يعني لو كانت فيه أي وسيلة لإرغامنا كان استعملها. لو وافقنا فدا لا يعني إننا أقل حرية، لكن لو رفضنا ها نكون بالتأكيد أقل قوة.

تبادل الباقون النظر مفكرين، وحين طال الصمت، قالت (سلمى) في سأم:

- أنا عن نفسي مش عاوزة تدريب وزفت. إحنا ها نقتل ولا ها نذاكر؟!!

ساد الصمت لحظات، ثم قال (هيثم):

- أنا رأيي نهذا الليلة، ونفكر بهدوء أكثر اليومين الجايين. إحنا دالوقت مرهقين من العملية، ومتفاجئين من الموقف، ومش ها نعرف نفكر صح. إيه رأيكم؟

أومأت (يمنى) إيجابًا، وقالت متعبة:

- أعتقد كدا.

سأله (فكتور):

- نقضيها حشيش ولا خمرة؟

- حشيش مش ها ينفع؛ إحنا محتاجين نسترخي وما نفكرش مؤقتًا.



قال (فريد):

- أنا مع الاقتراح دا.

قال (منصور):

- طيب أنا مش بشرب ولا بدخن.

قالت (يمنى):

- أعتقد الليلة لازم تبدأ.



بالفعل اجتمع الستة في صالون (هيثم) للشرب. وخرجت زجاجة ويسكي مستورد من أحد الأدراج، مع زجاجة نبيذ إيطالي. وحين جرّب (منصور) الشراب للمرة الأولى بدا مختلفاً تماماً؛ زال الخجل، والجمود، وصار يضحك لأقل سبب، وهو ما أكسب الجلسة بعداً مرحاً جديداً، خفف آثار ذلك اللقاء العاصف. وقرب انتصاف الليل انصرفت (سلمى) ومعها (هيثم) لتوصيلها، وبقي الآخرون.

رقد (فريد) على أريكة، وقد اكتفى من الشراب، وبدأ ينعس دون منوّم، حيث كانت (يمنى) تقول لـ(منصور) ضاحكة:

- أيوا كِدا.. اشرب من (القزازة) على طول. اشرب وبان عليك السلام..

ضحك (فكتور) حتى سعل، وقال:

- «عليك الأمان».

كانت الخمر قد ذهبت برؤوسهم، فضحكوا، وهي تقول:



- أنا قلت «عليك السلام»؟

رد (فكتور):

- ما هو الراجل فعلاً بقى في السلام.. القزازة كان فيها أكثر من النص،
ودالوقت...





الفصل السابع الشُّرفة

١ - شَكْلُ بلا جسد

...

كان حوار (فكتور) و(يمنى) آخر ما سمعه (فريد) قبل أن ينام، وقد اختلطت نهاية الكلام ببداية حلم غريب. كان يقف وحيداً في ليلة مظلمة كئيبة، ومن بُعد بدت معالم قصر الاتحادية. بدأ يمشي، وحين اقترب، وجد ما يشبه اعتصاماً ما لشباب، يعرف بعضهم في الواقع؛ نشطاء سياسيين، وصحافيين، وفي مواجهتهم بعض الإخوان والإسلاميين، الذين يعرف بعضهم كذلك. كان المشهد ككل عنيفاً؛ طلقات نارية، يرى بعض مُطلقِها، وبعضها تنطلق من زوايا خفية، أو من العدم. هناك تفجيرات محدودة كأنها حرائق (مولوتوف). هناك إصابات بالعشرات على الجانبين. هناك قتيل، وقتيل آخر، وآخر. الأرض تمتلئ بالمصابين والقتلى، والساحة تتحول إلى معركة حقيقية. هناك صراخ، وصياح، وبعض الهتافات ضد الإسلاميين، ضد (محمد مرسي) تحديداً. (محمد مرسي) من؟ هناك قيادي إخواني بهذا الاسم. ولكن لماذا هو بالذات؟

ثم فوجئ بانفجار زجاجة (مولوتوف) حوله. بالأحرى انفجرت فيه هو. لكنه لم يشعر بشيء ولم يحترق. في الواقع لم تحرق النار أحداً ولا شيئاً. ثم تبين أن الانفجار مرّ خلاله، كأنه شبح. بالفعل، هناك شخص



أقبل جاريًا فرارًا من هجوم ما، لكنه عبر من خلاله كالطيف. واتضح أن أحدًا لا يراه. كل العيون تقتحمه. رأى فتاة تصرخ وهي تحاول وقاية ما بدا له فتاها أو زميلها، دون أن تملك وسيلة دفاع ضد معتد ما، تظهر عليه ملامح الإجرام. حاول الدفاع عنها لكنه غير قادر على التأثير في شيء. اقترب من حاجز معدني أمام القصر، ووضع عليه يده، فاخرقته دون أن تمس شيئًا. انزعج كثيرًا. هل يعني هذا أنه ميت؟ هل يعني أنه حي لكنه بلا جسم؟ رفع يديه ونظر إليهما، فرأهما، وتساءل: هل يمكن أن يكون له شكل بلا جسد؟ كان المجرم يضرب الفتاة، ويجرها من شعرها، وهو يشعر بعجز سخيف غريب. تساءل ثانية: هل تكون قمة الحرية: أن تتخلص من الجسد، هي قمة العجز كذلك؟ هل القيود قدرة؟ هل هي ضرورة للفعل؟ هل كل الوسائل في جانب منها قيود وسدود؟

وبينما يفكر ويندهش مرّ عليه متسوّل ممزق الثياب، ثم ظهر له أنه درويش أو مجذوب من مجاذيب الأضرحة، ثم وصّح له أنه يحمل ملامح الرائد (أدهم درويش) ذاتها! مرّ جواره في هدوء، وهو يعرج لسبب ما، ناظرًا إليه بالذات. وحين اقترب منه قال ملوِّحًا بكفه في تهيب واضح:

- عليك السلام!

فاندهش أكثر. هذا الرجل يراه بالفعل. لكنّ الرجل ابتعد عنه متراجعًا بظهره، كأن من سوء الأدب أن يستدير عنه أو أن يقترب منه، وبدأت على وجهه ملامح إجلال ما. صاح في الرجل:

- أنت شايقني؟

لكن صوتًا لم يخرج من فيه. إنه غير مرئي وغير مسموع، سوى أن



الرجل يراه. وربما لا يراه بالضبط، ربما يرى شبحًا، أو ظلًا. هنا أشار له الرجل بسبابته كأنه يتهمه، أو يكشف حقيقته، بنظرة مجنونة مخيفة: - أنت رمز. أنت رمز.

ثم بدأ المشهد يتلاشى، وتراجع الهتاف والصراخ.



فتح (فريد) عينيه فأذاهما ضوء الصباح من خلال زجاج الشرفة. نهض شاعرًا ببعض أعراض ما بعد السكر (الخُمَار Hangover). كانت الغيوم قد أغلقت السماء تمامًا، فبدت السماء كأنها مصباح (نيون) عملاق بلا حرارة. نهض وأمسك رأسه شاعرًا ببعض الصداع، ثم بدأ يسترجع الحلم بالعكس؛ من النهاية إلى البداية، وتوقف خصوصًا عند الكلمات الأخيرة. رمز؟ هل كان في الحلم مجرد رمز، ولهذا لا يملك أثرًا على العالم؟ وما معنى هذا في الواقع؟ أدهشه أنه حتى في يقظته لا يمكنه تأليف هذا الحوار، لكنه قد خبر هذا عدة مرات من ذي قبل. نهض وأخذ حمامًا دافئًا؛ ليزيل أثر السكر والدخان. أعد كوبًا من القهوة، ثم خرج إلى الشرفة، ويبدو أنه الوحيد المستيقظ في الدار في هذه الساعة المبكرة.

لكنه في هذا الصباح، وهو يتأمل المارة القليلين في الشارع، وبعض الحيوانات الضالة، قد لاحظ شيئًا غريبًا. بالأحرى لم يلاحظ شيئًا محددًا غريبًا، لكنه أدرك بشكل ما أن شيئًا ما خطأ في كل شيء.

كان كل شيء طبيعيًا، لكنه كذلك لم يكن حقيقيًا. العالم يبدو كأنه ديكور. البناءات كأنها (ماكيتات) عملاقة. السماء كأنها سقف مُضاء. الأرض (أرضية) أو قاع. دقق النظر فوجد أن كل الموجودات كما هي،



لكنه (يعتقد) أنها ليست حقيقية. أثارت انتباهه بعض اللافتات والعلامات على الطريق؛ أسماء الحوانيت، إشارة المرور، أرقام السيارات، كلها يبصرها في وضوح تام، لكنها غير ذات دلالة حقيقية. هو يعرف دلالة كل رمز منها، لكنه يشعر أن هذه الدلالة مقحمة، وغير أصلية. كل شيء غير أصلي. حتى اللغة التي سمعها في الحلم، والتي يستعملها للتفكير في عقله بدت له مصطنعة. لا علاقة أصيلة بين دال ومدلول، على الإطلاق. بدت له اللغة العربية، لغته الأم، والفارسية، لغة أمه، واللذان يتقنهما أكثر من غيرهما، كأنهما لغتان أجنبيتان، وكأنه قد تعلمهما البارحة. وتساءل: وما لغتي الأصلية إذن؟

رفع يديه أمام وجهه وتأملهما، وهنا خطر له خاطر آخر أكثر إفزاعاً من كل ما سبق: جسده ليس جسده هو! لا يعرف أين جسده الحقيقي، أو ما إذا كان له جسد من الأصل، لكنه شعر أن وعيه مجرد معلومات رُفَعَتْ uploaded على هذا الجسد، وأنه مدفون فيه، ولا يستطيع الخروج، وأن هذا الجسد مثير للاشمئزاز، كأنه جثة، وأنه دفين في جثة.

ما هذا الذي يحدث؟!

فكّر: هل هذا بسبب السكر؟ لكنه لم يخبر أعراضاً مثلها للسكر سواء بشكل مباشر أو من دراسته. هل هو عرض فصامي ما يسببه الكحول عند البعض على سبيل الدُّهان المستحثّ عن طريق مخدّر drug- induced psychosis؟ إنه يشرب منذ سبعة أو ثمانية أعوام، فلماذا ظهر الآن؟

ثم بدأ يستوعب أثر الكلمة الرهيبة: دُهان. هل ينتهي هذا العقل الجبار بفصام؟ وشعر بأطرافه تتسلّج.

هنا قرر أن يرحل. حاول التخلص من هذه الحالة العجيبة بأن يصرف



ذهنه عنها، لكنه لم يستطع؛ لقد صارت هي ذهنه نفسه. على أي حال ارتدى ثيابه على عجلة، ولم يشأ إيقاظ أحد من رفاقه النائمين بالدار. في الواقع لقد شعر بانفصال تام عن كل شخص في العالم، كأنه الشخص الوحيد، وكل هؤلاء صُور، أو رموز ضالّة عن دلائلها. وحين خرج من الدار، وهو ينتظر عبور تاكسي، بدأ يفكر في الانتحار بشكل مختلف للمرة الأولى. كان الانتحار بالنسبة له سابقاً مجرد مهرّب حين تتعدّد الأمور، مخرج سرّي من الاكتئاب واللا جدوى، لكنه اليوم أقرب إلى مصير، نتيجة طبيعية، مخرج رئيسي، لا مخرج طوارئ.

انتزع سيجارة من علبته، وأشعلها، وحين رأى شعلة اللهب الصفراء تجمّد. لقد تذكّر! لقد رأى ناراً في حلم البارحة؛ نار المولوتوف أو ما بدا كذلك. وهو يعلم أهمية النار في أحلامه. (أحلام النار) كما يطلق عليها، أي الأحلام التي تظهر فيها النار بمناسبة - بمناسبة صدام الاتحادية في حلم البارحة - أو بدون مناسبة، فتبدو مقحمة نوعاً، كما في.. كما في حلمه بـ(سلمى) حين تبين أنها كائن شبيه بالسلطعون، وكان ذلك قبيل مضاجعتهم الوحيدة. في ذلك الحلم اندلع لهب أزرق من المدفأة الكهربائية، كأن مؤلّف الحلم لم يجد حجة غير هذه لإدراج النار ضمن عناصره.

هو يعلم معنى النار في الحلم لكثرة ما مرت به في منامه: النار تعني أن كارثة ما ستقع، فردية أو جماعية أو مجتمعية أو إنسانية، وتعني أن الحلم حقيقي، أنه رؤية واضحة للمستقبل. كلما ظهرت النار في أحد أحلامه تحقق دون تأويل، كأنه يرى تريلر فيلم trailer قبل أن يعرّض الفيلم الكامل. لا يعرف - بعقليته العلمية - معنى هذا أو سببه، لكن هذا هو ما يحدث، وعدم معرفة سبب ظاهرة ليس داعياً لإنكار وقوعها، خاصة حين تتكرر، وتكون قابلة لإعادة الإنتاج، والاختبار.



وقد تساءل كثيرًا من قبل: لماذا النار؟ لا يعرف، لكنه يفترض علاقة ما بين العقليين الفردي والجمعي، ربما ظلت النار في الوعي المعاصر علامة مهمة، تحذيرًا، أو تنبيهًا، كما كانت عند الإنسان البدائي. هل يعني هذا أن اقتتالًا عند قصر الاتحادية سيحدث؟ هل يعني أن الإخوان فعلاً سيصلون إلى السلطة؟ وإلا فلم كان يهتف المعتصمون هناك في الحلم ضد (محمد مرسى)؟ وما دلالة ذلك المجدوب، الذي يشبه بشكل غريب جدًا ذلك الرائد الذي زارهم البارحة كذلك؟ لقد أتى إليه بزيارة خاصة إضافية في المنام. إلامَ يرمز هذا الرائد/ الدرويش في الحلم؟

ثم انتقل إلى سؤال آخر: إلامَ يرمز في الحقيقة؟! هل هو حقيقي؟ ضابط أمني يتكلم عن الرياضيات والجينات! في الواقع هو يشبه في ثقافته الواضحة وطريقته في الحديث واحدًا منهم، يشبهه هو! ويعرف عنه ما لا يعرفه أصدقاؤه. هل هو هو؟ هل حاول تجنيد نفسه؟ وما مكان رفاقه الخمسة في كل هذا بالضبط؟ هل هم حقيقيون؟ إنه يذكر لكل منهم تاريخًا شخصيًا محددًا، لكنه دارس، ويعلم أن هذا ليس شرطًا في تنفيذ الضلالات. الأوهام قد تتجذر وتأخذ أبعادًا عميقة شاسعة، حتى ليشعر المرء أنها هناك منذ الأزل.

توقف تاكسي، فقال له:

- ٦ أكتوبر.

فأوما السائق إيجابًا، فركب، وهو يفكر في تركيب (٦ أكتوبر) الذي استعمله. إنه يعرف معنى التركيب، ويستطيع استخدامه، لكنه ذو دلالة مصطنعة. تجمّد في جلسته، وهو يفكر في اضطراب. يعرف مصطلحًا يصف هذه الحالة: Derealization أو (التزييف) كما يفضل أن يترجمه.



لكنه يعرف من خلال دراسته أنه من أعراض انسحاب الكحول عند مدمنيه^(١)، وهو ليس مدمناً للكحول، ولو كان مدمناً فهو لم يتوقف عنه. هناك مسببات أخرى لا يذكرها بدقة. يجب أن يعود إلى شقته، ويطالع بعض المراجع.

كان السائق يتابع صوت الراديو، الذي يقص أخبار مباراة ما أمس. ويبدو أن الأخبار لم تعجبه، لأنه ضرب عجلة القيادة بكفه، وهو يقول في غيظ:

- خسارة.

فاستقبلها (فريد) تلقائياً، وللوهلة الأولى، بمعنى (خسارة جنين) أو (إجهاض)!

ثم تبين له فجأة أن الكلمة في سياقها تعني خسارة مباراة. اندهش كثيراً، وخاف كثيراً. لقد بدأت الكلمات تتحرر من سياقاتها، وتخلق لها سياقات بديلة، عشوائية أو محددة، لا يعرف حتى الآن، لكنها جميعاً مخيفة ومدهشة.

لم يطق الانتظار. التقط هاتفه، وطلب رقم أمه. وحين ردت عليه بلكنتها الأجنبية، التي تقلب الحاء هاءً أو لا تنطقها إطلاقاً، سألها:

- هل هناك في عائلتنا، باستثناء ابن عمي، من كان مريضاً بالفصام، مجنوناً أعني؟

(١) حقيقة كذلك. والبعض يفضل ترجمة هذا المصطلح بـ(تبدد الحقيقة). وبينما يعتبره بعض المتخصصين جزءاً من حالة أعم تتضمن (تبدد الشخصية) Deper-sonalization، يقترح آخرون أن الأول عدم الإيمان بحقيقة العالم الموضوعي، وأن الثاني حالة مختلفة تعني عدم الإيمان بحقيقة الذات.



قالت له إن المؤكّد أن اثنين آخرين من عائلة أبيه مرضا بذلك فعلاً،
فأنهى المكالمة. الفصام ذو انتقال وراثي، ويرفع فعلاً نسبة الاحتمالات
في حالته. وأدهشه أنه لم يخش الموت كما خشي الفصام. كان تخمينه
المبدئي أن صدمة نفسية ما مؤخراً قد استحثّت تطوّر الفصام، الذي
يتمتع باستعداد مسبق في حالته. هل هي حادثة (سلمى) منذ شهر، حين
ورّطته فيما يشبه الاغتصاب؟ ولكن إذا فرضنا أن ما يحدث بداية فصام،
فلماذا اتخذ هذه الصورة؟ ثم بدأ يفسّر الأمر بأنّ الفصام لا يأتي بهلاوسه
من فراغ، بل من ثقافة المرء، وهو يقبل فعلاً بأطروحة أن عالمنا ذلك ما
هو إلا محاكاة لعالم آخر حقيقي، لكن الأمر تطور معه هذا الصباح إلى
الإيمان بهذا فعلاً!

وتداعى في ذهنه تاريخ هذه الفكرة: أشهر مصدر لها في الثقافة
العامة هو سلسلة أفلام (الماتركس) المعروفة، والتي يرجع مصدرها هي
نفسها في رأي البعض (لا توجد فكرة جديدة تماماً عادة في أدب الخيال
العلمي) إلى رواية Neuromancer لوليم جيسون William Gibson،
وأكثر من مصدر آخر. البعض يرجع الفكرة إلى أصل أقدم عند أفلاطون
في محاوره (الجمهورية)؛ حيث افترض الأخير أن عالمنا ما هو إلا
محاكاة لعالم من الأفكار المجردة، وذلك فيما يعرف بأسطورة الكهف.
لكنه هو نفسه يعتقد أن أفلاطون لم يأت بجديد؛ فالأديان المختلفة،
التوحيدية والشركية، قدم بعضها هذا التصور بالفعل، بل وأقام بنيانه
عليه. فكرة الحساب العادل الأخرى عند قدماء المصريين تعني بالتبعية
أن عالم الدنيا مجرد تجربة أو لعبة، مجرد محاكاة لعالم أصيل حقيقي.
الفكرة نفسها قائمة في اليهودية: «عولام هابا» في التلمود، وقائمة في
المسيحية، حيث العالم الآخر هو عالم الخلود والحقيقة، في حين تبرز



واقعة تجسّد اللوجوس (المسيح نفسه) باعتبارها التجلي الأساسي للحقيقة في عالمنا. أما في الإسلام فإن القرآن يقول صراحةً {إنما الحياة الدنيا لعب ولهو} في أكثر من موضع، وبأكثر من صياغة. يعني: محاكاة simulation. ابتسم لنفسه ابتسامة عبثية تمامًا، وهو يفكر في عنوان كهذا: «التفسير السيميولائي للقرآن». هذا التفسير سيكون طريفًا؛ لأنه سيقدّم رؤية جديدة كاملة عن العالم والمصير.

ثم قال لنفسه: هل النار هي العنصر الوحيد الحقيقي في عالمنا، لهذا هي علامة على صدق الرؤيا؟ هل هي حقيقة لأنها تأكل كل حقيقة؟ هل يكتسب الشيء حقيقته حين يتغذى على حقيقة غيره؟ وفي حالتنا: لم لا نكسب المزيد من الحقيقة، حين نلتهم أرواح قتلانا؟



٢ - عالم فكتور

استيقظ (فكتور)، الذي لم ينم إلا بعد العاشرة صباحًا كأغلبهم، قرب الغروب في شقة (هيثم)، الذي كان مستلقيًا على سريره على بعد أمتار على ظهره كالعادة في نوم عميق، وهي وضعية نوم لم يفهمها قط. (فريد) أخبره ذات مرة أنها مميزة لأصحاب الشخصيات المسيطرة. على كل حال يعلم (فكتور) عن نفسه أنه ليس شخصية مسيطرة، لكنه عنيد ومندفع. أما قوة حماسه لما يؤمن به، وتعبيره عنه بدرجة من الهستيريا، فهما العاملان اللذان يعوّضان عنده نقص الكاريزما.

نهض وأخذ حمّامًا باردًا برغم برودة الجو النسبية؛ فهو لم ينسَ بعد حياة المعتقل. وحين انتهى فتح هاتفه المحمول ليطلع آخر رسائل



الإيميل الخاصة بعمله، فلم يجد جديدًا. هو خريج كلية التجارة، لكنه يعمل صحافيًا كهواية - إلى جانب نشاطه السياسي - لا يكاد يكسب منها شيئًا. في الواقع يعيش على تحويلات شهرية إلى حسابه من قبل والديه، اللذين هاجرا إلى الولايات المتحدة قبل الثورة ببضعة أعوام، ويعملان بإحدى الجامعات أستاذين في اللاهوت. رفض الهجرة؛ لأنه يؤمن بأن «البلد بلدنا» ولا يريد أن يتركها لقمة بلا شوكة للإسلاميين.

نشأ (فكتور) في الأصل نشأة متدينة، وحين بدأ نشاطه السياسي في آخر سنوات الجامعة كان يركّز على قضايا الأقباط، لكنه في مرحلة ما بدأ يعتقد أن التركيز على قضايا الأقباط كأقلية لا يتضمن الكثير من المعنى؛ لأن أزماتهم في الحقيقة جزء من أزمة أعم، هي أزمة مصر ككل. أما تعرّض بعض أصدقائه من الباحثين المُجدّدين في اللاهوت (بمعناه الحقيقي لا عند هيثم) لرقابة الكنيسة، ومحاولتهم للهجرة فرارًا من هذه الرقابة لمتابعة البحث في الخارج، فكانت القشة التي قصمت ظهره. وتساءل: ما معنى أن أدافع عن حقوق أقلية هي نفسها تمارس نوعًا من الشمولية على نفسها؟! وصار يرى أن تركيز نشاط الأقباط على قضاياهم الخاصة لن يؤدي إلى تحسن وضعيتهم، بالعكس؛ سوف يزيد الأمر سوءًا؛ حيث يزيد من انفصالهم وتمييزهم، حين ينفصلون في أطروحاتهم عن القضايا العامة كالديمقراطية والقانون والعدالة الاجتماعية.

باختصار يرى أن على الأقلية بشكل عام، سواء الأقباط أو غيرهم، أن تكون أكثر وعيًا بالمطالب والحقوق العامة، بدلًا من انكفاءها الداخلي، الذي سيتحول سريعًا إلى انخساف نحو المركز. أما مناظرات البالتوك paltalk وأحمد ديدات وزكريا بطرس وسواهما فهي مما يستعجل



بالكوارث؛ لأنها تُمَحَوِّر الاهتمام الاجتماعي، وربما السياسي، حول قضية الهوية الدينية، التي تقوم بفعل التفرغ المركزي، مفرقة، لا مُجمعة للقوى الاجتماعية، التي يمكن أن تتحد حول مطالب مشروعة، وحقوق أساسية، هذا إلى جانب تأثير هذه المناظرات الخطير والتدريجي والمتراكم على السِّلْم الاجتماعي، في إثارتها للبغضاء المتبادلة بين المتدينين من الطرفين، وهو ما يحقق مقولة «فَرَّقْ تَسُدْ» بكفاءة، ومجّاناً. الأسوأ أن ذلك يصب في صالح الإسلاميين، الذين ليس لديهم ما يبيعونه للناس إلا قضية الهوية الإسلامية.

عند هذه النقطة اختار تحويل المسار، وأعلن - أمام أصدقائه - إلحاده، واتجه إلى الماركسية، وعمل لفترة مع الاشتراكيين الثوريين، وقدّر أن العدالة الاجتماعية هي التغيير الأكثر جذرية للمجتمع، وأنها القضية التي تتمتع بإجماع أغلب المصريين على اختلاف انتماءاتهم الدينية والمذهبية. (الطريق الثالث) هي كما كانت تعتبر قبل ثورة يوليو ١٩٥٢؛ حيث هي لا رأسمالية - إمبريالية، ولا إسلامية. هذا طبعاً قبل أن تتحول بعد ثورة يوليو إلى (الطريق الوحيد). بالأحرى تحولت - في رأيه - إلى (الطريق الزائف الوحيد) القائم على مقايضة الخبز بالحرية.

وقد شارك في ثورة يناير بحماس، لكنه ذلك الحماس الذي ما لبث حتى تراجع مع تقدم واضح للإسلاميين، مشير للريبة، في استفتاء ١٩ مارس إياه. وفي اعتقاده أن هذا الاستفتاء كان نقطة تحوّل خطيرة؛ حيث استحالت معه الثورة الاجتماعية - السياسية، العيش والحرية، إلى صراع طائفي قائم على الهوية والمادة الثانية من الدستور. وهو ما انفكّ يعتبر هذه الكلمة «الهوية» العدو النظري الأساسي للثورة الاجتماعية؛ بسبب



قدرتها على تحويل الثورات الاجتماعية إلى حروب أهلية^(١). هنا انتهت رحلة (فكتور) من المسيحية إلى الماركسية إلى العدمية، وغرق كل تنظير (الطريق الثالث) في طوفان الدين والدم. وهو ما كان يعبر عنه في عنوان أحد دواوينه بـ «رحلتي من الوجود إلى العدم» كإشارة ضمنية في الوقت نفسه إلى عنوان (مصطفى محمود) الشهير.

خرج إلى الصالون ليشعل الغليون، فرأى (يمنى) تدخن في الشرفة. بحث عن قدّاحته فلم يجدها وسط كل فوضى البارحة. اتجه إلى الشرفة وقال:

- صباح الخير.

ناولته (يمنى) القداحة وهي ترد:

- مساء الخير.

أشعل الغليون بها في صعوبة، ثم نفخ الدخان عابساً، وقال:

- مش فارقة.

- مالك؟

- مش عارف.. مكتئب.

- ليه؟ كنت امبارح مفرفش.

تفكّر لحظة، ثم قال ما طأ شفتيه:

- مش عارف. الاكتئاب نفسه منظور أسود، بحيث كل شيء يبدو كئيب، وبالتالي ما نقدرش نعرف إيه السبب وإيه النتيجة.

(١) ستصدّق الأحداث فيما بعد بشأن الثورة السورية خصوصاً على اعتقاد (فكتور) هذا.



هزت رأسها مؤيدة، وقالت:

- الدكتور يقول إن للاكتئاب بالضرورة سبب خارجي.

تعني (فريدا)، فتفكر مرة أخرى، ثم جذب مقعدًا وجلس أمامها، وقال في عصبية:

- أنت عارفة..؟ أنا سبب اكتئابي الحقيقي مش الثورة ولا السياسة..

جاءه صوت (هيثم) فجأة مقاطعًا:

- أمال؟

وجداه واقفًا على مدخل الشرفة يتمطّي، ويبدو أنه يريد سيجارة. ناولته (يمنى) واحدة من علبته التي تدخنها هي، فأشعلها، والتقط الدخان، وعاد يسأل:

- حد اعتُقل زيك ٣ مرات وعنده سبب مختلف للاكتئاب؟ المفروض أسباب الاكتئاب دي رفاهية.

سأله (فكتور):

- رفاهية إزاي؟

- يعني.. كلما كان عندك أسباب أكثر للاكتئاب دا يعني إن كان عندك آمال ولذات مفقودة بعددها أو أكثر.

هرش (فكتور) شعره المعقود على شكل كعكة بمؤخرة رأسه، وقال:

- يمكن.. يمكن أنا مرفّه شوية فعلاً بالنسبة لزمايلي.. أقصد زمايل المعتقل.

ثم بدأت تتملكه الحماسة مجهولة المصدر، فقال وهو يتأمل السحب المصطبغة بلون المغيب:



- أنا كنت بفكر النهار دا لما صحيت في قصة حياتي: من باب البيت،
لباب المعتقل، لباب المكتب، اللي قابلنا فيه (أدهم درويش) امبارح،
واكتشفت أن الخيط الواصل لكل حلقاتها هو الشُّعر. أغلب ظواهر
حياتي شُعر. يعني.. يعني.. (واختلط الأمر عليه كالعادة بسبب تراحم
الأفكار والحماس) مِن الآخر أنا بفسّر العالم كقصيدة، وكل حاجة بما
فيها الاكتئاب شُعر أو بسبب الشعر.

سألته (يمنى) وهي تدفن عقب سيجارتها:

- يعني الشعر جاب لك اكتباب؟

- آه، أعتقد.

- كنت فاكراه علاج.

لَوّح بغليونه، وقال قانطًا:

- أعتقد إن الشر هو اللي ممكن يكون علاج، السرد أقصد، مش
الشُّعر.

ثم طقطق بلسانه في قنوط أكبر، وقال في ضيق:

- عارفين (كاترين) قالت لي إيه عن آخر نصّ؟

(كاترين) هي فتاته الجديدة كما يعلم أصدقاؤه، فهو قصير العلاقات
ك(فريد)، لكنه زير نساء من الدرجة الأولى، ويبدو أن ذلك بسبب
فحولته وشهوانيته واندفاعه. رد عليه (هيثم):

- أيوا متوقّع قالت لك إيه.. «مش فاهمة ولا كلمة».

فقال:

- أح*! إذا كانت البنت اللي بنام معاها مش فاهماني..



قاطعہ (ہیثم) بادائہ الکریشندو:

- آیوا یا مان.. ما أنت ثلاث أرباع نصوصك (أدونیس) نفسه محتاج معجم فلسفة، واثنین أساتذة نقد أدبي من برّه، زائد ۲ كيلو لاهوت محترم علشان يفهمها.

لمعت عينا (يمنى) في استمتاع؛ فالحوار تحوّل سريعاً إلى مشهد من (تارانتينو)، وقالت كمحاولة للتسخين، وهي تقلّد طريقته في الإلقاء:

- فيه بنت تيجي تلقي لها قصيدة تقوم تقول لها «نحن الخاسرون أكبادنا في مظاهرات الخبز والحرية»؟!

قال (هيثم) ملوّحاً بإشاراته الحاسمة الكثيرة:

- مثلاً.. ها تعرف المسكينة إزاي أنك تقصد بروميثيوس؟ دا إذا كانت أصلاً عارفة بروميثيوس.. دا أنا نفسي ما فهمتش تقصد إيه غير لما قرّيت النص، وشفت الهامش.. وبعدين تروحووا تقضّوا ليلة مع بعض، تقرا لها الكلام دا، يطلع لها عفريت في السرير؟! البت تلاقيها قطعت الخلف.

لوّح (فكتور) بغليونه في عصبية أكبر:

- وحدّ غضبها تصاحبني؟ مش هي اللي جريت ورايا لغاية ما سبت (نادين)؟

رد (هيثم):

- ما قلت لك: سيب (كاترين) وخذ (مارلين). قَمُورة وشيك وبتفهم.

أشارت (يمنى) إلى (فكتور) بسبابتها، وهي تقول بلهجتها السريعة المشاكسة:



- لحظة.. لحظة.. أنت مش ملاحظ أنك مؤخرًا كل علاقاتك
(..إين).. (..إين)؟

فكّر (فكتور) كأنما يلاحظ ذلك للمرة الأولى، وقال:
- يعني.. آه.. أعتقد صدفة.

قالت (يمنى) في بساطة:

- البنت في النهاية عاوزة كلام حب عشان تحسّ.

قال لها (هيثم) مماغًا متصنّعًا الهيام:

- أيوا.. يا حبييتي.. يا مراتي..

قاطعته ضاحكة:

- بس يا ولا.. شرعًا دا جواز لو أنا رديت بالموافقة، وكفاية جوازة
انتهت بالسّم.

أشار (هيثم) بيده كأنه يدفع نقدًا قائلاً:

- البنت عاوزة حاجة تحسّها، مش تفهمها. افهم يا قُفل.

- أنا فاهم دا أكثر من أي حد، لكن أنا بتكلم في قضية أعمّ.

ثم امتص غليونه في نهم، وقال في عصبية:

- عارفين الواد شاعر العامية (سعيد الشلقاني)، اللي أخذ
(التشجيعية)؟ كل شعره كِدا. أوّل ما ينشر سطرين على فيس - بوك تلاقي
١٩٠ لايك، أغلبهم بنات.

قال (هيثم) وهو يُنهى سيجارته:



- يا عمّ أنت مش ناقص بنات. بس الجزء الوحيد اللي أنت مش بتوصل له في المرأة هو عقلها. ودا مستحيل توصل له.

قال (فكتور) ضاحكًا في استهجان:

- الواد دا بيخاف يقعد معايا ع القهوة؛ علشان ما يظهرش قدام الناس أنه مش فاهمني، حتى في كلامي العادي.

تحسس (هيثم) ذقنه الخشنة، وهو يقول في جدية:

- لا بس أنت قصايدك الواقعية إياها كانت جماهيرية عن اللي بتكتبه دالوقت.

غمغم (فكتور):

- دا منطقي.. بس دا كان في المرحلة الواقعية.. حاليًا أنا في العدمية.

ضحك (هيثم) وهو يقلّد (محمد رشدي):

- عدميييياااه!

ضحكت (يمنى)، وقالت ناهضة:

- أنا ها أعمل قهوة، أعملكم معايا؟

أشارا لها إيجابًا، وقال (هيثم):

- طيب ما تعمل مدرسة جديدة وسمّيتها (الواقعية العدمية)، وتبرز بيها ظواهر العدم في الواقع، أو عدم الواقع.

مسح (فكتور) على وجهه، وفكّر لحظات، ثم قال:

- الواقعية هي أصلًا السبب في الانحطاط الذوقي العام عندنا. (حسن



طِلب) اتكلم مرّة عن «احتقار الثقافة» عند الجيل الجديد؛ يعني أن كثير من الجيل الجديد ينفّر فعلاً من الأدب اللي عاوز تشغيل دماغ، ودا حقيقي^(١).

أخذ (هيثم) سيجارة ثانية، وقال:

- ودا إيه علاقته بالواقعية؟

- علاقته أن الواقعية عندنا تحوّلت إلى نوع من (الثقافة الجماهيرية) بالمعنى الشمولي. الدولة بعد يوليو ٥٢ استعملت الواقعيين من الفنانين كمنابر تعبوية. والحقيقة دا اللي حصل في الاتحاد السوفيتي والصين، وفي أي مكان انتصرت فيه الاشتراكية أو الشيوعية. الواقعية نفسها كمذهب أنا أحترمه، لكن استعمالها كبوق دعاية دا خرا الصراحة. ومع الوقت تأكلت كل مبادئ الحركة الواقعية في الممارسة: تقديم الواقع، تقييم الواقع، تقويم الواقع، وبقي بس منها (ضرورة وصول الأدب لكل الناس) و(الهبوط لمستوى المتلقي). وبعد الهبوط مافيش حاجة غير مزيد من الهبوط. المفروض إنك ترفع السقف، بحيث يقل الهبوط لِمّا يحصل. وأغلب جوايز الدولة وغير الدولة من كذا سنة بينالها أدباء واقعيين شكلاً من قبل هيئات تحكيم واقعية - جماهيرية من النوع دا. الواقعية عمرها ما كانت أساساً تبسيط لغة وآليات الخطاب، بل إنجاز عمل ينقد الواقع. السريالية في تأسيسها عند (أندريه بریتون) حركة واقعية يسارية أصلاً، رغم أنها ممتنعة على فهم (المتلقّي العادي) بمعايير الأدباء في مصر. سارتر أديب واقعي بامتياز. أتحدّى حد من (أدباء المتلقّي العادي) دول في مصر يقرأ مسرحية واحدة له، ويفهمها!

(١) وذلك بد(مركز طلعت حرب الثقافي) بالقاهرة في نوفمبر ٢٠٠٧.



رد (هيثم) في لا مبالاة:

- ولما مش ها يفهمها ها يقول «العيب على سارتر».

قال (فكتور) في حماس تراجيدي:

- بالضبط؛ هو أنا أديب ولا شغال عند وزير دعاية هتلر؟! مش بالذمة

دا وضع يجيب اكتاب؟

جاءت (يمنى) في هذه اللحظة لتسأل (هيثمًا) عن مكان البنّ، أو عمّا

إذا كان لديه بن أصلاً، لكنها سمعته يقول:

- الموضوع دا كان محتاج (فريد) يحضرنا.

فسألت تلقائياً:

- هو صحيح (فريد) فين؟ لا اتصل ولا بت.

رد (فكتور) وهو ينظر إلى الشارع:

- مش دا (فريد)؟

نظر ثلاثتهم إلى أسفل، فرأوا (فريداً) قادماً، يمشي بخطى متناقلة

غريبة، وبمنظر عام غير مهندم، فقال (هيثم) بعد دهشة:

- هو فعلاً. ما له كأنه جاي من بيتهم مشي كدا؟

تأملوه لحظة، وهم لا يعلمون أن هذه هي الحقيقة تقريباً؛ لقد جاء من

ميدان (الرماية) إلى بيت (هيثم) في المعادي مشياً!





٣- الشهيد

ما استغربوه أكثر من مظهره أن (فريدًا) لم يستقلّ المصعد وهو يصعد إلى شقة (هيثم)، بل صعد أربعة طوابق على قدميه، وحين استقبله (هيثم) على المدخل هتف:

- إيه دا؟ مالك يا بني؟

دخل (فريد) بخطوات متثاقلة جدًّا، فرأوا عينيّن متّسعتين، زادت الهالات الداكنة حولهما عمقًا، وشعرًا منكوشًا، وطابعًا من الذهول والضياع. توقف بعد الدخول كأنه فقد الاتجاه، أو لا يعرف أين أو من هو، فأخذه (هيثم) من معصمه النحيل، وأجلسه على أقرب مقعد. جاءت (يمنى) عاقدة الحاجبين، ملقية نظرة متسائلة قلقة، أما (فكتور) فهتف بدوره:

- حصل إيه؟ بوليس وقّفك في الشارع؟

رد (هيثم) مستنكرًا:

- بوليس إيه يا أخي؟ كان اتصل بيا أو قالهم أنه يعرفني.

نظرت إليهم (يمنى) لثوانٍ، ثم أسرع لتحضّر كوب ماء، بينما أشعل له (هيثم) سيجارة، فرفضها بإشارة واهنة، ولم يتكلم. جلس (فكتور) مواجهًا إياه، وناظرًا إليه في إمعان، وقال:

- ملامح البهدة دي أنا عارفها. أنت رجعت تمشي في مظاهرات

تاني؟

قال (هيثم) وهو يتمنّن في (فريد) بدوره:



- وهو كان مشي فيها أولاني؟ مش كان بيقول عن نفسه «آية الله المتعالي الرأسي»؟

أوماً (فكتور) إيجاباً وهو يغمغم:

- آه.. وأنا كنت فاكرها هزار.

إشارة إلى أصوله الفارسية. فتحركت إليه عينا (فريد) في بطء شديد وتعب أشد، ولم يتكلم. عاد (فكتور) يقول:

- اشرب. سيبه يستريح.

بدأت عينا (فريد) تكتسبان حيوية شحيحة، وهو ينظر إليهم جميعاً، ثم سمعوه يقول في وهن:

- افتحوا التلفزيون.

حسبه (هيثم) يهذي، فسأله:

- نفتح التلفزيون؟

رد (فريد) بالطريقة نفسها:

- أوفيس - بوك.

تبادلوا النظر ثانية، ثم التقطت (يمنى) الريموت كونترول، وأضاءت شاشة التلفاز، وراحت تقلب القنوات بشكل عشوائي، وهي تقول:

- أنهي قناة؟

كان (فكتور) قد فتح صفحة فيس - بوك على هاتفه، فقال:

- يا نهار أسود!



سأله (هيثم):

- إيه في إيه؟

جاءه صوت (فريد) يقول بالفصحى بشكل متقطع لاهث، لا يدري
انفعالاً أم تعباً:

- «لو.. أننا.. استعبدنا الناس.. لتركونا أحراراً».

أما (يمنى) فكانت قد وصلت بالفعل إلى السواد المقصود بعبارة
(فكتور) على أكثر من قناة، وبدأت تُكوّن صورة عامّة عن الحدث
الشاغل للرأي العام أثناء نقاشهم في أدب (فكتور)، ونسائه. كانت هناك
مشاهد لجثث، مشاهد عنف، تظاهرات، فض اعتصام، مدرّعات، ...
نعم.. كان هذا يوم الأحد ٩ أكتوبر ٢٠١١، أو ما يعرف بـ(الأحد الدامي)
أو (مذبحة ماسبيرو)^(١).



كان (فكتور) يتصفح منشورات أصدقائه على فيس - بوك في سرعة
وتوتر، حتى توقف عند منشور معين، وهو يقول:

- (مينا دانيال)..

ولم يكمل وهو يقرأ أكثر، فسألته (يمنى):

- اتقبض عليه طبعاً..

أجابها في وجوم قاطع كطلقة الرصاص:

(١) بالصدفة البحتة تمت كتابة هذا الجزء في الذكرى السادسة بالضبط للمذبحة،
وفي التوقيت نفسه تقريباً الذي وقعت فيه.



- اتقتل.

ثم همد جسده وهو يرتمي على أريكة في يأس شديد. ساد صمت جنازي قصير، ثم قال في إحباط حزين:

- أنا كنت مختلف مع (مينا) كثير.. بس ما اتصورتش أنه يموت.

ثم دفن وجهه بين راحتيه وهو يتنهد في ارتجاف ويقول:

- شيء رهيب.. رهيب.

اقتربت (يمنى)، وربتت كتفه، وقالت مواسية:

- مش عارفة أقول لك إيه.. البقية فحياتك.

ثم عادت تقول للجميع بلهجة نصف محبطة:

- كويس أنا (خلعنا) من الثورة قبل ما نشوف دا بعيننا.

ثار (فكتور) فجأة صائحًا:

- هو دا اللي بيحصل لما بنخلع.. كل دا نتيجة أن أمثالنا يسوا وقعدوا

على الكنب. لو كنا معاه، ما كانش دا حصل.

تفاجأوا جميعًا بـ (فريد) يهتف بصوت مبحوح غريب، وغضب

أغرب:

- لو هو كان معانا، ما كانش دا حصل له.

تواجهوا، (فكتور) و (فريد)، في تحدٍّ قاصف غاضب، أحدهما -

(فكتور) - محتقن الوجه، نافر العروق، مرتجف، والآخر - (فريد) -

بعينين غائرتين، شبه ميّتين، ووجه شاحب، لكن الغضب كان المشترك

بينهما، أحدهما يأتي غضبه من جحيم حمراء، أما الآخر فمن موت

أسود. ثم أشار (فريد) بقبضته المضمومة بقوة هاتفًا:



- «لو أننا استعبدنا الناس لتركونا أحرارًا» مش أنت اللي قلت كدا؟

وبآخر طاقته المفاجئة أكمل:

- لو كان قتل ما كانش اتقتل.

ثم ارتخى جسده كأنه وَتَرَ ينقطع، في حين ظل (فكتور) يحدق
ساخطًا في الموضع الذي كانت فيه عيناه بالقصور الذاتي. قال (هيثم)
عابسًا جادًا:

- اهدوا يا جماعة. ما فيش داعي للخناق.

أما (يمنى) فقد وقفت بينهم، وهي ترى كلاً من (فريد) و(فكتور)
على حق.

ثم سمعوا جرس الباب.

نظر (هيثم) من العين السحرية، وقال لهم:

- دا (منصور).

فتح الباب، فدخل (منصور) بقامته الفارعة السمراء، وسلّم عليهم،
ولم يفته الغضب والحزن العام، فسألهم:

- عرفتُم اللي حصل؟

أومأت له (يمنى) أن نعم، فقال:

- وها تعملوا إيه؟

تبادل (هيثم) و(يمنى) النظر في حيرة، وقال الأول:

- ها نعمل إيه ف إيه؟ إحنا انسحبنا من المعركة دي من بدري. وكنا
متوقعين المسار دا للثورة.



نظر إليه (منصور) جامدًا، ثم قال:

- أنا مش بتكلم عن تغيير المسار.

ثم سأل:

- أنتم عارفين أن بعض الإسلاميين اتورطوا في قتل الأقباط النهار دا؟

سألته (يمنى):

- عرفت إزاي؟

- عندي مصادر خاصة.

ضرب (فكتور) فخذه بكفه غاضبًا، وقائلًا:

- كلام منطقي. كلام خطير ومنطقي.

التفت إليه (هيثم) بضيق، ثم عاد ينظر إلى (منصور) مستفهمًا:

- وعاوزنا نعمل إيه؟

قال (منصور) بجموده المستحدَث منذ أشهر قليلة:

- نقبل عرض امبارح.

سأله (هيثم) بسرعة:

- وإيه العلاقة بالضبط؟

أجابته وهو ينظر إلى الأفق البادي من الشرفة مرتجفًا بصوت منخفض

مدلهم:

- مش عاوز أشوف للسما أي مكان على الأرض. مش عاوز تبقى فيه

أرض لسه بيتعبد فيها ربنا.



٤ - مَشْهَدٌ مِنْ دِيْفِيدِ لِيْنَشْ

ساد صمت طويل نسبياً بعد عبارة (منصور)، التي وقعت رغم عدم ارتفاع صوته كدمدمة، حتى خُيِّلَ إلى (يمنى) أن سحَّباً سوداء قد انعقدت فجأة فوق رءوسهم. كان (هيثم) أول من اتخذ رد فعل، فتناول هاتفه المحمول، وطلب رقمًا ما، وحين رد قال:

- (سلمى).. أنتِ فين؟

ثم التفت إلى (يمنى) في مفاجأة سيئة، وهو يهتف:

- في التحرير؟!

فشجبت (يمنى)، وهي تقول في خوف:

- التحرير فيه مطاردات.

قال (هيثم) لـ(سلمى):

- بتعملي إيه ف التحرير؟ اطلعي حالاً..

ثم انقطع الاتصال بغتة. فحاول (هيثم) مرتين أو ثلاثاً، ثم ألقى بالهاتف في سخط على أريكة، وقال لـ(يمنى):

- البت ف التحرير. راحت ليه المجنونة؟ تليفونها شكله فصل شحن.

قالت (يمنى):

- لازم تروح لها.

قال مفكراً في عصبية:

- الساعة دي الطريق ها ياخذ وقت. لازم أشوف حد قريب منها،

ويعرف يطلع بها. بس هي فين بالضبط؟



هنا انطلق رنين هاتفه، فالتقطه سريعاً، ووجد رقمًا غريبًا، لكنه حين رد وجد (سلمى) تحدثه، فقال:

- بصي.. اطلعي عند قهوة (...) واستني هناك. الطريق ملبش، وأنا ها أبعت حد ياخذك. تمام؟

ثم اتصل برقم آخر، وقال:

- ألو.. أيوا يا (محسن) بيه.. صاحبة بنت أخويا عند (...) القرية من ميدان التحرير. ابعت حد من فضلك علشان يروّحها. متشكر. ها أبلغه سلامك. مع السلامة.

ألقي بالهاتف مرة أخرى، ورأى (يمنى) تتابع الأحداث على الشاشة، فصاح غاضبًا:

- اقفلي الزفت دا.

ثم التفت إلى الباقيين، وبدأ أنه ينقلب إلى وجهه المسيطر العاصف، وهو يصيح بهم بصرامة:

- ومش عاوز كلام في الثورة والزفت. ما حدش يتكلم إلا لما الكل يهدا.. والوضع يهدا.. و(سلمى) تروّح.

ثم التقط أنفاسه، وبدأ أنه يكبح غضبه، وأشار إلى (يمنى) بلهجة أهداً:

- واعملي القهوة لو سمحت.

وتردد لحظة، ثم اتجه معها إلى المطبخ، وهو يغغم:

- أنا جاي معاك أشوف أكل.



وغابا في المطبخ، في حين قال (فكتور) لـ(فريد) بلهجة أهدأ بدوره:
- قوم خذ لك حمام وغير هدومك. كأنك بقى لك أسبوع ف الشارع.
وسحب (فريداً) في رفق، فتوكأ عليه نوعاً حتى باب الحمام، وأتى
له ببعض الثياب ومنشفة. ومرت ساعة أو أكثر، تناولوا فيها طعاماً سريع
الإعداد، وحين انتهوا ارتفع رنين جرس الباب، ففتح (هيشم)، ورأى
(سلمى)، فأدخلها مندهشاً أنها جاءت بدلاً من أن تعود إلى بيتها، وهو
يصيح بها:

- كنتِ بتعملي إيه يا (هانم) في التحرير؟ إحنا مش قلنا ما فيش أي
مشاركة لنا في اللي بيحصل؟

شحب وجهها في خوف أمام غضبه، وقالت:

- شغلي. كنت باخد صور وبعمل ريبورتاج.

هدأ حين رأى خوفها، فأشار لها قائلاً:

- ادخلي. اتغديتِ الأول؟

- أيوا.

ودلفت إلى الصالون، وقد تلاشى خوفها، وإن بقي تعبير (الطفلة
الخاطئة) الشهير على وجهها. وحين مرّت في الصالون لاحظت ملامح
(فريد) المنهكة الضائعة الغريبة. حدّقت فيه بنظرة جانبية فضولية،
فرأته ينظر إليها في ثبات نظرة لم تفهم معناها، لكنها بدت لها كنظرات
الوحوش، وهي تتطلع إلى المتفرّجين عليها من خلال قضبان أقفاصها
كفرائس مستحيلة. لم تسأل نفسها كثيراً، وجلست.



كان (فكتور) قد انتهى من إعداد الشاي، فسأل (سلمى):

- أعملك شاي؟ ولا.. أعتقد الشاي خلص.

- فيه بيرة؟

قال (هيثم) لـ (فكتور):

- هات لها يا عم بيرة.

ثم وقف وسط الجميع، واضعاً يديه في خصره، وقال لهم:

- عاوزين نفهم بهدوء الموقف.

ثم تأمل (فريداً) لحظة، فبدا له لم يزل منهكاً وغائباً بدرجة ما عن الوعي الكامل، فقال:

- أعتقد نقعد شوية في البالكون. الجو هنا مكتوم وكله دخان.

جلسوا في الشرفة، وبدأت (سلمى) في شرب البيرة في براءة، كأنها طفلة ترضع، أما (فريد) فقد طلب معطفاً؛ لأنه لا يطيق البرد كما قلنا. وحين استقر المجلس سأله (هيثم):

- عاوزين نبدأ بك. إيه اللي حصل لك؟

نظر إليه (فريد) بنظرة تحمل مزيجاً غريباً من التيه والثبات، ربما تحمل استغراباً متوجساً، كأنه يراه للمرة الأولى، ثم قال ببطء:

- متأكدين أنكم عاوزين تعرفوا؟

نظروا إليه مستغربين. وقال (هيثم) بعد لحظة صمت وتساؤل:

- آها.. يا ريت حضرتك تحكي لنا.



نقل (فريد) عينيه بين وجوههم في بطاء، ثم قال بصوته المرهق:

- النهار دا صحيت قبلكم. طلعت للبالكون هنا. بصيت على العالم. اكتشفت إنه مش حقيقي.

حدقوا فيه بدهشة وتساؤل أكبر، وابتسمت (يمنى) ظناً أنه يمزح أو يقدم استعارة ملتفة، ثم تبددت بسمتها على جدية ملامحه الجامدة. استمر صمت (هيثم) لحظات، ثم قال:

- الصلا ع النبي.

واعتدل في جلسته ليوأجهه بمباشرة أكبر، وهو يسأله في صبر:

- يعني إيه مش حقيقي يا فيلسوف؟

رد (فريد) في اشمئزاز لم يبدُ مبرراً:

- دي النقطة اللي بتنتهي عندها الفلسفة..

والتقط السيجارة التي أشعلها له (فكتور) مردفاً:

- .. والعلم.

حدق فيه (فكتور) في ثبات متسائل، لدرجة أن يده التي ناولته السيجارة ظلت على وضعها، ثم سأله:

- أوكي.. طيب برضه مش حقيقي إزاي؟

قال (هيثم):

- أنت كنت محشش من ورانا؟

هزّ (فريد) رأسه وهو يمتص الدخان نفياً، وقال:



- كنت شايف كل شيء زي ما هو في الواقع. كان فيه واقع. زي ما أنتم شايفينه. لكنه في اعتقادي مزيف. الكلمات نفسها معروفة الدلالات، لكنها عندي دلالات مصطنعة. العربي والفارسي بالنسبة لي زي لغتين أجنبيتين لسه متعلمهم امبارح.

ثم التقط نفساً آخر من السيجارة قائلاً في موضوعيته المعهودة:
- دي حالة اسمها في الطب (التزييف). البعض بترجمها (تبدُّد الحقيقة).

قال (فكتور) وقد نسي أن يشعل غليونه:

- دا بيحصل مع الحشيش.

أوماً (فريد) إيجاباً وهو يقول:

- صحيح.. لكن لما بيحصل من غير حشيش يبقى له معنى مختلف..

وأسقط رماد سيجارته، وهو يستأنف حاسماً:

-.. الفصام.

قالت (سلمى) بصوتها الطفولي، وقد بدأت تدوخ من الكحول:

- يعني إيه فصام؟

نظروا إليها دون إجابة عدا (هيثم)، الذي قال كأنما يحدث طفلاً:

- دا موضوع ها أبقى أحكي لك عنه بعدين.

ثم التفت إلى (فريد) قائلاً في جدية:

- وليه فصام بالضرورة؟ مش ممكن يكون تأثير السكر؟ أو.. أو

بسبب الشرب والتحشيش بشكل عام..؟



قاطعة (فريد) في إنهاك، وهو يهز رأسه ببطء نفياً:

- لأ. بعد ما لاحظت دا رجعت لشقتي، وطالعت كام مرجع. في حالتي بيعني بداية فصام. أنا مش بغلط.

أسند (هيثم) رأسه على معصمه المستند بدوره على ركبته في تفكير، أما (فكتور) فقال بعد لحظات:

- طيب.. ودا مش له علاج في حالتك؟

حاول (فريد) أن يضحك ساخرًا، لكنه سعل بدلاً من ذلك بصدر مكدود، وهو يقول:

- ممكن. بس هل أنت متصور أن حد زيي ها يقبل يتعالج؟

قالت (يمنى):

- طيب وإيه سبب البهذلة اللي كنت فيها دي؟

ارتفعت عينا (فريد) إلى الأفق الواسع المظلم خلفها، وهو يقول:

- خرجت بعد كدا من شقتي. ركبت تاكسي للمعادي، لكن ما كنتش قادر أستحمل. نزلت في ميدان (الرماية)، ومشيت. مشيت كثير. لغاية هنا. من غير أكل وشرب. ما كنتش بشرب غير سجائر. وشربت علبتين.

ساد الصمت المندesh من جديد، ثم قال (هيثم):

- وبعدين؟ الحالة لسه موجودة؟

تأمل (فريد) الأشياء، ثم قال:

- أول ما غابت الشمس غابت الحالة. أعتقد زي ما في كثير من



الحالات - أنها مرتبطة بجو معين .. بالنهار المغيم في حالتي . منظر السما المقفولة، المضيئة ببرود، منظر شرير بالنسبة لي .

كانت (سلمى) تتابعه في صمت بعينين متسعيتين خوفاً، كأنها تشاهد فيلم رعب، وقد خلطت بشكل ما بين الراوي والرواية، فبدا لها هو نفسه شريراً مخيفاً. أما (يمنى) فقد انتقلت في عنف من مشهد (تارانتينو) السابق قبل ساعة ونيف إلى كابوس من (ديفيد لينش)، وقالت:

- والحالة دي.. تفتكر يعني.. ها ترجع تاني؟

أوماً لها إيجاباً، وهو ينفث دخانه صامتاً، ثم اعتدل قليلاً، وهو يقول:

- حتى الانتحار بقى مختلف. أصبح مصير، مش مهرب من مصير.

نظر إليهم (فكتور) وقد عدل عن فكرة إشعال غليونيه مؤقتاً، وقال:

- كدا بقى عندنا انتحارين: انتحار الاكتئاب وانتحار الفصام.

نظر إليه (فريد) بقدر مفاجئ من الحدة وهو يقول:

- بس انتحار الفصام مختلف، وأثره على العالم كمان مختلف.

ثم أضاف في اشمئزازه غير المفهوم، وهو يلقي نظرة عامّة على الوجود:

- رغبتني في القتل كان سببها إرجاء الانتحار؛ لأنها علاج مؤقت للاكتئاب. لكن حالياً أصبح لها هدف هو التخلص من العالم المزيف.

ثم التقط نفساً أعمق وأسرع من السيجارة قائلاً:

- حتى جسمي نفسه مزيف، ويستحق التدمير.

بالنسبة إلى (يمنى) و(منصور) و(سلمى)، الذين لا يعرفون (فريداً)



كما يعرفه (هيثم) و(فكتور)، بدا الحوار غريبًا؛ فبالإضافة إلى غرابة المحتوى لم يتوقعوا يومًا من (فريد) أن يكون مفصّلًا عن مشاعره واعتقاداته إلى هذا الحد. وبدأ لهم أقل غموضًا، لكن أكثر إثارة للتوجّس والرهبة، وأعسر على التوقع برغم ذلك!

عاد الصمت يلفّ المكان، وجميعهم يرمقونه في حيرة، ويحاولون تصوّر ما يقول، ثم قال (هيثم) لـ(فكتور)، وهو يستدعي حوارهما السابق عن الأدب:

- الواقعية العدمية، أو عدم الواقع.

فوزّع (فكتور) نظراته بينه وبين (فريد) في شيء من الدهشة دون أن يتكلم، ثم ازدرد (هيثم) لعابه بصوت مسموع، وهزّ رأسه بشكل مبهم، وقال للجميع:

- أوكي.. أنا شايف نرجى الموضوع دا دالوقت. (ثم لفكتور) اتصلت بأسرة (ميناء) زي ما قلت؟

انتزع (فكتور) نفسه من حيرته، وقال في غضب:

- اتصلت بحد يعرفهم. قالوا مش ها يقدموا بلاغ للنائب العام.

سألته (يمنى):

- ليه؟

لوح بيده استنكارًا وهو يقول:

- مش عارف. أظن علشان بيعتبروه شهيد.

أتاهم صوت (منصور)، الذي ظل صامتًا طيلة هذا الوقت، وهو يغمغم في حقد لا يخفى:



- دالوقت روحه ها تتحسب لصالح ربنا.

نظروا إليه في تساؤل، فصدهم بمزيد من الجمود، وهو يقول:

- لو كنا إحنا اللي قتلناهم.. مش كانوا اتحسبوا لصالحنا؟

لم يبدُ على أحدهم الفهم سوى (فريد)، الذي أوماً إيجاباً ببسمة ساخرة. ولم يطق (هيشم) شعور الجهل، فسأل (فريداً) و(منصوراً) في عصبية:

- يعني إيه؟ مش فاهم.

قال (فريد) وهو يدفن سيجارته:

- يعني لو كنا إحنا اللي قتلنا (مينا) ما كانش ها يبقى شهيد؛ لأن ما فيش هنا قضية عامة. كل شهيد عمود من أعمدة السما ببساطة. ثم اعتدل مضيقاً بالبسمة الساخرة نفسها:

- وما تنساش أن الدين بشكل عام كان سبب في اللي حصل النهار دا. دم الشهدا بيصب في شرايين الآلهة.

أعجب المجازُ (فكتور)، ففكر لحظة متأملاً، وهو يقول:

- لو كنت أنا اللي قتلت (مينا)..؟

ثم مطَّ شفتيه، وهزَّ رأسه، قائلاً:

- كانت وفاته ها تبقى أقل مأساوية.

ثم هز رأسه مرة أخرى كأنما ينفض عنه الصورة، وراح يحاول إشعال الغليون، قائلاً:



- ما أقدرش أتخيل أنني أقتله بصراحة؛ لأنني كنت معجب به.

ثم نفث الدخان، وراح يلوح بالغليون، وهو يتابع:

- لكن صحيح.. صحيح بشكل عام إن اللي بنعمله في عملياتنا أقل مأساوية. موت غير مجيد لكنه أقل إثارة للحزن، أخف على النفس الخاصة، أقل تسببًا في الاكتئاب للنفس العامة، الاكتئاب اللي حصل النهار دا بين كل جموع الثوريين.

قالت (يمنى) بصوت غائم:

- والاكتئاب اللي ها يزيد لو وصل الإخوان للحكم.. زي ما قال (أدهم درويش).

قال (فكتور):

- ها تبقى كارثة للأقباط، والعلمانيين، والعجايز، واليسبيانز، وكل الأقليات.

سمعوا (فريدًا) وهو يقول بلهجة غامضة نصف ساخرة:

- اطمّنوا.. كل دا مش حقيقي. كل دا «لعب ولهو».

لم يفهموا كامل مراده، لكن (هيثمًا) قال في عصبية:

- لا.. أنا مش مصدق إن الإخوان ها يوصلوا الحكم.. أغلب تيارات الثورة حاليًا ضدهم بسبب تفاهماتهم مع المجلس..

قاطعها (فريد) بتقريره القضائي:

- ها يوصلوا، ودي قضية مغلقة.

نظروا إليه بقدر من الدهشة، و(يمنى) تسأل:



- ليه بتقول كدا؟

هز رأسه، وهو يخفضه ناظرًا إلى الأرضية، وصمت لحظة، ثم رفع إليها عينيه، وقال:

- حِلَمْتُ.

مما فجر المزيد من حيرتهم، فعادت (يمنى) تسأله:

- وحضرتك مكشوف عنك الحجاب؟

تفكر لثوانٍ، قبل أن يقول:

- مش عارف. لكن حلمت بدا امبارح. وأحلامي اللي بتتحقق بشوف فيها علامة مميزة. ودي شفتها بوضوح ف الحلم.

سألته (يمنى) مرةً ثالثة، وهي تشعر بسخافة الموقف:

- علامة إيه بقى؟

تجاهل نبرة التهكم التي تسربت إلى صوتها، وهو يتأمل في الفراغ، ثم رفع إليهم عينيه، وقال كلمة واحدة، وجسده يرتجف في رهبة مع صوته:

- النار!

قضى انفعاله على تهكّمها، وهي تردد:

- نار؟!

نظر إليها مباشرة، وقال بالرجفة نفسها، وخوف غريب يجتاح عينيه المتسعيتين:



- .. بس مش أي نار. نار كأنها مش من عالمنا. نار لا بتحرق ولا بتسخن.

ثم أضاف هامساً في فحيح، وقد تحول الخوف في مقلتيه إلى شرّ غاضب دافع:

- نار مخيفة!

تعلّقت يد (فكتور) الممسكة بالبايب في الهواء وهو يحدّق في الكلام، الذي بدّاه رهيباً، في حين تبادل (هيثم) و(يمنى) نظرات صامتة خاوية. وساد صمت أطول وأثقل من سابقه، لم تقطعه سوى (سلمى)، وهي تقول:

- (هيثم).. أنا تعبانة، وعاززة أروّح.

نظر إليها لحظة ليتخلّص من تأثير كلام (فريد)، ثم قال:

- لا أنتِ مش ها تروّحي النهار دا؛ الطريق مش أمان.

- وبابا؟

- ها أتصل به كأني رئيس التحرير، أو ها أتصل برئيس التحرير- وأخليه غصب عنه يقول لوالدك أنك ها تبيّتي مع زمايلك في الجرنال؛ بسبب خطورة الطريق. كلام نهائي.

نهضت لتتمطّى على عجالة، وهي تقول:

- أوكي.. أنا ها أنام.

وخرجت من الشرفة، بينما بدأت (يمنى) تجمع الأكواب الممتلئة قائلة، وقد شعرت برغبة لم يمكنها فهمها بالضبط في الفرار من الموقف:



- أنا ها أعملكم شاي تاني؛ علشان نسيتموا تشربوه لما برد.

قال (هيشم) لـ (فريد):

- أنت تعبان. رأيي تنام أو تستريح، وتبطل تفكير الليلة.

ثم التقط معصم (فكتور)، وقال:

- أما أنت فتعال. عاوز أعرض عليك نصّ كتبه.

وخرجا من الشرفة. وكان هدفه الحقيقي هو قطع الطريق على (فكتور) و (فريد) أن يفتحا نقاشًا يستنزف الأخير. وبقي فقط (منصور) و (فريد) متواجهين، بينما تجمع (يمنى) الأكواب الممتلئة الفاترة.

ألقي (فريد) إلى (منصور) نظرة طويلة باردة، ثم ابتسم في إرهاب ابتسامة ضئيلة جدًا، قائلاً:

- مش عاوز يا أستاذ يبقى فيه مكان للسما على الأرض (؟)

لم يفهم (منصور) إن كان هذا سؤالًا، فارتبك لحظة، خاصة مع اللقب الذي استعمله (فريد)، لكنه أشار برأسه نفيًا ببطء وتأكيد، قائلاً:

- لا.

فاتسعت ابتسامة (فريد). ولم يفت (يمنى) ما فيها من راحة وإنهاك معًا ممزوجين بلمسة من الفخر. ثم طرأ لها أنها تلك الابتسامة نفسها، التي تميز الأم بعد الوضع.





الفصل الثامن

المحور

١- عالم سلمى أو المحاور الثلاثة

استيقظ (فريد) في صباح اليوم التالي مبكرًا بشقة (هيثم)، وجلس - مع كوب القهوة - يدخن السيجارة الصباحية مستعملاً (اللاب-توب) الخاص بهذا الأخير لكتابة مقال علمي من مقالاته إياها، التي يرسلها لبعض المواقع والمجلات، ومستغلاً في الوقت ذاته الجو الهادئ قبل استيقاظ أي من رفاقه. وظل يعمل لبعض الساعة، إلى أن سمع أحدهم آتياً. انتبه إلى (البقعة العمياء) في دائرة بصره دون أن يلتفت، فعرف أنها (سلمى).

ثم مرت (سلمى) أمامه إلى المطبخ، فشعر تلقائياً بمزيج متناقض من الكراهية والراحة. وسمع ضوضاء إعدادها فيما يبدو لقهوة أو شاي. وبعد دقائق رآها مقبلةً، وتقول:

- صباح الخير.

رد تحيتها بشكل روتيني، أما هي فجلست أمامه على الأرضية مباشرةً، وظهرها يستند إلى زجاج الشرفة المغلقة، في ضوء الشمس القادم عبره، وقد وضعت كوب قهوة، يتصاعد منه بخار حالم، بين فخذيها العاريتين. كانت ترتدي (بلوزة) قصيرة فقط بساقين مكشوفتين،



فبدا منظرها لـ (فريد) كأنها نامت مع أحدهم، لكنه استبعد ذلك؛ فليس في الدار رجل غيره سوى (فكتور) و(هيثم)، وليس بينها وبين أحدهما - حاليًا على الأقل - استعداد من هذا النوع. تأملها لثانية، ثم عاد ينظر إلى عمله. قالت بصوتها الطفولي المبحوح:

- لسه تعبان؟

نظر إلى الشمس الممددة بينهما على السجّاد في كسل، وإلى ظلها الذي ينظر إليه متسائلًا، وقال:

- لا.

فأشعلت سيجارة في هدوء، وقالت:

- تعرف أنني اتمنيت دايماً أنني ما ألبس غير بلوزة الصبح؟

نظر لها لحظة في برود، ثم قال وهو يلتفت إلى شاشته:

- أعتقد دا تصور محبب لكثير من البنات في مجتمعنا.

- دي أول مرة أعملها.

نظر إليها مرة أخرى، ولاحظ ما بدا عليها من سعادة طفولية وهي تقول ذلك، وفكر أن الطفولة لا تزول من المرأة مهما نضجت، وضاجعت، وقتلت، أو أننا نتحول مع السعادة بدرجة ما إلى أطفال. لكن هذه اللمحة من الطفولة تحديداً نقلته إلى فكرة أخطر: لقد أحب في (سلمى) طفلة معينة، هناك طفلة ما تحت جلد (سلمى)، لا تكبر، تُشعر الناظر إليها بأن أمراً ما خطأ؛ لا يعرف إن كان ينظر إلى طفلة أم امرأة، هناك تلك الملامح، التي قلما تفعل، والحاجبان المستقيمان الدائمان، مما يكسبها براءة واضحة، لكنك تتشكك فيها، حين تسمع كلامها، أو ترى ردود



أفعالها. وعلى العكس تبدو محاولاتها للإغواء في كل الحالات محرمة وخطرة؛ حين تصدر عن كل هذه الطفولة الأصيلة. لقد أحب طفلة ما في (سلمى)، وضاجعها! استبشع النتيجة، وفي مكان عميق من عقله ومضّ مصباح أحمر نادرًا ما يضيء.

التقط سيجارته من حافة المطفأة شاردًا، وقال:

- غريبة!

- ليه؟

انتبه مستعيدًا موضوع الحوار، واستأنف:

- يعني.. ما حصلش أنك قضيتي ليلة بعيد عن أسرتك؟ دا بافترض أنك ما تقدرش تعملي كداف بيتكم.

- خالص.

ثم جرعت بعض القهوة، وقالت:

- أنت عارف..؟ دايمًا حاسّة أن جسمي موش حر برغم إنني مارست علاقات.

نفث الدخان، وقال دون أن ينظر إليها ببساطة:

- طبعي.. لأن ليك أكثر من جسد.

رمقته لحظة في دهشة، وقالت باهتمام:

- إزاي؟

- الجسد يشكّل المحور الرئيسي لوجود المرأة إلى حد كبير..



ثم بحث عن كلمات أبسط، وقال:

- يعني الجسد بيمارس دور أكبر في سلوكها في المجتمع، ومع نفسها، وقدام الإله، إذا كانت مؤمنة بإله، مقارنة بالرجل.

- ليه؟

- أعتقد السبب هو الرجل؛ الرجل ينظر للمرأة كجسد قبل أي حاجة.

ضمت ركبتيها إلى صدرها متلاصقتين، كاشفةً بطن فخذيهما الناصعتين في الضوء، بالإضافة إلى القطعة الداخلية، فتذكر (فريد) تلقائياً مقطعا لـ (أمل دنقل) يصف مشهداً مقارباً، وسمعها تسأله في براءة تخفي مكرّاً صعباً على الكشف:

- وأنتَ بتنظر لي كجسد؟

- أنتِ فيكِ مجموعة من النقائص المتآلفة، زي أي عمل فني فائق الجمال. والجمال الحقيقي مش هو القائم على التناسب والتناظر زي تماثيل الإغريق أو موسيقى (موتسارت)؛ لأنها بعد فترة قصيرة من التلقي بتبقى مملة ومكررة. الجمال الأعماق هو المركب، وهو اللي بيتضمن توفيق التناقضات في وحدة أعلى، ويفضل محور التأليف بين النقائص فيه دائماً محلّ للاكتشاف. أنا بنظر لك كدا، يعني مش بس جسد.

ثم التفت إليها قائلاً في موضوعية تامة، وهو يراها مبتسمة لامعة العينين:

- وفي رأيي أنتِ مش بس جميلة، بل معيار للجمال.

ثم أخذ نفساً من السيجارة قائلاً، وهو يضيق عينيه اتقاء الدخان:



- فاهمة حاجة؟

التفتت إلى ظلها، الذي هزّ رأسه ببطء، وهي تقول ببساطة:

- لأ.

وتأملته لحظة، وقد بدا لها أكثر غموضًا، وتناقضًا، وعادت تسأله، وهي تفرد ثم تُقاطع ساقها؛ لتحضن الكوب الساخن بفخذيها:

- وإزاي ليا أكثر من جسد؟

مط شفتيه، وقال دون أن ينظر إليها، وهو يكتب ببطء على لوحة المفاتيح:

- أولاً: المحور البدني: يعني جسمك اللي له طول ووزن، وهو ذا الظاهر لكنه مش اللي بتتعامل معاه غالبًا غير في الحمام أو العملية الجنسية. ثانيًا: المحور النفسي: يعني صورة جسمك في وعيك، ودي لا بدّ أنها تكون مختلفة عن الجسد البدني بدرجة ما، ويساهم كل الرجال اللي عرفتهم في صياغتها، وكذلك المجتمع ككل. وثالثًا: المحور الاجتماعي: يعني تصوّر المجتمع عن جسد المرأة بشكل عام. لما رجل الدين مثلاً يقول «اتحجّبي» هو هنا بيتعامل مع الجسد الاجتماعي. لما أنت بتقولي «جسمي غير حر» أنت بتتعامل مع الجسد النفسي. لما راجل ينام معاك بيتعامل هنا مع الجسد البدني. أنت حرة على المستوى البدني؛ لأنك بتمارسي علاقاتك بحرية، لكن مش حرة على المستوى الاجتماعي؛ لأن المجتمع يفرض قيود على جسمك، زي منع أسرتك ليك أنك تلبسي بلوزة بس، ونظرًا للتداخل بين الجسدين الاجتماعي والنفسي فها تلاقي أنك مش حرة على مستوى الجسد النفسي، رغم أنك بتمارسي علاقات مفتوحة.



والتفت إليها، فوجدها ترمق كلامه في الهواء وهي تضيق عينيها كمحاولة للتركيز، فبدت له بأهدابها الطويلة كقطة نفخ أحدهم في وجهها، قطة ذات عينين مختلفتي اللون. كانت تفكر أن هذا البناء النظري المشيد له هدف واحد؛ هو أن يعزل نفسه عنها بأسوار عظيمة من العقل، لدرجة أنه حتى حين اعترف بجمالها، بل حين اعتبرها منذ لحظات معيارًا للجمال، لم يعبر عن ذلك سوى على هيئة معادلات صورية بحتة. التقط نفسًا من السجارة، وهو يتابع:

- لكن وارد أن يكون فيه سبب إضافي وأهم لإحساسك بعدم الحرية على مستوى الجسد النفسي.

واجهته بنفس مقابل من سيجارتها قائلة:

- اللي هو...؟

تأمل سيجارته، وهو يقول:

- استتاجي يقول إنك بتحسّي بالحرية الجسدية في (العمليات) إياها.

أومأت برأسها باهتمام قائلة:

- آه.. صح.

- دا برضه طبعي.

ظنته سيكمل، لكنه اكتفى بذلك، وعاد إلى ما يقوم به، فنهضت لتلقي بسيجارتها في المطفأة جواره، ثم انحنت عليه في خفة، واضعة ركبته اللامعة على فخذه، وهي تقول في شقاوة:



- هو أنت كل حاجة عندك «طبيعي»؟

رمقها بنظرة باردة، وبدت له فاتنة بصدرها الحرّ البارز تحت البلوزة الخفيفة، لكنه أدرك كذلك أنها لم تعد قادرة على اختراق ثلوجه حتى بصدري عارٍ. وقال في اقتضاب:

- لأ.

والتقت نظراتهما لثوانٍ، فرأى ما توقعه في عينيها: تلك اللمعة النارية العميقة المختبئة تحت نظرات الإغراء الناعمة. وللحظة - ولدهشته - استشعر منها خوفًا!

ثم سمعا فجأة صوت (هيثم) قادمًا إلى الصالون، وهو يقول:

- صباح الفل.

تثاءب، ثم أردف:

- أنا كنت سامع كلام كبير كذا عن حقوق المرأة باين..

اتجهت إليه (سلمى)، وتركت قبلة على خده، قائلة:

- صباح الجمال.

ثم تعلقت بدلال بعنقه ناظرةً إلى (فريد) فيما بدا له نوعًا من محاولة الإغراء المبتذلة، فظل ينظر إليها كإنسان آلي بلا مشاعر. قالت لـ(هيثم)، وهي تعدّ على أصابعها:

- اكتشفت إن ليا.. ٣ أجسام.

قال (هيثم):

- مبروك.. عاوز قهوة.. وشوفي القتيلين اللي جوا.



ردت في نعومة، وهي تنسحب إلى المطبخ كوشاح من الحرير ناظرة إلى (فريد):

- أمر مولاي.

فلاحظ - في موضوعية - أن محاولتها تلك لم تعد متبذلة إلى ذلك الحد.

تناول (هيشم) سيجارة من علبة (فريد)، وقال، وهو يهرش إبطه:

- عاوزين نشوف لـ (فكتور) بنت غير (مارلين) دي.. ولا (نرمين).. اللي معاها دالوقت.

- (كاترين).

- آه.. هي. البنت جابت له اكتئاب.

- زي قلّته.

- ليه؟

أجابه وهو يعود إلى عمله على اللاب-توب:

- (فكتور) مدمن نسوان. شفت مدمن بيستريح بتغيير المخدّر؟

هز رأسه، وهو يقول:

- آه والله الواحد غلب معاه.

وجدا (فكتور) يعبر الصالة في تلك اللحظة متجاهلاً لهما، وفتح الشرفة في ضيق بادٍ، ليدخن في الخارج. قال (هيشم):

- طيب ما فيش «صباح الخير»؟



لم يرد (فكتور)، فاتجه إليه قائلاً:

- أنت يا جدد أنت ..

قاطععه (فكتور) في جدية، وهو يلتفت بجسده إليه نافثاً دخانه:

- عاوزين نشوف النهار دا هنعمل إيه مع عرض (درويش).



٢ - المحوران

جلس (هيثم) كالعادة على رأس مائدة الاجتماعات في الغرفة المخصصة لذلك بشقته، وعن يمينه (فريد)، وعن يساره (فكتور)، وافتتح بقوله:

- زي ما أنتم عارفين: موضوعنا النهار دا هو تحديد موقفنا من العرض المقدم لنا من الرائد (أدهم درويش). وقبل أي شيء عاوز أطرح نقطة مهمة: هي أنني لاحظت اتجاه لتسييس نشاطنا، ودا مخالف بوضوح للمبادئ الأربعة اللي اتفقنا عليها في اجتماع أسبق. الكلام عن تورط الإسلاميين في اللي حصل عند ماسبيرو، حتى لو صح، المفروض أنه لا يؤثر على قراراتنا؛ لأننا أكدنا قبل كذا إن دوافع النشاط شخصية.

رفع (منصور) يده ليطلب الكلمة، ثم قال متوتراً؛ لأنه لم يتعود الكلام أمام مجموع:

- بعد إذنكم .. أنا صحيح اتكلمت عن دا امبارح، بس ما كنتش بتكلم من منطلق سياسي.

رد (هيثم):



- أنت قلت ما معناه إنك عاوز تقضي على عبادة الإله في الأرض،
ودا أنا أعتقد أنه مخالف لمبدأ حظر النشاط إلا لأسباب شخصية. ولّا
أنتم رأيكم إيه؟

التفت إليه (فريد)، وقال وهو يجرع قهوته:

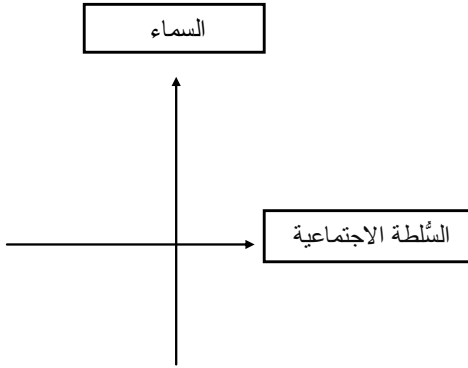
- رأيي أن اللي قاله (منصور) غير مخالف لمبادئنا؛ لأن الموقف من
السما موقف شخصي، لا دخل للسياسة به.
قالت (يمنى):

- طيب ما ممكن حد يقول بنفس المنطق أنه هيوجّه النشاط مع أو ضد
الثورة مثلاً، وهو بيعتقد أن دا موقفه الشخصي.

أسند (فريد) ذقنه إلى قبضته مفكراً، وصمت لحظة، قبل أن يقول:

- أعتقد إننا محتاجين إعادة صياغة المبدأ دا. العمل مع أو ضد الثورة
مثلاً بيعني نوع من الثورة الأفقية: ثورة مع الثورة أو ضدها. أقصد طبعا
إن اللي بنقوم به فعلاً عمل ثوري. لكن السؤال عن محور ثورتنا دي:
أفقي أم رأسي؟ رأيي إن ثورتنا الخاصة لازم تكون دائماً رأسي؛ ضد
الإنسان، ضد السماء، ضد العالم، ضد الطبيعة.. لكن لا يمكن إنها توجّه
ضد مؤسسة أو طبقة أو حكومة مثلاً. مش ممكن تكون اجتماعية.

تردد لحظة، ثم تناول ورقة، وخطّ عليها الشكل التالي:



وقال شارحًا:

- هنا عندنا محورين ممكنين لأي ثورة: أفقي ضد السلطة الاجتماعية، ورأسي ضد السما بشكل أساسي. الأفقي اجتماعي، والرأسي وجودي. حاليًا، وبسبب زيارة (أدهم درويش) غير المتوقعة زائد أحداث ماسبيرو، إحنا واقفين بالضبط في نقطة التقاطع بين المحورين، وعلينا إننا نتحرك لفوق. وكلام (منصور) ينسجم بوضوح مع المحور الرأسي. بالتالي مش شايف أنه مخالف للمبدأ.

قال له (منصور):

- أشكرك.

فالتفت إليه (فريد) في حدة، بدت لهم غير مفهومة، و(يمنى) تقول:

- طيب أنت شايف إن كلام (فكتور) و(منصور) امبارح عن قتل (مينا دانيال) فرضًا مع أي محور؟

تضايق (فريد) قليلًا مع استعمالها للضمير المباشر. في الواقع كان



يشعر بالضيق حين تقوم أي امرأة بخطابه دون لقب، لكنه يفهم أن المطالبة بذلك في هذا السياق مستحيلة. قال دون أن ينظر إليها:

- الكلام عن قتل (مينا دانيال) على المحور الرأسي بالتأكيد.

قال (فكتور) بغليونه:

- منطقي! كان المقصود بكلامنا سحب بعض أوراق اعتماد السما من الأرض.

ردت (يمنى):

- أوكي.. في الحالة دي أنت، لو كنت قتلت (مينا) في عملية من عملياتك، تختلف ف إيه عن اللي قتله فعلاً؟ ليه زعلت علشانه؟

ثم أخذت نفساً من سيجارتها الرفيعة، وهي تقول في تبرير:

- أنا أقصد أن انفعالك امبارح برضه لازم يكون محل للنقاش، مش بآتهمك.

لوح (فكتور) بيده في غضب قائلاً:

- أعتقد دا أمر شخصي.

قال (هيشم) بصوته الجهوري محتدًا:

- لا يا (فكتور)؛ الانفعال الشديد دا مش في صالحنا، وبالذات في المرحلة الجاية؛ لأنه بيؤثر علينا كلنا وبيوترنا.

أضافت (يمنى):

- دا غير إننا بصراحة مش ها نكون قادرين على توقع ردود أفعالك بالطريقة دي.



قلب (هيشم) كَفَّيه تجاهه مؤكِّداً كلام (يمنى)، لكن (فريداً) قاطعهم قائلاً:

- فيه صيغة بسيطة يا جماعة للتعبير عن مقصود (فكتور) و(منصور) بصدد (مينا دانيال). الميِّت ميِّت في جميع الحالات، لكن القاتل مش هو هو، ولا الموت هو هو. ومع ثبات هوية الميِّت، ولكن مع تغيير القاتل، بيتغير الموت. لو أنا مثلاً كنت اللي قتلت (مينا) ما كانش ها يبقى شهيد. ثم ارتشف من فنجانه، وقال بلا مبالاة:

- تقدروا تعتبروا إننا بنقتل الشهدا قبل ما يكونوا شهدا. بالتالي بنقتل الشهادة. وفي جميع الحالات ما فيش أي مقابل للشهادة في مسار ثورة يناير، وإن توافرت لها دوافع أصيلة.

قال (هيشم) مشيراً بكفِّية رواحاً وجيئة:

- واللي ما ماتش في الثورة، ها يموت علشان ما فيش ثورة.

قال (فكتور) في عصبية رافعاً سبابته:

- أيوا.. فاهم.. بس أنا مش ممكن أقتل (مينا)، والسبب شخصي. أعتقد إذا كنت ها أقتل حد لسبب شخصي فالطبيعي إني أمتنع عن قتل غيره برضه لسبب شخصي. ومش شايف دا متعارض مع أي مبدأ لنا.

قال (هيشم) بلهجة أهدأ:

- وعلشان كذا إحنا صغنا مبدأ تاني بضرورة مناقشة كل عملية مناقشة جماعية قبل تنفيذها. أنا مش شايف خلاف جوهرى حالياً، ولكن من الضروري كذلك إننا نفهم جميعاً التالي: إننا مشينا في الطريق دا بسبب ياسنا من أي طريق تاني. يعني لو استعملنا المحاور اللي رسمها (فريد)،



ها نقول: إننا مشينا على المحور الرأسي، لَمَّا يَسُنَّا فعلاً من أي حركة على المحور الأفقي. وبالتالي ما فيش أي مبرر لانفعالات امبارح. على الأقل مش للدرجة دي.

هزّ (فكتور) رأسه فيما بدا لهم اقتناعاً جزئياً، ثم التفت إليهم واحداً بعد الآخر قائلاً في عصبية:

- وهو كذلك. أنا آسف يا (يمنى). أنا آسف يا (هيثم). أنا آسف يا جماعة.

ضحكت (يمنى) وهي تربت ظهره قائلة:

- أنت حبيبي يا (فيكو).

كما تدلله أحياناً، فقال:

- ما قلنا بلاش (فيكو)^(١).

قال (هيثم) ضاحكاً:

- مسألة إيجاد اسم دلّ على (فكتور) مشكلة عالمية ما حدش عرف يحلها في أي بلد.

قالت (يمنى) مفكّرة:

- ممكن.. (فيكي). مشكلته أنه بناتي.

رد (هيثم) مشاكساً:

(١) رغم أن (فيكو) قد سبق ماركس إلى تقديم رؤية تطويرية للتاريخ، فقد ركّز- في رأي البعض- على الإنتاج الثقافي لا المادي، ومن هنا رفض (فكتور) للاسم.



- طيب ما أنا بقولك يا (أيمن).

ضحكت قائلة:

- بس يا واد.

تابعهم (فريد) باسمًا في صمت، وهو يشعر أن هذه المجموعة عائلته بشكل ما. قال (فكتور) وهو يمتص الغليون:

- تفكروا فيه غيرنا- بسبب أحداث الثورة- ها يقفوا في المكان ده؟ أقصد نقطة التقاطع بين المحورين.

ثم تذكر شيئًا، فقال لـ (فريد) في شيء من المزاح:

- ما حلمتش بدا؟

لم يتسم (فريد) قائلاً:

- لا حتى الآن. بس توقعي إن دا ها يحصل على مرحلتين: مرحلة وصول الإسلاميين للحكم وطول وجودهم فيه، ومرحلة عزلهم.

سأله (هيثم) باهتمام:

- وليه؟ يعني ليه دا ها يحصل في حالة وجودهم مثلاً في الحكم؟

أجابه ببساطة:

- بسبب مساوئ حكمهم، وغرورهم أكثر بالقوة، ومحاولة أسلمة الدولة، كثير من الناس ها تفقد فيهم الثقة، وفيه بعضهم ها يفقد الثقة في الدين نفسه، وفيه منهم اللي ها يعلن حرب بشكل أو بآخر على الدين بما هو دين؛ بسبب المشاكل اللي تسبب فيها الدين من الطائفية واستغلال الغوغائية وخلافه.



قال (فكتور) متحمّساً:

- دا بيحصل فعلاً بدرجة ما دالوقت. فاكرين جمعة ٢٧ مايو؟ فيه منشورات اتوزّعت كانت بتكفر المشاركين فيها من قبل بعض الإسلاميين.

أضاف (فريد)، وهو يشعل سيجارة:

- ما تنسوش إننا كنّا متحمسين للثورة في البداية، حتى لو بعضنا لم يشارك فعلياً في المسيرات والتظاهرات. لكننا كنا أسرع تفاعلاً في اتجاه المحور الرأسي؛ لأننا كنا أسبق في التنبؤ بالفشل اللي بيتم على المحور الأفقي. ولو تفتكروا كانت نقطة التحول هي استفتاء مارس. وأعتقد كلنا فاكرين تعليقنا على مدى الديماجوجية الظاهرة وغير المتوقعة عند الناس، وانخداعهم بشعارات دينية. أنا فاكر بوسط طويل على فيس - بوك لـ(فكتور)، قال فيه قبل نتيجة الاستفتاء إن الحشد الديني - الإسلامي اللي حصل لتوجيه نتيجة الاستفتاء دليل على فشل الثورة.

قال (فكتور) بحماس أكثر وجدية:

- لأنه دليل على فشل الثورة الاجتماعية، وتوقف الفعل الثوري عند حدود التغيير الثقافي.

تأمل (فريد) لهب سيجارته، وقال برصانة علمية:

- ولا حتى التغيير الثقافي. لي صديق من فيس - بوك، باحث فلسفي ومدرس مساعد بقسم الفلسفة، اسمه (سمير عياد)، قال قبل عقد الاستفتاء «ثورة المعلومات منحتنا الثورة، ولم تمنحنا المعلومات». يقصد منحت الداعين للتظاهرات والاحتجاجات فرصة التنظيم مع



استغلال عنصر الإنترنت، لكنها لم تحدث أثرها على تطور الوعي بالدرجة نفسها.

قال (هيثم) ساخراً وضحكاً:

- الطبقة الفعالة سياسياً في مصر هي الطبقة الوسطى؛ لأن شريحة الـ ٣٪، اللي أنا منهم لحسن الحظ، أقلية، والشريحة الفقيرة الضخمة مشغولة بقوت يومها، ووعيتها أو اهتمامها السياسي شبه معدوم. أما الطبقة المتوسطة، الفعالة سياسياً زي ما قلنا، فهي ديماجوجية بامتياز، وبتحكمها قيم (أسامة أنور عكاشة) في (ليالي الحلمية) و(أنا وأنت وبابا في المشمش). و(طبقة عكاشة) - زي ما بأسميها - ها تؤيد بس اللي يعبر عنها: النهار دا مع الإسلاميين، وبُكرا عليهم، وها تظل مُخلصة فقط لخطاب ديني - وسطي - وطني زي الخطاب الناصري.

امتص (فريد) دخانه، واستأنف:

- ومع سوء الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية- اللي أنا بتوقعه - سواء تحت حكم الإسلاميين أو بعد عزلهم، الاكتئاب ها يعم، وكثير من الناس ها تمشي في نفس المسار اللي إحنا سبقناهم فيه بالضبط. ها يفكروا في الانتحار، وربما القتل، وها يعلنوا ثورة ميتافيزيقية بعد فشل الثورة الاجتماعية. ودي متوالية: من الثورة الأفقية إلى الثورة الرأسية، حتمية، وما فيش مفر منها، في حالة الثورات الفاشلة. وأتوقع كذلك ازدياد ملحوظ في نشاط الجماعات الإرهابية بشكل خطير جداً، ممكن يوصل لقلب القاهرة. السبب هنا، مش الوحيد، لكن الجوهرى، والأهم في سياقنا، هو تحوُّل الحركة من المحور الأفقي إلى المحور الرأسى تلقائياً، وطبقاً لحتمية شبه ميكانيكية.



قال (هيثم) وهو يسند ذقنه على راحته:

- أوكي.. طيب وفي حالة عزل الإسلاميين..؟ المفروض أعتقد يرجع التفاؤل، وترجع الحركة على المحور الأفقي - الاجتماعي. ثم أشار بيده متسائلاً:

- وبعدين لحظة.. مين قال إن ها يتم عزلهم بالضرورة؟ مش ممكن يسقطوا في انتخابات تالية مع وضوح فشلهم زي ما بتقول؟

ابتسم (فريد) في سخرية، وهو يفرك عينه بسبب الدخان، ويقول:

- دا كذلك أمر حتمي. ما فيش أي طرف من الاثنين: الإسلاميين أو النظام القديم، من مصلحته أن الإسلاميين يسقطوا بانتخابات.

قال (فكتور) ملوحًا بالبايب:

- منطقي. الإسلاميين عارفين أنهم لو سقطوا بانتخابات يبقى سقطوا للأبد، وعن طريق امتحان عادل، أو على الأقل أعدل ما يمكن في الظروف دي، وها يحاولوا يكسبوا هولوكوست جديد بعد هولوكوست عبد الناصر. والنظام القديم مش من صالحه أنه يسقطهم بانتخابات؛ لأنه ساعتها مش ها يبقى (نظام قديم).

قالت (يمنى) مشمّرة:

- والتيارات الليبرالية منقسمة على نفسها، ومش بتوصل للناس.

تنهد (فريد) قائلاً:

- الأسوأ - حسب توقعي - إن أي نظام ها يحل محل الإسلاميين ها يحاول يلعب دورهم بهدف قطع الطريق عليهم سياسيًا، بمنطق «أنا



ببيع نفس بضاعته ومش ضد الدين ولا حاجة». وتصورُ عامّة الناس عن الدين تصور ديماجوجي - رقابي بحث، يعني دوائر متحدة في المركز، مختلفة في القطر، من التحريم. وهي الدوائر اللي أقطارها ها تريد في الأغلب اعتمادًا على ديماجوجية المتدينين. ومش الدين بس هو اللي مجال لممارسة الديماجوجية، لا، دا كمان الأخلاق، ودا ظهر في تعبير (المواطنين الشرفاء) إياه في واقعة ماسبيرو. الحرية ها تُستباح باسم الدين أو الأخلاق، وها يكون دا المجال الوحيد للحصول على تأييد المواطن الشريف بدلًا من القانون والديمقراطية والسياسات الاجتماعية الإصلاحية. مش بعيد أبدًا واحدة زي (سلمى) تتمنع من دخول الجامعة مثلاً لأنها كاشفة دراعاتها. وساعة عزل الإسلاميين بالصورة دي ها يحصل إحباط واكتئاب عام، أعتقد أسوأ من نكسة ٦٧؛ لأن النكسة كانت هزيمة لثورة يوليو ٥٢، وثورة يوليو كانت حركة جماعة معينة، الضباط الأحرار يعني، وهزيمتها هزيمة لهم. صحيح أغلب الشعب أيدهم، لكن أغلب الشعب كان منفعل، مش فاعل، طول الوقت. إنما ثورة يناير أمر مختلف: إرادة جمعية، وهزيمتها هزيمة للجميع، بل وبأيدي الجميع.

تحسست (سلمى)، التي لم تعد ترتدي (بلوزة - فقط)، لا إرادياً ذراعيها، وقد اتسعت عيناها في شيء من الفزع، في حين قال (فكتور):

- اللي بنشوفه اليومين دول إن هناك حالة من تحميل شباب الثورة مسئولية التراجع الاقتصادي والأمني، ودي الأعراض الجانبية لأي ثورة كما هو معروف. لو زادت الحالة دي باطّراد، وخاصةً مع مساوئ حكم الإسلاميين، أعتقد كلام (فريد) ها يتحقق بالتأكيد؛ لأن جيلنا ساعها ها يتملكه شعور الشهيد اللي كفر به قومه. والشهيد اللي بنكفر به مشروع كافر، وأخطر بكثير من الكافر الأصلي أو النبي الكاذب.



تنهدت (يمنى) بدورها قائلة:

- يعني إحنا ضايعين ضايعين.

مطّ (فريد) شفتيه، وقال بعينين لامعتين:

- إحنا؟ لأ. إحنا أقدر على التوقع، وأبعد نظرًا، وعارفين عدونا الحقيقي، وبنحقق اللي عاوزينه أسرع من أي حد، وأكفأ من أي حد، لدرجة استعانة جهاز مخابرات بنا.

قال (هيثم) وهو يمسخ جبهته في قدر من التعب:

- طيب ودور الغرب في الموضوع..؟ يعني هل الغرب ها يدعم وجود الإسلاميين في الحكم؟

أطلق (فريد) ساخرًا ضحكة صامتة، وهو يقول:

- من الناحية دي اطمئن. الغرب أصلاً بيدعمهم من فترة. وبمناسبة (سمير عياد) قرئت له مرّة برضه على فيس - بوك إن واحدة من أشهر وأكبر المنح الدراسية الممولة من الخارج في مصر بيحصل عليها الإسلاميين كل سنة بنسبة ٧٠-٨٠٪، وأغلبهم من الإخوان المسلمين^(١).

نظر (فكتور) إليه مصدومًا، وقال:

- يا نهار أسود! يعني حتى المنح اللي المفروض أنها بتعتمد على لجان تحكيم خارجية محايدة؟

قالت (يمنى) غير مصدقة:

(١) هذا حقيقي. ولكن (فريدًا) لن يذكر اسم المنحة حتى أمام أصدقائه دون توافر دليل مادي.



- طيب وإيه مصادره؟

عاد (فريد) يمط شففيه قائلًا:

- بيقول أنه أولاً شاف دا بنفسه؛ لأن كانت له تجربة مع المنحة دي،
وثانيًا بعض العاملين الأجانب بالمنحة أكدوا على الملاحظة دي، وإن دا
الوضع كل سنة.
سألته:

- طيب معلى اسمها إيه المنحة؟

أشاح ببصره قائلًا:

- للأسف ما فيش دليل يمكن الرجوع إليه في الموضوع غير شهادته
اللي قلتها، وبالتالي اعفيني من ذكر اسمها.
فتبادلوا النظر في صمت، ثم قال (فكتور) مداعبًا ذفنه بغليونه كأنه
يتذكر:

- فيه كتاب صدر من سنة، تفسير جديد للقرآن، أو بالأحرى منهجية
جديدة لتفسير القرآن لـ (أبي يعرب المرزوقي). عنوانه «الجليّ في
التفسير». الكتاب دا يا (هيثم) اللي كان معايا لما دخلنا الكباريه إياه في
شارع الهرم.

قال (هيثم) ضاحكًا:

- آه.. فاكّر. أعتقد إنت المسيحي الملحد الماركسي الوحيد في
التاريخ اللي دخل كباريه بكتاب في تفسير القرآن.

استأنف (فكتور) بجدية:



- أنا افكرت الكتاب دا بسبب كلام (أدهم درويش) تحديدًا. اللي لفت نظري فيه إن (المرزوقي)، وهو واحد من أهم منظري فكر الإسلام السياسي في تونس، إن لم يكن أهمهم حاليًا على مستوى العالم، وهو متعاطف مع الإخوان المسلمين بالذات، صاغ استراتيجية الإسلام السياسي في الكتاب مستبعدًا دور الشيعة وكأنهم ما لهمش وجود. ملاحظة عابرة؛ لأنني مش متخصص في الإسلاميات عمومًا، لكنها أضاءت فجأة مع كلام (درويш). أعتقد الخلاف بين الإخوان بشتى فروعهم وبين إيران أعمق من نقط الاتفاق السطحية، والمتمثلة في فكرة الإسلام السياسي نفسها. أنتم عارفين إن (راشد الغنوشي) متحمس للنموذج الإيراني، زي كتير من مفكري الإخوان والمنشقين عنهم في الواقع، لكن أعتقد إن الخلافات المذهبية أقوى في النهاية من ظروف التعاون المصلحي المؤقت^(١).

قال (فريد) مفكرًا:

- أعتقد إن علاقة الإخوان بالثورة الإسلامية في إيران زي علاقة مصر الناصرية كده بالاتحاد السوفييتي زمان. الشيعة الإمامية في إيران ولبنان بالذات مش ممكن - في تقديري - إنهم يتعاونوا أكثر من اللازم مع تيار سني في الإسلام السياسي، خاصة إذا كان على وشك الانتصار وتأسيس حكومة إسلامية - منافسة.

قال (فكتور) بحماس:

- بالضبط. ممكن يبقى فيه غزل سياسي متبادل لتحقيق مصالح

(١) للدقة كتب المرزوقي أن الإخوان المسلمين هم الأقرب لمشروعه، لكنه يعترض علي هيكلمهم التنظيمي.



مؤقتة، لكن في النهاية فيه اختلاف جوهري بين ولاية الفقيه وبين لا-
مركزية السُّنة^(١). صحيح.. والدتك كان إيه موقفها من الثورة الإسلامية؟
قال (فريد) بتحفظ:

- أُمِّي قومية متطرفة، وشايفة إن الإسلاميين استولوا على ثورة إيران،
وعندها ولاء لا ينقطع لعهد الشاه الليبرالي.
قالت (يمنى) مفكرة:

- تفتكروا فيه صراع في السلطة الإيرانية بين تيار مع الإخوان وتيار
ضدهم؟

سألها (هيثم):

- ليه بتقولِي كده؟

- علشان كلام (فكتور) عن تأييد (الغنوشي) للنموذج الإيراني. ربما
فيه صراع كذلك داخل الإخوان بين تيار يقبل التعاون مع الشيعة وتيار
ضده.

فكر (فكتور) لحظة، ثم قال ما طأ شفتيه:

- وارد.

ابتسم (هيثم) وهو يقول محاولاً إنهاء الجدل:

- أعتقد كِدا يا جماعة إحنا متفقين، سواء عن طريق الحلم، أو

(١) سيزور أحمددي نجاد القاهرة في ٢٠١٢ فيما بعد، إضافةً إلى زيارة مرسي لطهران.
بالرغم من ذلك سيكتب (أبو يعرب المرزوقي) في ٢٠١٧ أن «إيران أخطر من
إسرائيل» وأن «إيران تدّعي الإسلام».



الواقع، إن اللي بيقوله (أدهم درويش) بصدد وصول الإخوان للحكم صحيح، أو الأكثر احتمالاً. وعلى أي حال معناه إننا على الطريق السليم. (ثم بابتسامة ساخرة) الأهم إن نقطة الاتفاق الثانية بيننا هي إن هدف (درويش) من إسقاط الإسلاميين وإعادة النظام القديم ها يتحقق تلقائياً، ومش متوقف على تعاوننا مع الفافاك، لكن دا مش ها يؤثر على قرارنا؛ لأننا ثوريين رأسيين مش أفيين. أرجو يكون واضح إن هدفنا من الموافقة - لو وافقنا - هو تصعيد نشاطنا إحنا، بغض النظر عن أهداف الفافاك. هما ها يستغلونا، وإحنا ها نستغلهم.

نظر (فكتور) إلى المائدة في حيرة وإحباط قائلاً بمزاجه المتقلب:

- التوقعات كلها مؤسفة. إحنا مقبلين على كارثة، والتخلص منها بكارثة.

ثم هز رأسه بعنف، وهو يقول:

- أنا اكتئابي زاد. أنا عاوز أقوم بـ(عملية).

قال (هيشم) محذراً:

- ما فيش عمليات قبل حسم موقفنا من عرض (درويش).

ثم استأنف قائلاً للجميع، وهو يفتح ذراعيه في حماسة ساخرة:

- وبكِدا يتحقق حلم العدمية الأقصى: فريق اغتيالات، بيشتغل بقدرات مخابراتية، وهدفه الحقيقي هو إسقاط السماء.

التفت (فكتور) بدوره إلى الجميع، وهو يمتص الغليون بشراهة،

وقال:



- أنا شايف عرض (درويش) ها يكسبنا كفاءة أكبر في الحركة على المحور الرأسي. والمقابل بسيط: هو وضع بعض الأشخاص على قوائمنا، واستبعاد آخرين.

وافقه (فريد) بإيماءة واضحة، بينما قال (هيثم):

- دا رأيي كذلك.

ثم نظر إلى الجميع وقال بهدوء ضاعطاً على مقاطعه:

- أعتقد إننا ممكن نُجمع على ضرورة الحصول على موافقة الجميع بلا استثناء من أجل قبول العرض دا؛ لأننا بنشتغل كفريق. حد معترض على دا؟

لم يعترض أحد، فاستأنف:

- طيب.. هل مننا حد رافض العرض؟

قالت (يمنى) مفكّرة:

- أنا شايفة إن ما فيش طريق بديل بعد التوقعات والمعلومات اللي سمعتها النهار دا. الواقع ها يتحول بسرعة شديدة لعدم. وما فيش اتجاه مع العدم غير زيادة العدم.

وافقها (منصور) و(فريد) بإيماءات إيجابية، وقال الأخير:

- مش بس زيادة العدم أو الإسراع من معدله، بل كمان توجيهه رأسياً؛ لأن بعد تفاقم الأوضاع التلقائي ها تتكون في مصر ثروة عدم هائلة، أكبر من بترول الخليج، أو اقتصاد ألمانيا، أو جيش أمريكا، أو ترسانة روسيا النووية. علينا هنا إننا نستغلها ونوجهها التوجيه الصحّ.



تابعه (هيثم) في اهتمام، ثم استأنف:

- يعني ما حدث رافض؟

لم يرفض أحد، فطَرَق سطح المنضدة بقبضته محاكياً مجلس النواب، وهو يقول باسمًا في تهكم:

- موافقة!

ثم أخذ الورقة، التي رسم (فريد) عليها مخططه، ليحفظها ضمن أوراق الاجتماعات، وهو ينهض، ويقول لـ(فكتور)، ثم للجميع:

- أنا بأعزيك في وفاة (مينا)، لكن افكر، وافتكروا جميعاً إن أقباط ماسبيرو وغيرهم عشرات، وربما مئات فيما بعد، أقباط وغير أقباط، خسروا وها يخسروا أرواحهم؛ لأنهم لم يقتلوها أولاً. واللي له دية عند نفسه ما لو ش دية عند حد.



٣- المحور الواحد

حين أشرف الليل خرج (منصور) إلى الشرفة ليجد (فريداً) واقفاً وحده، يدخن في الهواء الطلق. لم يسبق له أن تبادل معه حواراً باستثناء تلك المرة عن تأثير الحشيش منذ أشهر؛ فالاثنان أقرب إلى الانطواء. وإذا كان (فريد) انبساطياً نوعاً ما تحت تأثير المخدرات أو الكحول، فإن طبيعته تحت ذلك التأثير تتبدل عنها كما في الاجتماعات مثلاً، أما الطبيعة الأصلية فهي التي تثير فضول (منصور).

ابتسم (منصور) في قدر من الإحراج حين رآه (فريد)، وقال:



- أتمنى ما أكونش بأزعجك.

أوماً (فريد) نفيًا، فاقترب (منصور) ليستند مثله على حاجز الشرفة، ويقول:

- أنا.. أنا اليوم اتفقت معاك في كثير من اللي قلته.

أرسل إليه (فريد) نظرة واحدة، فأدرك حقيقة مهمة. لقد تبدّلت شخصية (منصور) بلا شكّ بعد قيامه بأولى عملياته. للدقة تبدّلت قبلها بساعات ليتخذ ذلك القرار الخطير بقتل الأب، وبدأ ينسج ستارًا كثيفًا بينه وبين الناس، عدا (فريد)؛ فأمامه فقط يظهر على حقيقته: الشخصية الاجتماعية غير الواثقة، والتي تتعلق تقديرها لنفسها بتقديرات الآخرين لها. وكان (فريد) يعتمد بدرجة كبيرة جدًا على حدسه، ويثق به، وهذا يعني له أن كثيرًا من استنتاجاته سليمة، حتى قبل أن يتمكن من البرهنة عليها، أو من دون تلك البرهنة على الإطلاق. وحدث (فريد) أن (منصورًا) صار منيعًا إلى حد ما بالنسبة للآخرين، خاصة وأنه كان صاحب أولى العمليات الفعلية، وأجرأها، مما أكسبه ثقة قوية، ولكن كل ذلك يستثنيه هو.

قال (فريد):

- وإيه اللي ما اتفقتش معايا فيه؟

حرّك (منصور) عينيه بحيرة، وهو لا يجد ما لم يتفق معه، لكنه قال:

- يعني.. موضوع دعم الغرب للإسلاميين في المنح الدراسية.. حضرتك قلت أن ما فيش عليه دليل مادّي.

لاحظ (فريد) اللقب، وقال:



- وهل أنت مصدّق فعلاً أن الإسلاميين تورّطوا في أحداث ماسبيرو؟
فكّر (منصور)، ثم قال:

- شخصياً مصدّق؛ أنا كنت عضو بالإخوان زيّ والدي، لكن بعد الاستفتاء انفصلت عنهم. وبالتالي أعرف عنهم، وعن الإسلاميين عموماً، كثير.

- ليه انفصلت؟

- يعني.. شوفت أنهم يحاولوا السيطرة على الناس من خلال الدين، وأنهم ييستمغلوا سوء فهم الناس للدين.

التفت له (فريد)، وقال بابتسامة نصف ساخرة:

- ولا سوء فهم الدين للناس؟

لم يرد (منصور)، وهو يحاول الاستيعاب، فعاد يسأل:

- يعني هل دا فعلاً سوء فهم؟

تحفّظ (منصور) أمام سخريته، ورد:

- أنا لما رفضت السلوك دا من الإسلاميين كنت متدين، أعتقد دا يعني إن فيه أكثر من فهم.

أوماً (فريد) إيجاباً، وقال بطريقته النظرية الباردة:

- دا صحيح. أي شيء له أكثر من فهم. لكن فيه فهم أكثر موضوعية من غيره. ولو ما فيش فهم موضوعي، بمعنى الموضوعية النسبية، ما كنتش ها تقدر تفهمني وأنا بتكلم دالوقت.

لم يصرّح (منصور) أنه لم يفهم فعلاً مقصوده الأخير، وهو ما يعرفه (فريد)، لكنه أوماً بدوره إيجاباً، وقال:



- دا صحيح. لكن.. هل دا يعني أنك موافق على كلام البعض إن الإسلام دين حربي عكس أديان أخرى زي المسيحية مثلاً؟

ضيق (فريد) عينيه في تركيز، وهو يقول بسرعة متعمدة:

- على وجه الدقة ما فيش دين حربي بطبيعته، لكن الدين بما هو دين (توتاليتاري) في طبيعته. والمسيحية مش بطبيعتها دين حربي أو مسالم، وأغلب تاريخ الكاثوليكية مثلاً حروب ودم وقمع للمفكرين وحرق للعلماء أحياء لو عاوزين الدقة. المسيحية (حالياً) دين مُروّض؛ لأن بعد الهجوم الكاسح عليها في الغرب إبان عصر التنوير بالذات أصبحت قانعة بانحسارها في الكنيسة، أما في الشرق فهي أقلية بعد الإسلام. لكن الخطأ الدارج هو الخلط بين وضع المؤسسة الدينية المروّضة حالياً وبين طبيعة المسيحية. لما تقوم ثورة ناجحة زي الثورة الفرنسية، ويتم تحويل بعض أديرة الرهبان فيها لأماكن لممارسة الجنس العلني مثلاً، فضلاً عن مصادرة أراضي الكنيسة وممتلكاتها، ما ينفعش يبجي حد بعد كدا ويقول «المسيحية دين مسالم بطبيعته»؛ لأنه لو كان مسالم ما كانوش ثاروا ضده، وبعد ما ثاروا ضده اتروّض، وبقي الرهبان دول يشكروا الرب أنهم على قيد الحياة أصلاً^(١).

نظر له (منصور) في صمت لحظة محاولاً هضم المصطلحات والمعلومات التاريخية والاستنباطات معاً، وهو ما تعرّس فيه، فسأل:

- يعني إيه توتاليتاري؟

(١) يرجع في ذلك على سبيل المثال إلى:

Will & Ariel Durant, The Story of Civilization, Age of Napoleon, Simon and Schuster, New York, 1975, p. 73.



أشاح (فريد) بوجهه إلى الأفق المظلم، وهو يقول:

- المعلومات دي في الكتب. اللي أقصده أن ما فيش دين حربي ودين مسالم، لكن كل الأديان بتشكّل في أثرها النهائي على المؤمنين بها سلطة معرفية. ودا تحديدًا هو اللي بيؤهل رجل الدين لاستعمال الديماجوجية، زي ما حصل في الاستفتاء.

هل يصنفه - ولو سابقًا - ضمن هؤلاء الديماجوجيين؟ ظل (منصور) يرمقه في صمت، وهو يشعر أن المسافة بينهما قد ازدادت على عكس ما أراد. وخطر له أن محدّثه يتكلم باستفاضة، ويستجيب لكل نقاط النقاش تقريبًا، لكن من دون أن يُظهر شخصيته. وفي تلك اللحظة دخل كل من (هيشم) و(فكتور) و(يمنى)، بعد أن غادرتهم (سلمى) إلى بيتها، وقالت (يمنى) ملقية نظرة فاحصة على الموقف:

- بتعملوا إيه يا شباب؟

لم يرد (منصور)، فقال (فريد) وهو يلتفت لها متهمكًا:

- إيه..؟ خايفة نطلع جايز؟ أنتِ هو موفوبيك؟

ضحكت في عصبية، وقالت:

- لا.. خالص.. براحتكم. أقصد بتكلموا ف إيه؟

مط شفتيه، وقال:

- في التوتاليتارية.

أحست أن استعمال التعريب متعمّد، فسألت بقدر من التهكم:

- يعني إيه بقى؟



- نظر لها لحظة، ثم قال:
- المعلومات في الكتب.
- قالت في إصرار:
- لا معلنش، أنا عاوزة أعرف دالوقت لو سمحت.
- نظر لها مرة أخرى صامتًا، ثم قال في برود وسرعة:
- يعني «شمولية»، من «توتوس» اللاتينية في الأصل بمعنى «كُلّ».
- أشاحت ببصرها، وهي تهزّ رأسها قائلة:
- بارك الله فيك.
- قال (هيثم)، وهو لا يلاحظ السجال الخفي:
- عاوزين نصيغ الرسالة اللي ها نبعثها لـ (درويش).
- جلس (فريد) على مقعد قريب، ووضع ساقًا فوق أخرى، وقال:
- بمناسبة (درويش).. مش ملاحظين عليه شيء غريب؟
- قال (فكتور) ملوِّحًا بيده بصوت خافت إلى حد ما:
- أعتقد أنه كله على بعضه غريب، بحكم وظيفته ونشاطه السري.
- فكّر (فريد) لثوانٍ، ثم قال:
- أقصد غريب حتى بالنسبة لوظيفته ونشاطه السري.
- رمقه الجميع في حيرة، وقال (هيثم):
- إيه الغريب؟



مط شفتيه قائلًا:

- يعني .. ضابط بيتكلم عن الجينات الآرية، والرياضيات..

قال (هيشم):

- أنا شخصيًا ما أعرفش إذا كان دا غريب ولا لأ؛ لأنني ما أعرفش اللي زيه بيتكلم إزاي.. أو يعرف إيه بالضرورة.

رمقه (فريد) لحظات مضيقًا عينيه فيما بدا تفكيرًا عميقًا، ثم اعتدل قائلًا:

- يجوز.

قال (فكتور):

- بص.. اسألني أنا عنهم. فيهم ناس مثقفين ومتعلمين جدًا.

هز (فريد) رأسه متفهمًا. وما لم يستطع قوله هو الشك في كونه شخصًا حقيقيًا أصلًا! وهو ما لا معنى له إذا كانوا جميعًا قابلوه، مما يؤدي بالتالي إلى الشك في حقيقتهم هم. احتفظ بذلك لنفسه، وقال:

- طيب يبقى نصيغ رسالة الموافقة.

قال (هيشم)، وهو ينصرف إلى الداخل:

- أكيد. أنا محتاج لاهوت الليلة. مين ها يشارك؟

تبعه (فكتور) و(يمنى) للداخل، في حين جلس (منصور) ليريح ساقيه صامتًا. تنهّد (فريد)، ثم قال كأنه يحدث نفسه:

- المحور الرأسي مش سهل. والطريق فيه بلا عودة.



سأله (منصور):

- تقصد المخاطر الأمنية؟

ظل (فريد) صامتًا، وهو يتردد في إخباره، ثم قال:

- أقصد إنه أغرب مما يبدو.. بالنسبة لي على الأقل.

- إزاي؟

جالت عينا (فريد) بين الأرضية والسقف، وهو يقول:

- فاكّر حوارنا عن الحقيقة والحق؟ المحور الرأسي مش ثورة بس على السما، هو كمان ثورة على الحقيقة. الحقيقة مزيفة. العالم مزيف. وما فيش طريقة لكشف الزيف دا غير تدميره. واللي ممكن يدمره رسول، رسول عكسي، رسول غير مؤمن بالحقيقة.

لم يفهم (منصور) ذلك أيضًا، لكنه أبدى الاهتمام المناسب مستشعرًا لمسة من الخوف، لم يعرف مبررها، ثم نهض قائلاً:

- لازم أروح؛ لأن عندي شغل بدري. أشوف حضرتك المرة الجاية.

أوماً (فريد) برأسه مودّعًا، لكنه قبل أن يخرج ناداه:

- (منصور)..

- أيوا..؟

رمقه بنظرة باردة، ثم قال:

- إيه رأيك في (سلمى)؟

فوجئ لحظة، ثم قال بارتباك:



- من ناحية إيه؟ مش فاهم.

بدت له نبرة (فريد) مريرة، وهو يقول:

- حاول تفضل معاها. أعتقد إنها محتاجة لك.





الفصل التاسع

الدوائر

١ - عالم هيثم

بعد أكثر من شهرين كان (أدهم درويش) يخطو إلى مقر قيادة شبكته في مصر. وما أن اقترب من باب مكتب قائده حتى نهض ساعي المكتب مرحبًا بكلتا يديه، وهو يقول:

- أهلاً يا (أدهم) بيه. البيه منتظرك.

بدت في كلام الرجل لهجة استعجال ما، وهو يعرف أنه تأخر عن الموعد. لم يردّ، بل طرق الباب مرتين، ثم دخل. وقبالة عينية جلس قائده إلى مكتبه يطالع بعض الصحف، وما أن رآه حتى ترك ما أمامه، وهتف:

- (أدهم).. أنت فين من بدري؟

- آسف يا فندم.. سيادتك عارف إجراءات التأمين.

رتّب القائد الصحف جانباً، ثم اعتدل في مقعده، وهو يقول:

- هاه.. إيه أخبار أصدقائنا؟

- بخير كلهم.

ثم أخرج صورة جماعية للرفاق الستة، وملفًا دسمًا. وقد اختار هذه الصورة بالذات؛ لأنها توضح إلى حد ما العلاقات بين أفراد المجموعة،



وبعض طباعهم؛ حيث جلست (سلمى) تضحك ضحكة طفلية عابثة على ركبتي (هيثم)، الذي كان ينظر للكاميرا مبتسمًا، وعلى عينيه النظرة المقتحمة المسيطرة، في حين جلس جواره (فكتور) ضاحكًا، ويده تمسك بالغليون. وجلس (فريد) و(منصور) على أريكة مجاورة، الأول يدخن، ولا يتبسم، بل تبدو في نظره تلك الدرجة من الريية والشك، كأنه يرتاب فيمن التقط الصورة، أو في كل من يشاهدها، النظرة نفسها التي تميّز صور (بيتهوفن) بعد صممه، أما (منصور) فقد اعتدل للكاميرا في درجة من الإحراج، وابتسم في تحقّظ، في حين وقفت (يمنى) بقامتها الطويلة خلفهم جميعًا، مريحة كل ذراع على مسند، وهي تضحك.

بدأ (أدهم) عرض ما لديه قائلاً:

- كلهم أخذوا تدريبهم، والاستجابة عالية. دا (هيثم الجمال)، رجل أعمال، قائد المجموعة العملي، قدرات قيادية، له نفوذ كبير بسبب أهله. وله خمسة أقارب في أماكن حساسة. نقدر نقول أنه الأب الروحي للمجموعة، من جهة أنه الرابط الاجتماعي بينهم، وهو اللي معرفهم على بعض. الثاني دا (فكتور الملاكى)، صحفي، مسيحي سابق، حاليًا ملحد، زي أغلب الشلة، ويساري سابق برضه، واعتقل ٣ مرات. شاعر وحالم واجتماعي جدًا وبتاع ستات. الثالثة دي (يمنى السيد)، ودي كيميائية شاطرة، أكبرهم سنًا، متحررة، أعتقد إنها بتلعب دور الأم الروحية للمجموعة، إذا كان (هيثم) الأب، بسبب إنها أكثر نضجًا، وتعامل بعضهم إلى حد ما كإخواتها الصغيرين. ودا (منصور الدواخلي)، مهندس، آخر المنضمين للمجموعة، شخصية غير اجتماعية، غير واثقة إلى حد ما، لكنه قام بأولى عملياتها الفعلية: قتل أبوه.

أوما القائد برأسه في اهتمام، وهو يغمغم:



- دا أنا قرير حكايتو بالتفصيل . كمل ..

استأنف (أدهم):

- البنت الصغيرة دي سلاح فتّاك، اسمها (سلمى شاهين)، ٢٢ سنة.

تخيل يا فندم إنها بتستعمل السلاح الأبيض؟!!

أوماً القائد ثانيةً، وهو يقول بشك:

- مش ملاحظ أنهم كلهم عندهم كفاءات معينة، نادر إنها تجتمع في

مجموعة واحدة بالشكل دا؟

تفكر (أدهم) لحظة، ثم قال:

- دا واردا يا فندم؛ لأن المثقفين في مصر أقليات، بيتعامل معها

زي أي أقلية في مجتمع مُعادي، والنتيجة هي أن المثقفين بيلاقوا بعضهم

على المقاهي الثقافية، أو البارات، وطبيعي تكون عندهم أفكار متشابهة

نوعاً ما، وأنهم يكونوا حصلوا على تعليم جيد. وإلى مدى أبعد وارد في

كثير من الأحيان إن الأكثر موهبة يقدر الموهوب زي، ويصاحبه، بدلاً

من أنه ينافسه، ومع نوع وقدر من الانتخاب الطبيعي - الاجتماعي ها

تتكون في النهاية شلة من الموهوبين زي دي، خاصة لو مواهبهم في

تخصصات غير متقاطعة.

طالع القائد الملف، وهو يقول:

- وكلهم ملحدين أو مش مؤمنين؟

أوماً (أدهم) إيجاباً، وقال:

- فعلاً. لكن أعتقد دي كذلك صدفة.. ولو إنهم هما بيعتقدوا أن



موقف الدين بشكل عام في مصر ها يضعف بقوة خلال الفترة الجاية،
برغم صعود الإسلاميين.

رفع القائد إليه عينيه في اهتمام، وقال:

- ومين قال كذا؟

أشار (أدهم) إلى موضع على الصورة، وهو يقول:

- دا يا فندم. اسمه (فريد طلعت). دا حكاية. هو اللي صمم الشفرة
اللي بنستعملها معاهم حالياً بجهدہ الخاص. ومعلوماتنا بتفيد إنه صاحب
الفكرة الأساسية من نادي الانتحار بكل تطویراتها. وهو شخص انطوائي
منغلق صعبة قرايته، ومن العسير إنه يسلم أسرارہ الشخصية لحد؛ لأنه
غالباً مش بيثق في حد غير نفسه. لكن - مع ذلك - له نقطة ضعف واحدة..

نظر له القائد مصغياً في اهتمام، فاستأنف:

- .. إنه بيميل نفسياً لمن يقدر مواهبه. يعني ها يتعاون بس مع اللي
عارف قيمة اللي عنده، وبشكل جادّ ومن غير نفاق أو مجاملة؛ لأنه
بيحتقر المنافقين. على وجه أدق لأنه بيحتقر إدراج البعد الشخصي في
تقدير قدراته. معلوماتنا كذلك بتقول إنه بيجد الاهتمام دا من المجموعة
ككل، ودا يمكن سبب تعاونہ الطوعي مع شخصية مسيطرة زي (هيثم).

قال القائد ضاحكاً:

- أمثال دا مالين المستشفيات العقلية بيدعوا النبوة.

ابتسم (أدهم) تأدّباً، وهو يقول في برود:

- أعتقد إنه عنده بشكل ما الاعتقاد دا يا فندم.



نظر له قائده بدهشة، ثم قال مستنكرًا:

- عنده اعتقاد إنه رسول؟

نظر (أدهم) إلى صورة (فريد)، وهو يقول:

- مش بالضبط. المعلومات اللي عندنا بتؤكد إنه مؤخرًا بيعاني نوع من الانفصال عن العالم.. عن الواقع يعني.

رمقه القائد بنظرة مفكّرة، وقال:

- دا مرض عقلي. ودا إيه تأثيره على الشغل؟

مط (أدهم) شفتيه، وقال ببساطة:

- تأثيره إنه بيدفعه دفعًا للتعاون معنا.

ظل القائد يرمقه شاردًا، مما بدا له تفكيرًا عميقًا، فقال مستدرّكًا:

- دا لا يعني إنه غير مؤهل. هو حاد الذكاء، واسع المعرفة بدرجة أنا نفسي مش عارف حدودها بالضبط، وأفكاره هي اللي بتوجه المجموعة، وهي اللي وجهت كل ضحاياه للانتحار، وثقافته بتجعل له القدرة على تأويل الموقف أيًا كان. التلاعب بالعقول بالنسبة له مجرد نشاط يومي. دا غير إن عنده قدرة فطرية على فهم أي نسق نظري أو استراتيجي بسهولة تامة. ودا يعني في المقابل إن عنده قدرة متميزة على صياغة النسق والاستراتيجية.

نظر القائد إلى صورة (فريد) قائلاً بشروء:

- ما هو اللي صمم الشفرة.

فلم يعرف (أدهم) مقصوده بالضبط. في الواقع أحس (أدهم) في



قائده درجة من الاهتمام الزائد؛ حين طلب منه أمس أن يوافيه بمعلومات شفوية عن الفريق، رغم أنه اطلع على الملف والصور ولديه تقارير تفصيلية بطبيعة الحال عن العملية قبل أن تبدأ، ربما عدا حالة (فريد) النفسية. قطع القائد هذه الخواطر، وهو يقول:

- بص يا (أدهم). إحنا عاوزينهم يشتغلوا كما هو مخطط، لكن حط خط تحت (فريد) دا. أنا عاوزة بعد ما المهمة تخلص.

وبقلم أحمر غليظ رسم دائرة كاملة حول وجه (فريد)، فأوماً (أدهم) إيجاباً، وهو يسترجع الإجراءات التي تمليها الجملة الأخيرة. وأضاف القائد:

- أنت فاهم طبعاً التعديل الأخير اللي دخل على الخطة. مش عاوزين في المرحلة القادمة استهداف أي كادرات مشهورة. هدفنا هو تكسير المفاصل الصغيرة.

نهض الرائد، وقد فهم من لهجة قائده أن اللقاء انتهى، فأدى التحية، وهو يقول:

- تمام يا فندم. المهمات ها توصلهم في الوقت المطلوب.

وترك ما لديه على مكتب القائد، وغادر المكان. أما القائد فقد بقي جامداً لحظات كتمثال، ثم أعاد النظر إلى صورة (فريد)، وتأملها لحظات، وهو يقول شاردًا:

- اللي يعمل شفرة.. يقدر يفك شفرة.

وخيل إليه للحظة أن (فريدًا) يرمقه هو بالذات في شك داخل دائرته الحمراء المتوهجة.. شك يكاد يعرف مبرره.





منذ بضعة أيام عاد (هيثم) إلى شقته بالقاهرة، واستيقظ هذا الصباح شاعرًا بأعراض الليلة السابقة، التي رافق فيها فتاة ليل إلى دارها، ثم عاد إلى داره غارقًا في سحابة ملازمة له من دخان الحشيش، أما كبده فقد صارت إسفنجة مشبعة بالكحول، وهو أثر حرمانه من المخدرات والكحول والجنس طيلة فترة تدريبه.

أعد لنفسه حمامًا دافئًا، ثم استأنف روتين الصباح: قطرة الأنف حتى يزول انغلاقها، الذي تسببت فيه عاصفة الدخان بالأمس، مع قطرة العين حتى يزول احمرارهما، وقرص من المهدئ، ثم سيجارة لاقتحام العالم. وفكر قليلًا: كيف يعيش الناس بلا مخدرات؟ كيف يحاربون الواقع بدونها؟

أحس بالوحدة في شقته الخالية، وحدة جعلته يسترجع رغبًا عنه بعض لحظات الزيجتين الفاشلتين، لكنه تراجع قائلاً لنفسه أنه لم يكن لينسجم مع الزواج بعلاقاته المتعددة، خصوصًا لو كان قد أنجب. إن هي فقط إلا بعض سويغات الوحدة، التي تمر، أحيانًا ببطء، لكنها تمر جميعها. ثم ما فائدة الأصدقاء؟

عند هذه النقطة اتصل بكل من (يمنى) و(فكتور)، وهو يعلم أن بقية رفاقه غير متاحين حاليًا، فلم يجد منهما استجابة. فكر في الاتصال بـ(سلمى). إنها في عملها، لكنها تتخذ هذا العمل غطاء في الحقيقة أمام أسرته على خروجها المتكرر، وأحيانًا المتأخر.

بالفعل اتصل بـ(سلمى)، وبعد تبادل التحيات، قال لها:

- .. مش عارف.. حاسس بغربة. لو فاضية تعالي.

فوعده بالقدوم، وتأكد هو أن لديه بيرة، ثم طفق يدخن ويتناول



بعض المأكولات الخفيفة ويتنظر. وحين رن جرس الباب، فتح لها، ثم أخذها بين أحضانه، ودعاها للدخول، فدخلت. جلست على أريكة، وطلبت منه بيرة، ثم أشعلت سيجارة، ونظرت إليه بتساؤل حنون، فجلس جوارها، وتأمل لحظة في اكتئاب، ثم قال:

- أعتقد السفر ما كانش ها يفرق معايا كتير. فيه طبيب نصحني بالسفر كعلاج للاكتئاب. لكن بعد ما سافرت ف التدريب اكتشفت إن الاكتئاب مستمر. أظن إن المكتئب بيحمل معاه منظوره الخاص مكان ما يروح.

نظرت له في حزن لحظة، ثم قالت:

- وليه حاسس بغربة؟

تأمل ما حوله لثوانٍ، ثم قال:

- مش عارف. أعتقد بسبب الوحدة. أو إني اتعودت على وجود أسرتي، وبعدين الزوجة الأولانية، والثانية، ومش عارف أتأقلم.

- بقى لو كانت مراتك موجودة.. كانت ها تسمح لي آجي لك؟

أشاح ببصره، وهو يعلم أنها تتحدث عن زوجته الأخيرة؛ فهي لم تقابل سواها، وقال مشعلًا سيجارة بقدر من الغيظ:

- (غادة) كانت بتمانع. لكن هي ما كانتش فاهمة طبيعة علاقتنا. ودا تحديدًا عمل لي إرهاب إن صلطنا فعلاً غرامية.

مالت عليه في مداعبة، وهي تقول باسمه:

- طيب ما أنا غرمانة فيك يا دادى.

ابتسم بدوره، وهو يقول:



- أيوا.. بس مش بالشكل المفهوم من الكلمة.

ثم أشاح ببصره مرة أخرى قائلاً:

- بس هي برضه وقفت معايا كتير، خاصة في تجربة الإدمان. ومن غيرها ما أعرفش كنت ها أعمل إيه.

سألته في جدية بريئة:

- كان إدمان إيه؟

- بودرة.

- بودرة يعني إيه؟

رمقها لحظة في دهشة، ثم قال:

- هيروين. بودرة يعني هيروين.

عادت تسأله:

- دا غير اللاهوت الغربي؟

ابتسم لحظة؛ وقد وجد طريقتهو الجادة في استعمال التعبير طريفة؛ حيث كان، وبقية رفاقه، يستعملون هذه التعبيرات دائماً مع نبرة مزاح. قال:

- اللاهوت الغربي دا كوكايين.

سألته بفضول:

- ودا بيعمل دماغ زي الحشيش ولا الشرب؟

فكّر، ثم أجاب:



- لا دا، ولا دا.. تقدري تقولي أنه النشوة الصافية، مع شوية هلاوس.

ثم نفث دخانه، وهو يسترجع بعض الماضي، مغمغمًا:

- كانت أيام.. شوفت فيها لحظات نشوة متفجرة.. لكن برضه عانيت فيها وبعدها معاناة رهيبة.

وازدرد لعبه بصعوبة، وهو يتذكر بعض هذه المعاناة، ويقول:

- معاناة الإدمان مختلفة عن غيرها، مش بتكلم عن الشعور باستعباد المادة، ولا أعراض الانسحاب.. تقدري تقولي مش بتكلم عن أعراض الانسحاب الجسدية، بل النفسية والعقلية، في الامتناع عن المخدر، حتى مع القدرة على دا. المخدرات ها تمنحك لذة كبيرة، وإبداع، لكنها ها تاخذ منك خاصية مهمة جدًا، هي (تقبل الواقع)؛ لأنك بعد الاندماج في مخدر بتتحول الحياة ككل - بدون المخدر - لعمل بالسخرة، بتفقد القدرة على التعايش مع العالم الحقيقي. ولو فقدتها مرة يبقى فقدتها للأبد. عقل الإنسان زي عود الكبريت.

راحت تتذكر بدورها، وهي تقول:

- أنا لما باتقل في الشرب بصحى ثاني يوم مصدعة، بس مبسوفة.

قال وهو يمعن في التذكر:

- لا، الأعراض اللي بتكلم عنها مختلفة تمامًا.. أعراض زوال عالم كامل دقيق التفاصيل، وجميل زي لعب الأطفال. فجأة ينهار لما ينقطع المخدر، وساعتها بحس.. (ثم تحسس تلقائيًا ذراعيه في ألم وهمي) بحس إني كوكب صغير أشرقت عليه شمس مفاجئة. الشمس دي هي الواقع نفسه، بحس أنني بدور حول نفسي قدام الشمس دي، وأنها بتحرق



كل ملليمتر في جسمي بضوء لاسع مزعج، وإني مضطر كل يوم إني أكمل دورتي قدامها، وهي تكمل حريقي. بحس إن فيه حد عمل الواقع دا بالعند فياً!

ثم التقط دخانه، وقال بمرارة شديدة:

- أحياناً بفكر إن فيه دايرة أكبر بين عالمين؛ هي دايرة الخدر/ الواقع: عالم المخدرات بيداً في التلاشي مع محاولة الإقلاع عن المخدر أو بعد ضعف تأثيره بسبب التعود عليه، فيبدأ عالم الواقع يتكوّن، وبسبب أزمتي مع الواقع أشوف مخدر جديد، فيظهر مرة ثانية عالم المخدرات، وهكذا.. دايرة ملتعبة مش ممكن الفكك منها، والحركة فيها طول الحياة. الانتقال دا من عالم افتراضي للعالم الحقيقي بيقتلني كل مرة.

وزفر قبل أن يردف:

- الواقع بما هو واقع مخيف؛ لأنه واقع.

ظلت ترمقه في صمت متفهّم، ثم قالت شاردة، وهي تجاهد لانتقاء الكلمات والتعبيرات:

- أنا جسمي هو المخيف. رغبة كل الناس فيه بتحسّسني.. بتحسّسني أنه تقيل جداً، كأني شايلاه، موش جواه. كأنه خاتم غالي قوي.. وجميل قوي.. لكنه بيحيط بيّ زي الدايرة المغلقة اللي بتوصفها، وبيخنقني، وموش ممكن أخلعه. وبحس كمان أنه.. سجن افتراضي.

- «انفرادي».

- آه.. سجن انفرادي.

ثم راحت تتذكّر بصعوبة، وهي تردف:



- الغريب أن (فريد) قال حاجة زي كِدا.. قال أن جسمه يستحق التدمير.. موش فاكرة ليه.

- هو كان حاسس أن جسمه مش جسمه.

- يعني إيه؟

هزّ رأسه قائلاً:

- لا دا موضوع تاني خالص.. وكبير خالص.

ثم خفض رأسه قائلاً بلا مبالاة:

- عموماً الجسم جزء من الواقع.

بابتسامة مشفقة، وهي تفتح ذراعيها في احتضان رمزي، قالت:

- مش الواقع دا برضه فيه حاجات حلوة؟

ترك على خدها قبلة بسيطة، وهو يقول مبتسماً:

- أنت أجمل حاجة ف الواقع.

ثم صمت، فمالت عليه فجأة، وقالت بنظرة محرّضة:

- أرقص لك؟

هزّ رأسه باسمًا كناية عن أن هذا ليس وقته، لكنها مالت عليه أكثر،

وهي تقول في إغراء عابث:

- هأرقص لك لوحدك..

كاد يرد بشيء لولا أن هاتفه استقبل رسالة. فتح الهاتف فوجدها

مشفرة. نظر إلى (سلمى) في جدية، وقال:

- المهمات وصلت. محتاجين اجتماع عاجل النهار دا.



ارتخت هي على الأريكة، وهي تهتف في سعادة طفولية:

- أخيسيرًا.

بينما نظر هو إلى شعاع الشمس القادم من الشرفة، وهو يرسم ظلال الأشياء بدقته المعهودة. تخيل للحظة أن الظلال هي بقايا حريق النور لكل شيء، كما أن الرماد هو بقايا حريق النار. في الوقت نفسه شعر بأنه يدور أمام هذه الشمس بلا إرادة، وأنه - كساعة منضبطة - سوف يكمل دورته أمامها برتابة أشبه بمواعيد الإعدام، حتى لا يبقى منه أي شيء. ثم خطر له أن هذا الواقع يستحق أن يزول فعلاً. وقال لنفسه: هل الحرب على الواقع نوع من الثورة الرأسية بمصطلحات (فريد)؟

التفت إلى (سلمى) السعيدة، وقال متأملاً:

- يعني أنت حاسة إن جسمك سجن، و(فريد) شايف إن جسمه مزيف..

- و(منصور) بيحارب السما، و(فكتور) بيتكلم عن العدمية الواقعية.
- «الواقعية العدمية».

- .. وأنت بتتكلم عن واقع بيحرق زي الشمس.

- إحنا في حرب حقيقية على العالم.



٢ - تفكيك أمل دنقل

بعد الغروب اجتمع الأعضاء الستة لتوزيع المهمات ومناقشتها.



بدأ (هيشم) باستعراض مجموعة من الصور على حاسوبه المحمول، ومجموعة بيانات تحت كل صورة، قائلاً:

- دي الأهداف الجديدة يا جماعة في أول عملياتنا النظامية مع (درويش). كل واحد يعرف كويس بيانات الشخص، وأماكن تواجده، والتفاصيل الأخرى، لكن الملف داسري، وها يُعَدَم تمامًا بعد الاجتماع، زي ما اتعلّمنا في التدريب. دُونُوا ملاحظات من الملف، واحفظوها كويس، واحرقوا الورق بعد كِدا. فاهمين؟

ولمدة ربع الساعة راح يستعرض صور عشرة أشخاص، وبياناتهم، مع بعض التعليقات من جانبه، وحين انتهى، قال:

- أي سؤال هنا؟

قالت (يمنى):

- طبعاً: إمتى؟

التقط سيجارة من علبته قائلاً:

- كنت ها أتكلم في دا.. المدة اللي قدامنا ٤ أسابيع بالضبط.

نفخ (فكتور) دخانه، وقال وهو ينظر إلى الجميع:

- دي مدة طويلة.

تراجع (هيشم) في مقعده بعد إشعال سيجارته، وقال:

- لا أعتقد؛ لاحظ إن أغلب الفترة دي ها نقضيها في تتبع الأهداف والتخطيط للانفراد بهم. ولو إن فيه ٣ منهم عايشين في شقة واحدة.

قال (فكتور) متحمساً:



- لو الـ ٣ دول إسلاميين يبقى أنا لها.

نفى (هيثم) بإيماءة من رأسه، وهو يقول:

- للأسف لأ. كل الأهداف إسلاميين، ما عدا الـ ٣ دول.

ثم نظر إلى الجميع قائلاً في نبرة تأكيد:

- ولازم نلاحظ أن عملياتنا ها تنقسم بدءاً من الآن إلى نوعين: عمليات نظامية بيحددها (درويش)، وعمليات غير نظامية بنحددها إحنا. العمليات النظامية ما فيش مجال كبير فيها للانتقاء؛ لأنها (مهمّات). وإحنا اتفقنا قبل التدريب إن علاقتنا بالجهاز استغلال متبادل. هاه.. أي أسئلة أخرى؟

فلم يسأل أحد. حينئذٍ نهض، وقال:

- دي مهماتنا الأولى يا جماعة، وعاوزين نتمّها على أكمل وجه، ومن غير أي خطأ. ولو قدرنا نتمها قبل الجدول الزمني أعتقد يكون أفضل. - ما أعتقدش.

قالها (فريد) فجأة، فالتفت له (هيثم) باهتمام، فقال:

- آخر هدف لازم يتصفّى في آخر يومين تقريباً من آخر أسبوع.

سأله (فكتور):

- أيوا.. ليه؟

سعل (فريد) بصدر حَفرت فيه السجائر رئاتها الخاصّة، ثم قال، وهو يتناول سيجارته من حافة المائدة:

- دي الكفاءة الحقيقية. همّا ما حددوش الفترة دي اعتباراً، بل علشان



دي الفترة الكافية بالضبط. وإنجاز الشغل قبل معاده ممكن يكون دليل على الكفاءة، لكن كذلك يفتح باب للظن بعدم الانضباط، زي اللي بيجيلك زيارة قبل معاده.

قالت (يمنى) ماطة شفتيها:

- وارد. بس عادة الاعتقاد في ضرورة الإنجاز المبكر بيتهي إلى الإنجاز في الموعد المحدد.

أشاح (فريد) بوجهه، وهو يقول:

- أنا بفصل دايمًا الاستراتيجية على الـ Mind games دي.

ابتسم (هيثم)، وهو ينظر لهم جميعًا، وقال مقلدًا (عادل إمام) في (مدرسة المشاغبين) إلى حد ما:

- عارفين إيه Mind games اللي قال عليها الدوك دي؟

قال (فريد) في سرعة:

- الألعاب العقلية أنواع كتير، لكن وضعها في تناقض مع الاستراتيجية بيركّز فيها على نوع من التلاعب الذاتي بالعقل؛ زي ما أقول «أنا مش بذاكر، ومش ها ألحق.. إلخ» ودا يدفعني على مستوى غير واعي إني أنجز أكثر. دا بيتناقض مع الاستراتيجية؛ لأن الاستراتيجية - على العكس - بتقوم على التخطيط المحسوب بعناية، مع مرونة في الخطة، ووضع خطط بديلة كمان، بحيث يراعى في كل دا قدرات المنفّذين، بشكل واقعي، يخلو من أي تلاعب معرفي أو نفسي.

قال (فكتور) باسمًا، ومضيقًا عينيه في مكر:



- وليه بتفضل الاستراتيجية؟

تفكر (فريد) قليلاً، ثم قال:

- أعتقد لأنني واقعي في تفكيري. والاستراتيجية بشكل عام تعلق ولا يُعلَى عليها. معاك استراتيجية مرنة، ها تقدر تواجه بيها الظروف غير المتوقعة، وتقدر تنتصر بيها على أي خصم، أو منافس معتمد على التكتيك التلقائي الانفعالي، مهما كان قوي على المدى القصير.

قال (فكتور) ضاحكاً:

- أنا يا جماعة معروف إنني انفعالي، وها أفسد أي استراتيجية.

رد (هيثم) بقدر من الصرامة:

- مش في (العمليات) يا (فكتور).

اعتدل (منصور) في مقعده، وأشار بيده في تقدير إلى (فريد)، وهو يقول باسمًا:

- الحقيقة الواحد بيتعلم كثير من الدكتور في كل جلسة. أنا باستمتع جدًّا، وبشكره؛ لأنه فعلاً عقلية متميزة..

هنا.. قاطعته صرخة غاضبة مستنكرة من (فريد):

- يا أستاذ..!

فتفاجأ الجميع، وظل (منصور) رافعاً كفه، فاغراً فاه. وساد صمت الصدمة لحظات، رأى الجميع فيها (فريداً)، وعيناه متقدتان متسعتان بغضبة كاسحة. لم تكذب لهجته عينيه، وهو يهتف، وقد أرففه السُّخْط:



- إحنا بنتعامل هنا مع علم. وبنناقش مهمّات جادّة وخطيرة. المجاملات دي في الشارع.

انتهى كلامه، وبقيت نظرتة النارية على وجه (منصور) الممتقع، واستمرت ارتجافته، التي جعلت سيجارته في يده تهتز كأنها في مهب الريح. خرج (منصور) بصعوبة من صدمته، ونظر إلى بعض الموجودين بارتباك شديد، وانعقد لسانه لحظة، قبل أن يقول:

- أنا.. أنا آسف..

وكانت (سلمى) ثاني مَنْ خرج من الصدمة، وهي تسأل في دهشة:
- إيه اللي حصل؟

التقط (هيثم) شهيقاً عميقاً، ثم قال في حسم:

- الاجتماع انتهى. اتفضلوا للصالون. من فضلك يا (فريد) استنى.

خرجوا جميعاً عدا (هيثم) و(فريد)، فنظر الأول إلى الثاني، ورأى جليده التقليدي يعود ليهوي على بُحيرة وجهه الفائرة، حتى أوشك أن يسمع فحيح التبخر، وقال بلهجة تعقل هادئة:

- (فريد).. أنت مش شخص انفعالي.. وإحنا أولاً وأخيراً شلة أصحاب.. واللي جمع أغلبنا في البداية كان الصداقة.

لم ينظر له (فريد)، وهو يصرف البقية الباقية من حرارته، فاستأنف هو بقدر من الحرج:

- أنت كلامك مع (منصور) كان من موقع عالي. ودا غير مناسب. وما حصلش حاجة تقلل احترامك.



قال (فريد) ناظرًا أمامه، وهو يدخن:

- الناس لازم تتعلم احترام المعرفة.

نظر له (هيثم) في حيرة لحظة، ثم أشار بيديه معًا قائلاً:

- أوكي.. يا ريت لو فيه طريقة مختلفة أهدأ شوية نستعملها بعد كدا.

ثم مسح جبهته، وقال:

- يا مان إحنا محتاجين لثباتك الانفعالي والعقلي بيّنًا، بالذات في المرحلة دي.

وجّه (فريد) إليه عينيّن حادّتين، وراح يتساءل تلقائيًا بينه وبين نفسه:
«ثبات عقلي؟! ثباتي العقلي؟!»، في حين قال (هيثم):

- ممكن المرة الجاية تخليّني أنا أرد عليه. اتفقنا؟

هزّ (فريد) كتفيه، وقال ماطًا شفّتيه بلا مبالاة:

- مش ها تكون فيه مرة جاية.

سأله (هيثم):

- ليه؟

نظر إليه لحظة في صمت، ثم قال هازًا رأسه استنكارًا للسؤال:

- علشان هو بيتعلم من أول مرة.

بادله (هيثم) نظرة صامته، وهو لا يفهم كيف وصل إلى هذا الاستنتاج،
لكنه على كل حال أشار بيديه قائلاً:

- أوكي.. إذن.. Peace.



— Peace —

— طيب هل ممكن تطيب خاطره بكلمتين؟ مش بقولك تتأسف.

— الموقف مش محتاج دا.

— زي ما تشوف يا صاحبي.

وخرجا إلى الصالون لبعض التدخين والشراب. ولاحظ (هيثم) أن (فريدا) قد تجاهل (منصورًا) تمامًا طيلة الجلسة. وقد فسّر ذلك بدرجة من الحساسية والكبرياء.

رفع (هيثم) هاتفه، وطلب (إبراهيم):

— أيوا يا (إبراهيم).. اللاهوت جاهز؟.. طيب ابعته.

قال (فكتور)، وهو يجرع كأسه دفعه واحدة:

— اسمعوا يا جماعة آخر قصايدي.

قالت (سلمى) الجالسة تقريبًا على فخذي (منصور) المرتبك من ذلك، وقد سكرت:

— لا يا (فيكو).. مش بأفهم منها حاجة.

فأصابه إحباط مفاجئ، وأسند جبهته على ساعده في قنوط، فقالت (يمنى) ضاحكة:

— ما بلاش «مش بأفهم» دي.

قال (هيثم) ضاحكًا بدوره:

— وبلاش (فيكو).



ظل (فكتور) صامتًا مكتئبًا، فاقتربت منه (يمنى) مربتةً كتفه، وهي تقول:

- معلش يا (فكتور).. قول.. سمّعنا يا حبيبي.

فرفع (فكتور) رأسه، وهو لم يزل حزينًا، ويبدو أنه عدل عن الفكرة، فنهضت (سلمى)، ثم انحنت لتقبل خده في استغفار، فقالت (يمنى) ضاحكة بلهجة عابثة:

- يا الله يا عمّ.

وهو ما جعله رغمًا عنه يبتسم، ثم يهز رأسه قائلاً:

- لا خلاص.. مرة ثانية.

جاء صوت (فريد)، الذي لم يتكلم تقريبًا منذ بداية الجلسة، قائلاً:

- أنا عاوز أسمع يا (فكتور).

فساد صمت قصير، وتردد (فكتور)، ثم حسم أمره، وفتح كراسه، وبدأ يُلقِي:

- «السموات..

كانت مشرّدةً بين ضوء المَباخر والأبخره

ثم أَلقت إلى الرّوعِ مَكْتَبَةً

لتصيرَ على الأرضِ ثامنةً في اليَوَاسِ،

والقارّةِ الآخِرَة

حين تدخل من نقشَةِ المشريّاتِ



للبيت
قُدُسًا سِفاحا
نستعدُّ لها بـ (المُبِيدِ الْمُصْرَحِ!)
والعبيدُ بلا حَسَنَاتٍ،
وفاتِحَةٍ،
وَيَمِينٍ تَبِيعَ كِتَابَ الشُّعُورِ
بِمَطْبَعَةِ الطَّلَلِ المَتَبَاكِ،
وَتَرَبُّحٍ
ربما ردتِ الرِّيحُ بَعْضَ السَّمَاءِ،
فَضَاعَ، وَغَطَّتْهُ أَتْرَبَةٌ
تتوالى «على أوجه الشهداء»
إلى أن يعودوا إلى أرضهم،
يحملون الرِّمَاحا
أو يبيعون أرغفةَ الدَّمِ،
تَنْضَجُ فوق الرِّمَالِ،
وتطفو بلا ماء،
تَغْرُقُ في الشَّيْءِ مَهْمَا تَسَطَّحَ
«واحدٌ من جنودك يا سيدي»



سوف يكفي الشياطينَ فينا الكِفَاحَا
فاحتسب ما شهدتَ الوجودَ المُمَسَّرَحَ
- لاقني في كواليس خَلْقِي،
- بلى!

ف(المَلَاكِيُّ) يا سيدي يَتَّقِي في الذي لم يَكُنْهُ اثنتين:
القصيصة، ثُمَّ المُبَاخَا!

ساد صمت قصير، ويبدو أن في النصّ ما لم يصل إلى أغلبهم بعد.
قال (هيثم):

- جميلة يا مان. بس مش شايف إنها صعبة شوية إنك تدخل نفسك
في مُعارضة مع (أمل دنقل)؟
تنحنح (فكتور)، وقال:

- صعبة. لكن دا مقطع من قصيدة طويلة بتحاول إعادة بناء نصّ (أمل)
عمومًا. أعتقد فيه مقاطع ثانية أفضل.

التفتت (يمنى) إلى (فريد)، حيث جلس على مقعده الجانبي
المفضل، ينفث دخانه صامتًا، وقالت محاولةً ألا يظهر عليها الكثير من
الاهتمام:

- هاه.. إيه رأيك يا دكتور؟

تأمل (فريد) دوائره الدخانية، ثم قال في تَوَدّة:

- يعني.. الموسيقى عالية، لكن نقية، المعالجة مختصرة، لكن شملت
أكثر من قصيدة لـ(أمل) من نفس الديوان. أعتقد «الطيور» و«الجنوبي»



واضحين. برغم تنوع موضوعات نصوص (أمل) المستعملة فهناك في نص (فكتور) موضوع واحد اتبنى منها: الشهادة.

لمعت عينا (فكتور) أخيراً ببعض الحماس، و(هيثم) يسأل متفكراً:
- أفكر أيوا.. فيه سطر بيتكلم عن الشهداء.. لكن هل هو ذا الموضوع العام؟

قال (فريد)، وهو يتناول النص من (فكتور) فاحصاً:

- في فهمي: أيوا. لكن مش الشهادة في الوعي التقليدي. أعتقد إنها شهادة خاصة. «السّموات المشرّدة»، «القُدُس السّفاح»، «نستعد لها بالمُييد»، «واحد من جنودك سوف يكفي الشياطين فينا الكفاحاً»، هنا معالجة مرثية (محمود حسن إسماعيل) من نفس الديوان لـ(أمل)، المشهود أمام الشهداء «وجود مُمَسَّرَح»، مش عالم الغيب الحقيقي، و«للخلق كواليس»، والنهاية بـ«يتقي اثنتين: القصيدة ثم المُباحا». أعتقد الشهادة هي الموضوع الجوهرى هنا، لكنها شهادة معكوسة، شهادة ضد السما.

ثم هز رأسه في شكل من التقدير، وهو يضيف:

- أعتقد (فكتور) أصبح اللسان الشعري للنادي بجدارة.

التفت (هيثم) إلى (فكتور)، الذي اتسعت ابتسامته، وقال نصف مُمازح:

- دي بقى يا معلّم شهادة أهم من شهادة الكُلية. اللي أنت ما اتوظّفتش بيها برضه. ولا أقولك: أنت كدا خلاص اتوظّفت شاعر عندنا.

قالت (يمنى) بقوة ملاحظتها:



- مش واخدين بالكم كذلك من نص (أمل) «قالت امرأة في المدينة»؟
(فكتور) قال على ما أذكر حاجة زي «ردت الريح السماء».

قال (فكتور):

- «ربما ردت الريح بعض السماء».

ضيق (يمنى) عينيها في خبث، وهي تقول:

- مش ملاحظين حاجة تانية؟

نظروا لها متسائلين، فقالت:

- أغلبنا قرأ (أمل دنقل) كويس.

تناول (هيثم) بعض الحشيش، وبدأ تقطيعه، وهو يقول:

- أظنها صدفة لها أساس موضوعي؛ لأن (أمل) منتشر بشكل عام.

وبعض الشعراء العرب حاليًا يعتبروه أقرب إلى إله للشعر، في مصر وغير مصر.

أشعل (فريد) سيجارة، وقال:

- أعتقد إن هناك سبب أعمق.. (أمل) اشتراكي - قومي في الظاهر

والمعلن، ربما في وعيه، لكن في الباطن اللاواعي أنا شايفه عذمي زينا.

مش هو اللي قال: «واغرس السيف في جبهة الصحراء إلى أن يُجيب العدم»؟

نظر له (هيثم) وهو مستمر فيما يقوم به، وقال:

- أيوا.. بس هنا كان بيتكلم من منطلق سياسي.

هز (فريد) رأسه نفياً بقوة، كأن هذا الكلام يشوش على تفكيره، وقال:



- لا.. لا.. خطاب (أمل) الشعري بعد مرحلة النضج، يعني بداية من ديوان «البكاء بين يدي زرقاء اليمامة»، هو خطاب الناقد السياسي. يعني بخلاف خطاب أدونيس الرسولي - الفيلسوفي مثلاً، أو خطاب (محمود درويش) النضالي. (درويش) خطابه خطاب مناضل على الأرض، (أمل) خطابه خطاب ناقد مثقف للسياسة.

قال (فكتور) باهتمام وبعض الحيرة:

- تمام.. ودا معناه إيه؟

تأمل (فريد) ثانيةً، ثم قال:

- معناه إننا بنخلط عادةً بين الخطاب والمتحوّى. خطاب (أمل) سياسي واضح، لكن مضمونه - في رأيي - عديمي.

قالت (يمنى)، وهي تساعد (هيثماً) في تفتيت الحشيش:

- طيب وإزاي يبقى سياسي وعديمي مع بعض؟ مش المفروض العدمية هي عدم الإيمان بشيء؟

غمغم (فكتور)، وهو يبدأ تنظيف الباب:

- دا التعريف العام. لكن فيه تعريف خاص بجماعة العدميين الروس.

التفت لها (فريد)، وضيق عينيه كأنما يكتشف أمراً خطيراً، وقال ببطء:

- أعتقد تعريف العدمية العام دا محتاج مراجعة.

وبقي شاردًا يفكّر، فسأله (فكتور):

- إزاي؟



قال (فريد) شارداً، وقد تقلّصت ملامحه:

- أعتقد إن العدمية هي إيمان عكسي، مش عدم إيمان بشيء. ما فيش حد مش مؤمن بشيء. أعتقد (أمل دنقل) كان عنده إيمان عكسي: «المجد للشيطان». (أمل) كان شايف إن الواقع مريض، وما فيش فرصة لإصلاحه، لكن - ربما - تكون فيه فرصة لتدميره. «اغرس السيف في جبهة الصحراء إلى أن يُجيب العدم» دا مشروع انتقام دموي، ما حدش ها يبقى في نهايته.

نظر إليهم (فكتور)، وهو يقول شارحاً ما فهم:

- يعني بمصطلحاتنا: (أمل) في الظاهر ثائر أفقي، لكنه في الحقيقة ثائر رأسي. معركته الأساسية مع السما. حتى يقول «خصومة قلبي مع الله ليس سواء».

لصق (هيشم) طرف وريقة السيجارة، ثم لم يشعلها، بل تجمّد شارداً لحظات، ثم قال:

- يعني الثائر العدمي أو الرأسي هو الثائر على نظام العالم ككل، كخليقة الخالق. لكن الثائر الاجتماعي الأفقي دا ثائر على صنعة البشر. ثم التفت إلى (فريد)، وقال:

- طيب السؤال بالعكس: هل انتشار (أمل) دليل على وجود أرضية مسبقة من العدمية، وَجَدت في مضمونه ما يعبر عنها؟

قال (فريد) شارداً:

- بعد ٦٧، ثم (كامب ديفيد)، أعتقد أيوا. لكن السؤال الأهم هنا: هل تداعيات نكوص الثورة المصرية ٢٠١١ هي اللي ها تتسبب في اندياح



دوائر العدمية، مع تمدد دوائر التحريم السلفي، ودا اللي ها يؤدي - كما أتوقع - للإرهاب الديني، أم العكس؟

وصمت مفكراً، فقال (هيشم):

- مش فاهم بالضبط السؤال.

استرسل (فريد)، وقد ضاقت عيناه تركيزاً:

- أعتقد إن اللي قاموا بالثورة كانوا عديمين أصلاً من البداية؛ شباب قبل ثورة يناير انفتحوا على العالم بعد ثورة المعلومات، وانهارت في عيونهم السلطات الأساسية الدينية والأبوية والمعرفية. ونظراً لأن مجتمعنا في تصميمه الجوهري هَرَمي قائم على السلطة، بمعنى أن السلطة هي ما يمنحه التماسك، وليس التعاون والشراكة مثلاً، فالشباب دول فقدوا البناء اللي كان بيمنحهم المعنى للحياة، وتطور عندهم نوع من التشاؤم الوجودي، والرؤية القيامية للعالم^(١). دا ها يكون أوضح لو قارناه بالمناخ التفاؤلي اللي ساد مثلاً إبان الثورة الفرنسية، وكتابات جان جاك روسو عن إن الإنسان خير بطبعه، و«أنشودة الفرح» اللي لحنها (بيتهوفن) في سيمفونيته التاسعة تأييداً للثورة الفرنسية.. إلخ.

ثم نظر إلى الجميع مضيئاً:

- ثورة يناير ثورة ضد القديم كله، النظام والجيل والزمن والتاريخ. الفرق بينا وبين ثوار يناير إننا عارفين دا، وإننا بنمارس أكثر آليات هدم العالم القديم تدميراً وتطرفاً. لكن دا في حد ذاته سبب، ها يؤدي لفشل ثورة يناير بما هي ثورة سياسية، وإن كانت ها تترك أثرها على الجيل اللي

(١) يستعمل فريد «قيامية» كمحاولة لترجمة Apocalyptic، أي ما يتعلق بنهاية العالم.



بلورها كأهم تجربة صنعت وعيه. شباب الثورة عارفين هما رافضين إياه، بدون معرفة ما يجب أن يكون. رافضين حتى أنفسهم. وبالتالي - مع غياب بدائل - النظام القديم راجع في كل الحالات على المدى البعيد.

ساد صمت قصير، ثم ضحكت (يمنى) قائلة:

- كل دا، ولسّا ما حششناش. ولّع يا عمّ.

كادوا يضحكون، أو يعلّقون، لولا أن سمعوا (فريداً) يقول بهدوء، وهو يلتفت إلى (منصور):

- وأنت يا أستاذ.. ما فيش تعليق على القصيدة؟

اعتدل (منصور)، كأنما أفاق من حلم، وتردد لحظات، ثم قال:

- فيه..

وصمت حائراً، فعاد (فريد) يسأله:

- يعني الموضوع عن السما والشهادة.. ودا بيتقاطع مع كلامك من كذا شهر عن «عدم ترك مكان للسما على الأرض».

تنحنح (منصور)، ثم قال متجنباً النظر ناحيته:

- ما عنديش خبرة كويسة بـ(أمل دنقل)، لكن لو كان زي ما بتقولوا فيبقى نصّ (فكتور) قدير يكتشف جوهر (أمل).

تابعه (فريد) بهزات بسيطة من رأسه، فيما بدا لـ(يمنى) للوهلة الأولى اعتذاراً ما عمّا حدث في الاجتماع، فعاد (منصور) يستأنف، وهو ينظر إلى (فريد) هذه المرة:

- اللي لفت نظري في قصيدة (فكتور) الجزء اللي بيتكلم فيه



عن كفاح الشيطان، كأن الشيطان شهيد، لكن شهادة معكوسة زي ما بتقول.

مط (فريد) شفتيه، وقال بموضوعية ولهجة تقدير بسيط:

- كويس.. كويس يا أستاذ.

ثم التفت عنه ليكمل تدخينه، وشعر الجميع أن توتر الجو قد زال، إلا (يمنى)، التي لاحظت حركة ما تحت ثلوج (فريد) الطافية، حركة لا تعرف ماهيتها، لكنها تعتقد أن تصرّفاته ليست تلقائية.

كان (هيثم) قد تناول اللاب - توب، وقام بإدارة بعض أغاني البيتلز، وأشعل السيجارة، ثم قال:

- اربطوا أحزمة مقاعدكم..

قاطع جرس الباب. ساد الصمت، ثم اتجه هو ليفتح، وتناول (اللاهوت)، الذي طلبه، من القادِم، وهو يقول:

- شكرًا يا معلم.. سلّم لي على (إبراهيم).

ثم عاد إلى رفاقه، ووضع ست وريقات مطوية على مائدة صغيرة في مركز المجلس، ثم وقف واضعًا يديه في خصره، يتأمل الوريقات بشيء من الخطورة.

التفت إلى (فكتور)، الذي كان قد تناول سيجارة الحشيش، وقال:

- اطفئها يا مان. ما لهاش داعي.

فنظر (فكتور) إلى الوريقات، ثم بدا أنه فهم، فأطفأ السيجارة، ونهض متجهًا إلى المائدة. وأمام عيون (منصور) و(سلمى) المندهشة، التي لم



تشهد هذا الموقف من قبل، نهض (فريد) كذلك، بعد أن نهض (فكتور)،
وقام كل منهما بخلع (جاكيت) بذلته، وقام (فريد) بخلع رباط عنقه
تماماً، في جدّية كبيرة، كأنهما بصدد أمر عظيم. هذا بينما انحنى (هيثم)
على الوريقات، وبدأ بفكّ كل منها بحرص شديد، ثم أفرغ ما فيها في
طبق صغير. كان مسحوقاً أبيض ناصعاً. وحين انتهى قال:

- آسف يا سادة.. دالوقتي اربطوا أحزمتكم، علشان الرحلة الحقيقية
ستبدأ.

قالت (يمنى) قلقةً:

- بوردرة؟

قال (هيثم):

- لا يا عسل.. دالاهوت غربي.. كوكاين يعني.. اللاهوت المناسب
للمرحلة القادمة.

ثم أردف:

- دا- أيها السيدات والسادة - أعلى جودة متوافرة في أوروبا.

سألته (يمنى) بفضول:

- ودا جابه (إبراهيم) إزاي؟

- هو (إبراهيم) لوحده جنّ. دا موزّع كبير على فكرة، أنا مش بأعامل
مع الصغار. لكن الجودة دي تحديداً أنا حولت له بت - كوين Bitcoin
علشان يشتريها من (دريم ماركت) على الديب - ويب Deep web.

ثم انتزع من الجبل الأبيض الصغير سَطراً واحداً، ولم يكلف نفسه



عناء هرسه، بل أخرج ورقة بمائة جنيه كالعادة، ولفّها في شكل أسطوانة، ثم استنشق السطر في قوة، وجلس على مقعد جوار مقعد (فريد). وفعل (فكتور) بالمثل، وعاد إلى مقعده، وكذلك (فريد). أما (يمنى) فقد هزت كتفيتها، واتجهت إلى الجبل، قائلة:

- أوكي.

وأشار (هيثم) للجميع قائلاً:

- كل واحد سطر بس يا جماعة، أنت يا (سلمى) تعالي.

فجاءته (سلمى) مسرعة، وقد بدت عليها فرحة كبيرة؛ فهو سيسمح لها للمرة الأولى بتجربة الكوكابين، وقالت، وهي تجمع الوريقات الخاوية، ثم تشرها في الهواء فوق رأسها كالأطفال:

- أنا لازم أرقص.

قال (هيثم) وهو يعد لها سطرًا:

- أول ما ها تسحبي، ها ترقصي غصب عنك.

تأملهما (فريد)، وقد بدأت النشوة النارية إياها، التي يطلقها الكوكابين، تجتاح أعصابه. ومع بدء النشاط العام في مخه تحت ذلك التأثير تساءل فجأة: «هل كنت ذات يوم طفلًا مرحًا كـ(سلمى)؟ هل بحثت في (سلمى) عن طفولة مفقودة؟» وحين بدأت الوريقات، التي نشرتها (سلمى)، تهوي على رأسه هو، تذكر بشكل تلقائي مقطعًا آخر لـ(دنقل):

«مصفوفة حقائبي على رفوف الذاكرة»



والسفر الطويل..

يبدأ دون أن تسير القاطرة!

[...]

وها أنا في مقعدي القانطُ

وريقة.. وريقة.. يسقط عُمرِي من نتيجة الحائطُ

والورق الساقطُ

يطفو على بحيرة الذكرى، فتلتوي دوائرًا

وتختفي.. دائرة.. فدائره!»



٣- أساليب غير نظيفة

بعد شهر، وقرب منتصف ديسمبر ٢٠١١، كان (أدهم) على موعد جديد مع قائده؛ ليرفع إليه تقريره الشفهي. جلس أمام مكتبه:

- إزيك يا (أدهم)؟

- تمام يا فندم.

- عال.. اتفضّل.

أخذ (أدهم) نفسًا عميقًا، ثم قال:

- نسبة النجاح ١٠٠٪. الأهداف كلها تم تحقيقها بأعلى درجة من النظافة. ما فيش أي أدلة. ما فيش أي ثغرات. التعاون مع الفريق ممتاز.



أوماً القائد قائلاً:

- عظيم.

ثم أردف:

- و(فريد)؟

امتنع (أدهم) عن سؤاله عن مقصوده بالضبط حسب ما تدرب عليه،
وقال:

- كان نصيبه هدفين من العشرة. واستعمل السلاح الناري مع واحد.
دي كانت أول مرة يستعمله، وأول مرة يقتل بشكل مباشر، طبعاً باستثناء
المجنّد اللي خبطه على الطريق، وحتى دا كان قتل خطأ.

- وهو الوحيد في الفريق اللي ما قتلش حد مباشرة قبل كدا.

- دا صحيح يا فندم.

- وإزاي تعامل مع الموقف؟

سبحت عينا (أدهم) في الفراغ، وهو يقول مفكراً:

- وجهة نظري الشخصية إنه مؤهل لدا فطرياً. ولو عاوزين وجهة نظر
أشمل يا فندم، ممكن أقول: أن (فريد) و(سلمى) بس هما المؤهلين
فطرياً للقتل في المجموعة كلها.

بدا له أن هذه النقطة بالذات قد أثارت اهتمامه، وهو يسأله:

- وليه بتقول كدا؟

تفكّر (أدهم) ثانية، وهو يجيب:



- (سلمى) القتل عندها سهل جداً بالنسبة لباقي الفريق. واختارت من البداية أصعب وسيلة. هي تلقائية جداً.

شرد القائد لحظة، قبل أن يعيد النظر إليه قائلاً:

- تمام. وبالنسبة لـ(فريد)؟

فكر (أدهم) بعمق أكبر، وهو يجيب:

- (فريد) عكس (سلمى). حصل موقف صغير مع أحد الأهداف، اللي المفروض كان مهمة (يمنى): اضطر (فريد) أنه يتعاون مع (يمنى) في التخلص من الهدف. وكانت وسيلة التنفيذ هي السلاح الناري اللي مع (يمنى). الهدف عرف أنه ها يتصفى؛ لأن...

أشار له القائد بالقفز على هذه النقطة، فاستأنف:

- .. اللي حصل إن الهدف بدأ يتوسّل لـ(يمنى).. وبرغم إن (يمنى) ما ضعفتش.. أخذ (فريد) منها السلاح، وفي لحظة واحدة قتل الهدف بكل بساطة.

ازداد اهتمام القائد قائلاً:

- وتعتقد ليه عمل كذا؟

مط (أدهم) شفتيه، ثم أجاب:

- لسببين: الأول إنه (فهم) إن (يمنى) ها تضعف، أو ممكن تضعف. أنا بأكّد إن (يمنى) لم تتراجع، لكن هو بيثق في تقديراته الخاصة. السبب الثاني: إنه فعلاً فاقد التعاطف مع البشر؛ بمعنى إن القيم الأخلاقية، اللي بتحكم تصرفاته، كلها مبنية على التمييز بين الحق والواجب، مش الشفقة والإيثار مثلاً اللي عند أغلب الناس، لما بيعملوا الخير يعني.



تراجع القائد مستنداً إلى مقعده الدوّار، وقد ارتفع حاجباه في شروء أكبر. وللمرة الثانية بدا اهتمامه لـ(أدهم) أكثر من المتوقع. ساد صمت مفعم بالأفكار، قطعه القائد قائلاً:

- طيب.. وحالته؟

ازدرد (أدهم) لعبابه، ثم أجاب:

- مستقرة. نوبات (تبدد الحقيقة) إياها مرت به مرتين أو ثلاثة أثناء التدريب، لكن لم يكن لها تأثير سلبي على الأداء.

- وبالنسبة للمستقبل.. الفريق النفسي شايف إيه؟

- الفريق النفسي شايف إن النوبات دي وارد جداً تتكرر فيما بعد. ممكن تتطور لفصام، وممكن لأ، وممكن تختفي تماماً.

فكر القائد قليلاً، ثم قال:

- وإيه نسبة احتمال تطورها؟

- الفريق النفسي يقول: ٣٠٪ بس.

- بس؟

بدا (أدهم) كأنه يحاول اختيار الكلمات بعناية، وهو يقول متأنياً:

- (فريد) نفسه شايف إن الفصام قادم.

- وهو معاه تخصص في النفسية؟

- دبلوم.

هز القائد كتفيه قائلاً:



- طيب.. إيه أهمية رأيه هنا؟

فكّ (أدهم) ربطة عنقه قليلاً، وقال، وهو يعتدل في مقعده بقدر من الحرج:

- زي ما علمتنا يا فندم، سيادتك بتهتم بالتقدير الشخصي. وتقديري..
أعتقد إن فهمه هو لحالته أدق من الفريق النفسي.
حدق فيه القائد بتساؤل بارد قائلاً:

-ليه؟

أشار (أدهم) قليلاً بيديه، وهو يجيب:

- عن نفسي بأثق في رأيه أكثر، السبب الأول إنه دقيق التوقع في
الغالب بشكل عام، وموضوعي، غير قابل أصلاً للانحياز ضد الوقائع.
السبب الثاني إن ممكن جداً تكون هناك معلومات عن الحالة هو بس
اللي يعرفها، ووارد إنه لا يصرح بها لأي حد على الإطلاق. هو بطبيعته
كتوم.

أوماً القائد مفكّراً. وساد الصمت، ثم تنحنح (أدهم) معلناً قدراً آخر
من الحرج، وهو يقول بانتقاء أكبر:

- فيه تفصييلة مختلفة يا فندم، بصدد (سلمى)، لم ترد في التقرير
المكتوب. هي قد تبدو تافهة، لكن أعتقد إنها مهمة.

وصمت، فقال القائد:

- قول.

تنحنح (أدهم) ثانيةً، وقال خافضاً صوته فيما بدا أن ما سيقوله مشين:



- (سلمى) استعملت أسلوب الإغواء الجنسي مع هدف. والهدف كان رقم ٣.

اعتدل القائد على مقعده في صدمة، وقال مستنكراً:

- رقم ٣؟

- أيوا يا فندم.

نظر القائد إليه في إمعان وخطورة، وسأله مستفسراً بكفه ذات الأصابع المفتوحة:

- هي..؟

هز (أدهم) سريعاً رأسه في نفى قاطع، وهو يقول:

- لا.. لا.. إطلاقاً يا فندم. المجموعة كلها (ستريت) straight. لكن (سلمى) ارتجلت شوية.

أشار القائد رفضاً بكفه، وهو يقول في صرامة واشمئزاز:

- لا يا (أدهم). ما عندناش كِدا. مش عاوزين الأساليب الوسخة دي.

أوماً (أدهم) إيجاباً، وهو يقول:

- تمام. أكيد يا فندم.

أشار له القائد بسبابته:

- توصل لها تعليمات قاطعة في هذا الشأن.

- حاضر يا فندم. ولكن الأفضل التعليمات دي توصلها عن طريق (هيشم). هي بتثق في (هيشم)، ومعلوماتنا إنه الوحيد اللي له سلطة عليها. والدها نفسه مالوش سلطة في غيابه.



- يبقى كذا.

وساد الصمت من جديد، ثم شبك القائد كفيه على المكتب، وتأهب،
ففهم (أدهم) أنه سيطرق نقطة مختلفة:

- (أدهم).. أنا عاوز اتصال مباشر بين (فريد) والقيادة.

فوجئ (أدهم)، لكنه تجاوز الدهشة بسرعة، وتحركت عيناه في
حيرة، وهو يسأل:

- تقصد بالسيد (عزت) يا فندم؟

أجابه القائد في برود مباشر:

- لا.. بيّا أنا شخصيّا.

صمت (أدهم) لحظة مفكرًا، ثم تغلب على أفكاره قائلاً:

- وهو كذلك يا فندم.

ثم تراجع القائد صامتًا، ففهم (أدهم) أن اللقاء انتهى، فاستأذن،
وتوجّه للانصراف، لكن القائد استوقفه بقوله وهو يشير بسبابته:

- (سلمى) توصلها تنبيهات قوية يا (أدهم). الاستقامة أهم شيء.



٤ - الرقص على إشعاع هوكينج

انتهاز (هيثم) فرصة تأخر (سلمى) قليلاً قبل نزولها؛ لتلحق ببقية
رفاقها الموزعين على سيارته، وسيارة (فكتور)؛ وذلك كي يستنشق



سَطْرًا من الكوكابين، ثم اعتدل قائلاً لـ (فريد) الجالس وحيداً في المقعد الخلفي يدخن:

- كذا الواحد يبقى باشا، ويعرف يتعامل مع الأشكال بنت الـ**** بتاعة وسط البلد.

تناول (فريد) منه وريقة تحمل سَطْرًا آخراً، وهو يقول:

- إحنا مش محتاجين نبقي باشوات. إحنا بنعمل اللي ما حدش من شباب الثورة دول يقدر يعمله.

- وبنطلع زي الشعرة م العجين.

- إحنا ما عندناش عجين نطلع منه.

ثم استنشق (فريد) سطره في عمق شديد، وبدأ يشعر بالألم اللذيذ في عظمة الأنف، ثم بالتأثيرات المعرفية الواردة في حالته، شعر أن عقله بلا حدود، وأنه فجأة اتصل بالعالم، ويستطيع استكشاف أي شيء، وحل أي لغز، كما لو كان من قبل شديد الغباء!

أخيراً جاءت (سلمى) بمشيتها الخفيفة البسيطة المتهادية، وتطلع إليها (فريد) من بعد، حيث رآها ترتدي ثيابها القصيرة والمفتوحة تحت معطف مفتوح بدوره. وحين اقتربت وجد أنها قد وضعت بعض المساحيق على غير العادة. وفكر: مظهر يتكشف عن أبعاد أجمل دائماً مع الوقت، وباطن تنفّض منه أغوار أكثر إفراغاً.

دخلت (سلمى) إلى السيارة، وتبادلوا التحية. ثم أشار (هيثم) لـ (فكتور) بأضواء سيارته أن يتبعه، فتحرك (فكتور)، وهو يقول لـ (يمنى) الجالسة جواره، و(منصور) الجالس خلفه:



- والله البلد لسا بخير طالما البنات تقدر تمشي كدا ف الشارع.
- قالت (يمنى)، التي فكّت صفائرها، وفردت شعرها المجعد بمستحضر ما، فبدت مختلفة:
- بخير إيه؟ أنت ما شفتش فيديو فتاة مجلس الوزرا النهار دا؟
- أشار لها (فكتور) هاتفاً:
- أبوس إيدك.. بلاش سيرة الثورة الليلة، إحنا رايعين نحتفل.
- صمتت، وهي تمطّ شفيتها، بينما قال هو لـ(منصور):
- رقصت قبل كدا يا مان؟
- قبل أن يجيب (منصور)، هتفت (يمنى):
- إحنا رايعين نرقص؟
- قال (فكتور)، وقد بدا في قمة السعادة:
- أيوا.. (هيشم) بعث لي قبل ما نتحرك. ناوليني سيجارة.
- ناولته إياها، وهي تقول:
- وها نرقص مع مين؟ أقصد يعني إحنا فينا بنتين بس.
- نفث دخانه، وهو يقول:
- أنا شخصياً ها أقابل (مارلين) هناك. وبعدين الجوّ هناك بيتقى زحمة، وكل واحد ها يلاقي شريكة رقص، ما تقلقيش.
- قال (منصور)، وهو يسعل بسبب سيجارة؛ حيث بدأ التدخين حديثاً:
- أنا مش بعرف أرقص.



نفخت (يمنى) دخانها بدورها، وقالت ملتفتةً إليه:

- أقولك على وصفة كويسة: وقت ما الموسيقى تهدا اقعد، ووقت ما تسرع ارقص.

نظر له (فكتور) في المرأة قائلاً:

- ما حدش هناك بيعرف يرقص، لكن الموسيقى لما بتسرّع الصالة بتتزحم، وكله في الزحمة بيستخبي.

وبعد قليل توقفت السيارتان قرب صالة الرقص، فغادروهما، ثم دخلوا إلى الصالة، وجلسوا إلى المائدة، التي حجزوها، وطلبوا بعض الشراب. وكالعادة جاء أحد العاملين؛ ليتأكد من بطاقة (سلمى) الشخصية أنها فوق السن القانونية. لاحظت (يمنى) أن (مارلين) لم تأت بعد، فسألت (فكتور):

- هي (مارلين) مش جاية؟

بدا قلقاً، وهو يتلفت حوله، محاولاً اختراق الزحام، الذي بدأ يتكوّن في دائرة الرقص، ببصره، وقال:

- هي مش من عاداتها تتأخر.

ثم نظر إلى المائدة، ويظهر أن معنوياته المتقلّبة قد انخفضت في تدرّج سريع. نظر إلى (هيشم)، الذي فرغ من طلب بعض المأكولات الخفيفة، وقال:

- شفت النهار دا اللي حصل في اللقاء الأدبي؟

جرع (هيشم) من كوب البيرة، وقال:



- إيه؟ طالبوا بصلبك أخيراً؟

فضحكت (يمنى)، و(فكتور) يقول بمزيد من الغضب:

- الشاعر البض-**- اللي اسمه (ممدوح عابد).. الواد دا بتاع «السقيفة
مرجومة بالكواكب» (ونطق «مرجومة» بتفخيم متعمد للجيم المعطشة)
كان حاضر اللقاء، وكنت بألقي نصي اللي سمعته قبل كدا، بتاع إعادة
بناء (أمل دنقل)، المرة دي ألقيت النص الكامل، المكتوب أصلاً في
ست صفحات. خرج علشان تليفون في منتصف النص، وبعدين رجع
بعد ما انتهيت، وعلق: «النص جميل، ولكن ما الذي أضافه (فكتور) إلى
(دنقل)؟» وهو أصلاً ما سمعش نص النص!

ارتشف (فريد) من بيرته، وقال ببساطة:

- كنت تقول له: «أضفت وأنت برّه بتكلم في التليفون».

ضرب (فكتور) غاضباً سطح المائدة:

- للأسف ممنوع التعليق من صاحب النص.

وضع (فريد) ساقاً على ساق، وهو يقول:

- لا يا مان.. بعد كدا اختار جلسات مسموح فيها بالتعليقات. وما
تدخلش نفسك من البداية في طريق ضيق؛ طالما عارف أن شغلك
محتاج توضيح.

قالت (يمنى) ضاحكة أكثر من اللازم، وقد بدأ رأسها يحتر من
الخمير:

- اتعلم الاستراتيجية يا (فيكي).



التفت لها قائلاً في غيظ:

- الواد دا هو اللي بَصَّ* على الوسط الأدبي كله في القاهرة. موجود في كل حته، وكل تعليقاته زيه. وكل شعره مُلتزم بالقيم التقليدية الأخلاقية والدينية، كأنه مخصص (للقراءة العائلية).

ثم هتف بالفصحى بإصرار، كأنه يرفع شعاراً في مظاهرة:

- على الفنّ أن يكونَ أكثرَ شراً من الحياة.

بدأ حوار (تارانينو) يتصاعد، حين قال (هيثم):

- أيوا.. كل تعليقاته بفصحى درعية، وتحسّ إنها جاية من امتحانات النصوص بتاعة الإعدادية: «أي التعبيرين أجمل ولماذا؟»

هتفت (يمنى) مندهشة، وهي ترفع صوتها على صوت الموسيقى:

- والله؟ كان فيه سؤال كدا؟

هتف (هيثم) ضاحكاً:

- أيوا.. أنتِ مش فاكدة؟

اندمج (فكتور):

- فعلاً.. ومتصوّر نفسه ناقد. دا بيقول عن نفسه علناً إنه ناقد! وهو كل كلامه «مظاهر الجمال» بتاعة كتاب القراءة. بس بيلقي شعره كويس، وشعره بسيط في مستوى المتلقي العبيط.

ضحكت (يمنى) بملء فيها، وقد انحنت على المائدة، فالتقط (فريد) صورة نهديها الأسمرين الكبيرين من فتحة ثوبها لجزء من الثانية، ثم رفع كوب البيرة، وهو يفكّر: الجمال الأسمر الناضج (يمنى) في مقابل



الأبيض الشاب (سلمى). أيهما يختار لو كان له الاختيار؟ فكّر قليلاً، ثم اختار الأبيض الشاب بلا مزيد من التردد، وبلا رغبة في التجريب. وخطر له أنه شديد التطرّف في إدراك اللذات، كأنه سيموت بعد أي لذة. هنا.. شاهد الجميع أمراً لم يتوقعوه إلى حد ما: رأوا (منصوراً) وهو ينهض، ويطلب يد (سلمى) للرقص. نهضت معه باسمته في بساطة، وغابا في حشد الراقصات والراقصين. فالتفتت (يمنى) إلى رفاقها، وقالت متعجّبة بابتسامة:

- رومانسي!

أوماً (هيثم) إيجاباً:

- أيوا.. (منصور) رومانسي.

التفت له (فريد) فجأة:

- وأنتَ؟

لم يفهم (هيثم) للوهلة الأولى مقصوده، فأشار (فريد) إشارة خافته برأسه إلى ما خلف كتفه. وحين التفت تجمّدت ملامحه في مفاجأة، ثم عاد يلتفت إلى مائدتهم صامتاً، وعلى وجهه أمارات الحيرة والصدمة والتوتر. نظرت (يمنى) إلى حيث نظر، ثم قالت له:

- مش دي مراتك، طليقتك أقصد؟

خفض (هيثم) رأسه، كأنما يخشى أن تراه طليقته، وأوماً إيجاباً في خفوت. فقالت هي:

- القعدة طلع فيها دراما.



نظر (فكتور) بدوره، وقال:

- أتَعْشَم ما تكونش ميلودراما.

ظل (هيثم) يفكّر، فسألته (يمنى) بهدوء:

- ها تعمل إيه؟ (غادة) لسه بتحبك.

هز (فكتور) كتفيه، وهو يشعل سيجارة؛ لأن الغليون ممنوع في المكان:

- اطلبها للرقص. ما وافقتش مش مشكلة، يبقى اتحسم الأمر. ولو وافقت شوف السكّة بعد كدا.

نظر له (هيثم) مفكّرًا، ويبدو أن كلامه قد لاقى هواه؛ فبالنسبة له يعتبر (فكتور) صوت القلب، أما (فريد) فصوت العقل. بالفعل، فحين نهض متّجهاً إلى البار، حيث وقفت (غادة) مع بعض أصدقائها، أمسك (فريد) ساعده بثبات، وقال:

- فكّر يا مان. بلاش ردة. أنت ما صدقت نسيته. والمُرتدّ يُقتل.

بدا (هيثم) كأنه يتخذ قرارًا مصيريًا، وهو ينظر إلى وجه (فريد) الجادّ الجامد معقود الحاجبين، ونظرة (فكتور) المشجّعة، وابتسامة (يمنى) المباركة، ثم غادرهم إلى البار. فتنهّد (فريد) في أسف قائلاً:

- مع السلامة يا (هيثم).

قال له (فكتور):

- كدا أحسن له؛ هو حتى الآن مش عارف إن كان نسيها، ولا لأ.

ثم مال عليه، ليناوله سيجارة، تمت إعادة ملئها بعد حشوها بقدر



بسيط من الحشيش، لتبدو بالضبط كسيجارة المصنع. ناول أخرى
لـ(يمنى)، ثم قال في سخط مفاجئ:

- الواد دا نفسي أقتله.

أشعل (فريد) السيجارة، وهو يقول بلا مبالاة:

- ما تقتله.

سألتهما (يمنى):

- مين؟

جرع (فكتور) كأسه حتى الثلج في قوة، وهو يقول محتقناً:

- (ممدوح).. بتاع مظاهر الجمال.

ثم هتف بحقد وانفعال أكبر:

- وعامل نفسه متدين وفقيه.. دا أنا أفهم في الإسلام أكثر منه. هو كل

اللي درس في (دار العلوم) أستاذ إسلاميات؟

ارتشف (فريد) من البيرة، وقال بهدوء:

- التدين بيمنح صاحبه في مجتمعنا، مهما كان سطحي في أفكاره

وأطروحاته، احترام عام ما لو ش أي أساس حقيقي. والتدين في (دار

العلوم) بالذات (نمط) سائد. الدخول بالملابس الدينية.

نظرت (يمنى) إلى (سلمى)، حيث ارتفع ثوبها عن فخذيها عدة

مرات بحركات رقص بالغة النشاط، وقالت بسخرية:

- ويبدو أن في (آداب) الدخول بلا ملابس.



ثم سمعوا بغتة صوت (مارلين) إلى جوارهم قائلة:

- فيفي .. معلش اتأخرت.

أشارت له (يمنى) ضاحكة:

- فيفي!

حيّتها (مارلين)، فقالت:

- أنتِ كِدا حلّيتي لنا مشكلة عويصة. خلاص ها ندلّعه بعد كِدا (فيفي).

ضحك (فكتور)، وقد تلاشى غضبه بحضور فتاته، ونهض معها نحو دائرة الرقص، ملقيًا بسيجارته المحشوة في المطفأة. استشعر كل من (يمنى) و(فريد) بعض الحرج في انفرادهما، الذي لا يحدث إلا نادرًا، فقال (فريد) محاولًا عدم ترك مساحة للصمت:

- البنت اتبهدت.

نظرت له (يمنى) لحظة، ثم قالت:

- آه.. دا غير كلام الناس ف الشارع وعلى القنوات الدينية: «إيه اللي وذاها هناك؟»

- عرفتِ إن معانا الحق؟ الناس دي كلها مجرمة. وكل فضيلة مش «وسط بين رذيلتين» زي ما قال أرسطو. بالأحرى كل فضيلة تبرير لرذيلة. سلسلة طويلة عبارة عن: فضيلة، رذيلة، فضيلة، رذيلة.. وهكذا. لكن اللي ها يبص على السلسلة دي بنظرة متفائلة ها يظن إن كل فضيلة بين رذيلتين، مع إن برضه كل رذيلة بين فضيلتين.



- الموقف خلّاني أتساءل عن معنى الفضيلة فعلاً. يعني اللي بتعمله (سلمى) في استدراج أهدافها بالجنس، والتخلص منهم، أنا شايفاه أبلغ رد على «إيه اللي ودّاها هناك؟»
أوماً موافقاً، وهو يقول:

- (سلمى) بتمارس الجنس، وتقتل عشاقها، علشان تحرر جسمها. في المقابل المجتمع ممكن يقتل علشان يقيّد جسمها. هي بقى (ما راحتش هناك). هي فضحتكم، وأثبتت إن أي حد فيكم مش ها يقاومها، وبتيجي تصنيفته كعقاب دموي عادل على نفاقه، ونفاق المجتمع ككل.
ثم نفّض رماد سيجارته، وهو يستأنف:

- بشكل عام أنا شايفها بطّلة. وقدّرت تتجاوز موقف فتاة مجلس الوزراء؛ لأنها كانت أسرع في فهم وضعيتها جسمها في المجتمع، وأكثر جرأة بما لا يُقاس.

ونفث دخانه، وهو يقول شاردًا:
- الأرملة البيضاء.

هزّت رأسها في إعجاب بالمنطق والتشبيه، وهي تنفث دخانها في خيط رفيع أبيض، جعلته الإضاءة العارضة متوهّجًا. وحين وصل إلى وجه (فريد) قال متأفّفًا في مزاح:

- مش لازم (إشعاع هو كينج) دا.
نظرت له للحظة مرة أخرى، ثم قالت:
- إيه إشعاع هو كينج؟



- هو كينج عالم فيزيا وفلك إنجليزي ..

- عارفاه .

- فيه ظاهرة كمومية اسمها Materialization بتحصل عند الثقوب السوداء . بيتنج عنها إشعاع مركز زي الدخان دا . اسمه إشعاع هو كينج .

ابتسمت ، وقد لاحظت - بإعجاب باد - أنه ضمّن لون بشرتها في المَجاز ، رغم أنها ليست داكنة إلى ذلك الحد . اعتدلت في جلستها لتواجهه أكثر ، وقالت :

- أنا عاوزة أفهم أنت بتعرف كل دا إزاي .

اعتدل هو للخلف ، ونظر إلى الأفق ، وقال بما ظهر لها غرورًا (لكنه لم يبدُ له كذلك) :

- مُهمّتي أعرف .

تأملته لثوانٍ بمكر ، ثم التقطت شهيقًا من سيجارتها ، وفكرت لحظة ، قبل أن تسأله :

- أنت مش ها ترقص ، قبل ما الرقصة السريعة تخلص ؟

نظر إلى أكواب البيرة المرصّعة بالرغاوى ، التي تلالأت في الإضاءة المتقطّعة الصارخة ، وفكّر أنها الليلة جميلة فعلاً ، خاصة بعد أن فكّت صفائير ميدوسا إياها ، لكن تجربته مع (سلمى) قد غيرت فيه شيئًا تجاه المرأة إلى غير رجعة ، وهو ما اختبره في العلاقات العابرة بعدها . قال :

- ما بعرفش أرقص .

- مهمّتك تعرف !



تفكر لحظة، ثم نهض طالباً يدها قائلاً:

- وهو كذلك.

واتجهها إلى دائرة الرقص في مركز المكان، وقد بدأ الناس يغادرونها،
حين هدأت الموسيقى فعلاً. فترددت (يمنى)، وسألته:

- ها نرْجع؟

تردد أكثر منها، وهو يراقب مواضع قدميه على الساحة، التي أظلمت
إلى حد ما، ثم شعر بأن (يمنى) الليلة مختلفة، وقادرة على تبديد وحدته،
التي يحس بها أشدَّ في الزحام اللامبالي. رفع لها رأسه، وقال:
- تعالي نجرِّب الرقص الهادي.

وبدأ رقصةً بطيئة، على موسيقى Lara's Theme للموسيقار Maurice Jarre.^(١) تعلَّقت (يمنى) بعنقه، لكن ذلك بدا له مختلفاً عما إذا فعلته
(سلمى) مثلاً؛ شعر أنها لا تتعلق به بالضبط، بل تضمه إليها في رحابة،
وهو ما جعله يشعر بالضيق؛ لأن الوحش الكامن في الجليد بدأ يتقلَّب
في قبره المنسي.

ثم أنزلت هي يدها الممسكة بالسيجارة، التي لم تُردِّ التخلص منها؛
لأن بها حشيشاً، وأخذت نفساً منها، ثم عادت ترفع يدها لتتعلق به،
فلسعته السيارة في جانب عنقه الأيسر لسعاً بسيطاً، لكنه بدا لها كأن
لم يشعر به!

قالت:

(١) هي كذلك الموسيقى التصويرية لفيلم د. جيفاجو 1965 Doctor Zhivago.



- سُوري.

ابتسم قائلاً:

- ولا يهتمك. مش با أحس به.

نظرت له في صمت لحظة، ثم قالت مستغربة:

- مش بتحس باللسع؟

- لا، بالنص الشمال.

رأى نظراتها المتسائلة المتعجبة، فقال:

- عندي تلف دائم في الأعصاب، يجعل الإحساس في كل نُص الجسم الأيسر ضعيف مقارنة بالأيمن. ما فيش طبيب عرف السبب أو العلاج. ممكن السيجارة؟

- أرميها؟

- لا.. ممكن نفس؟

أخذت نفساً من السيجارة، ثم نفخت الدخان ببطء شديد في وجهه باسمه، فتحوّلت الموسيقى في أذنيه إلى أبواق إنذار: «الوحش يتحرك في الجليد!»، «الوحش كبر ولم يعد ماموثاً. صار حوتاً أزرق!» - لو - فقط - يملك لجاماً لهذا الكائن! فكّر - على سبيل الخلاص - أن يصب على الموقف المزيد من السوداوية، التي تنفر هي منها بطبيعتها الأكثر مَرَحًا، فقال:

- عموماً هي مسألة وقت؛ لأن في نُص الجسم الأيسر برضه تكلّسات ما لهاش سبب أو علاج معروف، ووارد توصل للكلّي أو القلب.



نظرت له صامته لحظة ببسمة هادئة غامضة، ثم ضمّته إليها بحرص،
بحرص شديد؛ كيلا ينكسر. همست في أذنه:

- كِدا حاسس بُنْصِي اليمين على نُصْكَ الشُّمال؟

في الواقع شعر بالنصفين، ربما بأنصاف أخرى إن جاز ذلك. وقد يكون ذلك - كما يظن - تأثير الحشيش. تسربت إلى صدره حرارة نهديها الكبيرين. لا بدّ أنهما أكبر مما لدى (سلمى). لكنه لم يشعر بإثارة، بل بصدر أمه الكبير وهي تحتضنه، ذلك الحضن الذي يمقته لسبب مجهول. ماذا سيحدث إذا ذاب الجليد في تلك الحرارة؟ هل يخرج الوحش؟ هل يظهر كاملاً لأول مرة؟ وكيف يبدو ذلك؟ واستغرب حين لاحظ للمرة الأولى أنه لا يعرف كيف يبدو!

سمعها تهمس:

- أنا عندي استنتاجات بخصوصك.. ينفع أقولها؟

- اتفضّلي.

- ولو صح توعدني أنك تقول «صح»؟

- (برود) أنت متصورة إنني ممكن أبقى صريح؟

- متصورة أنك لو وعدت ها توفي بوعدك. لو ما وعدتش مش محتاج تكذب علشان تموّه الحقائق.

- ما فيش حقائق.

- فيه حقوق؟

- طبعاً.



- لو وعدتني ها يبقى حقي عليك أنك تقول ما تعتقد بالضبط.

- صحيح.

- اوعدني.

- مش من واجبي أوعدك.

- علشان مش بتثق فيا؟

- أيوا.

- طيب هل ممكن نمثل إنك بتثق فيا، وتوعدني.. ولو على سبيل اللعب؟

فكر لحظة، وقال ببساطة:

- أوكي.

تأنت لتختار كلماتها، ثم قالت:

- أنت ف حياتك جرح عاطفي كبير تسببت فيه امرأة.

- صح، بس مش دقيق. ما أقدرش أحدد إذا كان ينفع أسميه «عاطفي» بالضبط.

- وأنت.. بعيد عن والدتك.

- صح.

- وبتحس بالوحدة غالبًا.

- صح.

- والبرد.



- صح.
- وكنت طفل وحيد، أو ما سُفتش طفولة بالضبط.
- صح.
- مش بتثق في حد.
- إمامم.. صح.
- ابتعدت قليلاً لتواجهه بناظريها، فانخفض فحيح تلامس النار
والجليد إياه في أذنيه، وقالت بنظرة مباشرة:
- هأسألك سؤال ثاني غير شخصي. توعدني ترد بصراحة؟
- بادلها النظر قائلاً ببرود:
- دا خارج اللعبة؟
- إيش معنى؟
- علشان طالبة وعد ثاني.
- نظرت إليه لحظات، وهي تنقل عينيها بين كلتا عينيهِ، ثم همست ببطء
ضاغطة على مخارج كلامها:
- أنا ها أترك لك حرية اختيار درجة الصراحة.
- اسألني.
- أخذت شهيقاً، ثم قالت بلهجة أكثر جِدًّا:
- أنت بتلعب لعبة قدرة مستمرة مع (منصور).
- مط شفتيه، وقال:



- مش عارف إذا كانت قدرة، أو إذا كانت قدرة في رأيك لأنك بتسميها (لعبة)، لكن بشكل عام أنا بالعب مع كل الناس.

- أوكي.. بكلمات أخرى: أنتَ عاوز إيه من (منصور)؟

- عاوزه يتعلم.

- يتعلم إيه؟

- يتعلمني.

- ليه؟

- (منصور) ها يبقى دوبلير. ها يعمل اللي ما أقدرش أعمله. وها يعيش أكثر مني.

نظرت إلى عينيه، محاولة استخلاص ما وراء الإجابة الشفهية. قالت:

- هل ممكن تثق فيّا؟ بجد أقصد مش لعب.

- من باب «إن كل شيء في الطبيعة وارد».. وارد.

رمقته بتركيز أكبر، وقالت:

- إيه اللي أعمله علشان تثق فيّا؟

- أعتقد ثقتك أنت فيّا هي أول خطوة منطقية.

شعرت أنها تحاول تجاوز مسافات شاسعة وأسوار شاهقة من المعقولات، يمدّها، ويلقيها بينهما، لكنها أحست مع هذا بقدرتها على ذلك. أخذت شهيقاً آخر مفكّرة، وقالت:

- أنا مش فاهمك. بالتالي ها أثق فيك إزاي؟



- دا السؤال.

احتارت، فقررت أن تقفز فوق السور:

- أوكي.. أنا ها أثق فيك.

- بمعنى؟

- بمعنى.. بمعنى إني ها أصدق أنك مش ها تعمل حاجة تضرني، أو

تضر حد منّا.

- مش الفرد في سبيل المجموع؟

- آها.

- والمجموع في سبيل إيه؟

- في سبيل فكرة.

- يبقى أنا وغيري في سبيل فكرة.

هزّت رأسها ببطء قائلة بقلق:

- الكلام دا مخيف.

- صحيح. الشخص اللي بيعيش في سبيل فكرة لا بدّ أنه يكون

مخيف، حتى في عيون أقرب الناس له.

تأملته صامتةً مفكّرة، ثم اتخذت شهيقًا، وارتعش جسمها قليلًا بين

ذراعيه، كأنها ستقرر شيئًا خطيرًا، وقالت:

- أنا ما فيش قدامي غير إني أثق فيك.

- ليه؟



صمتت وقد ثبتت عينيها في عينيهِ، ثم قالت:

- علشان أنت قبله عَدَم موقوتة. علشان خايفة منك. وعلشان خايفة
على الكل منك. وعلشان إني أثق فيك الخطوة الأولى إنك تثق فيا.
وعلشان لو أنت وثقت في حد ممكن تتغير.

أطلق ضحكة من ضحكاته الصامتة الساخرة، وهو يقول:

- إنت نسيتي إن عندي تكلسات متزايدة؟ أنا نصف بشر ونصف
حجر. وحالياً كل واحد منا - زي ما قلنا في اجتماع في الأول - نصف
إنسان ونصف عَدَم. أنا بقى اتحولت إلى نصف عَدَم ونصف حجر.
ومش ها تقدري تغيري بالثقة لا العدم، ولا الحجر.

ارتجفت ملامحها قليلاً، وهي تقول:

- لو قدرت أغير النص الشمال، النص الحجر، على الأقل ها يبقى
معاي نص بشر.

ظل يرمقها بلا انفعال، فابتسمت قليلاً قائلة:

- أنت شايفني بحبك؟

- إنت شايفاني غبي؟

اتسعت ابتسامتها، وقالت:

- طيب شايفني إزاي؟

تمعن في وجهها، ثم قال:

- شايفك جاسوسة.

وجمت لحظة:



- جاسوسة؟! -

- بالتأكيد. لأنك بتحاولي تقللي عديميتي بشكل غير مباشر. بتحاولي تغيري عديمة أحد أعضاء النادي. ودا عمل ضدنا، عمل عدائي.

رفعت حاجيها، وقد أدهشتها حدة أحكامه، وقالت:

- واللي أنت بتعمله أو (اللي مش ها تعمله)، لوها يضر حد مننا، مش عمل جاسوسي لأنه في سبيل الفكرة.

- أنت بالتأكيد ذكية.

قررت الاستمرار في القفز فوق الأسوار، فضمته إليها بقرب أكبر، وهي تنظر إلى عينيه، عليمه أنه يستقبل حر صدرها الآن، ورأت عضلات فكّيه تختلج في توتر خافت، ثم قالت:

- أنا ها أحاول أصحّي النص الشمال أيا كانت النتائج، أو الأوصاف اللي ممكن تستعملها.

نظر إليها لحظة مفكّرًا، ثم ضاقت عيناه علامة الاكتشاف، وبدأت ابتسامة نصف ساخرة نصف وحشية تتسع على شفّتيه، قبل أن تتحول إلى قهقهة خرساء، وهو يقول:

- أنت محتاجة طفل. كان نفسك في طفل من طليقك. وحاليًا أصبح صعب بسبب التأخر.

أغمضت عينيهما في ألم، ثم فتحتهما في غضب، وقالت:

- أنت وقح.

فقال ببساطة:



- دا الاختبار الحقيقي للأمانة على كل حال.

صمتت ناظرةً له، ثم قالت ببطء:

- وأناها أنجح. لأن ما فيش أمان لحد فينا غير بنجاحي في دا. اعتبرها مهمة معكوسة من مهام النادي.

أوما برأسه موافقاً في لا مبالاة، ثم مطّ شفتيه على سبيل «سنرى». هنا أخلّى كل منهما سبيل الآخر، وخرجا من دائرة الرقص، التي بدأت تمتلئ بموسيقى الزحام. وحين عادا إلى مائدتهما، وجدت هي أن الأمور ليست على ما يُرام؛ فـ(هيشم) غاضب، ومندمج مع (فكتور) في مناقشة حامية حول الزواج. كان (فكتور) يقول:

- .. في رأي (إنجلز) الزواج نشأ أصلاً كمحاولة لحوكمة المرأة، ووضع مفاتيح الثروة في يد الرجل. شكّل غير تقليدي من الجريمة المنظّمة..

قاطعته (يمنى) غير مهتمة بكل هذا الهراء:

- (غادة) رفضت ترقص؟

قال لها (هيشم) وهو يدخن ويسعل في قنوط:

- **أمّ الرقص. دي بتقول لي «أنتَ شخصية إدمانية».

قال (فكتور):

- طيب ما أنتَ فعلاً كدا.

نظرت له (يمنى) محذّرة، فقال:

- أيوا.. الصراحة. لازم نكون واقعيين. أنا أقصد إنك مش خسران



حاجة، ودا أحسن من فشل تاني، إذا كانت هي يعني شايفة إنها مش ها تقدر على حياة زي حياتك.

قال (فريد):

- فيه نقطة أنتم مش واخدين بالكم منها: من البدهي إن أي مشروعات زي الزواج تتعرض الأول على أصدقائنا (بالصدفة استعمل التعبير ذاته، الذي تستعمله قيادتهم للإشارة إليهم) الأمور مش بالبساطة دي؛ لأن دا ها يؤثر على الأداء.

قالت (يمنى):

- آه، فعلاً.

استأنف (فكتور):

- وبعدين أنت يا (هيثم) مش ممكن تكتفي بعلاقة مع امرأة واحدة. كاد يقول ما معناه «مثلي أنا»، لكن (مارلين) كانت إلى جواره إلى المائدة نفسها. ردّ (هيثم) ساخطاً:

- لا، معلش. الستات نفسهم هما السبب في موضوع تعدد العلاقات دا عند الرجال؛ أي واحدة عاوزة منافسة مع واحدة غيرها على رجل. واسأل عن دا أي رجل خاطب أو متزوج. أنا أكثر الأوقات اللي قابلت فيها محاولات تودد من الستات كانت أوقات ارتباطي.

كان (فريد) يتأمل سلمى بنظرة جانبية أثناء الحديث، ثم فاجأه مشهدها وهي تقبل (منصورًا) علناً، وهو ما تستر عليه زحام المكان. وفكر أن (سلمى) مشغولة بالجنس والدم، بعُصري الجسد حين نفكر فيه. كاد يسترسل في أفكاره، لولا أن وصلته رسالة مشفرة. وكما تقتضي



التعليمات، فقد استأذنهم للذهاب إلى الحمام للانفراد. وهناك فتح الرسالة، فقرأ:

«القيادة تريدك يا (فريد). انتظر مِنَّا غداً تعليمات بالمكان والزمان. أخبر بقية الأعضاء بذلك».

اندهش لحظة، وظل يفكر في الأسباب المحتملة، وفجأة.. ارتفع رنين الهاتف. كانت المتصلة أمه، فردّ:

- مساء الخير يا ماما.

جاءه صوتها باكية، وهي تقول بلكتتها الأجنبية:

- بابا تِ إيش إنت.



٥ - مُفاعلات عَدَمِيَّة

بعد عدة أيام انعقد في النادي اجتماع جديد. وحين بدأ الأعضاء يتوافدون وجدوا (فريداً) أسبق حضوراً. ولأنهم لم يروه منذ افتراقهم في المرقص عقب انصرافه المفاجئ، بعد أن عرف بوفاة والده، فقد حيّوه بقدر من المواساة. وعلى مائدة الاجتماعات، وقبل أن يبدأ الاجتماع، ربت (فكتور) على كتف (فريد) قائلاً:

- أنت كويس يا مان؟

فأوماً (فريد) صامتاً، وهم لا يدرون هل هو بخير فعلاً أم يَسْتُرُ انفعاله. لكنه على أي حال بدا تقريباً في حالته الطبيعية، كأن وفاة الوالد حدث عابر. افتتح (هيشم) الاجتماع:



- طبعًا إحنّا بنعزيّ (فريد) في وفاة والده. نرجو إنه يتجاوز الأزمة دي على خير.

ثم نظر إلى الجميع بصرامة قائلاً:

- هممم.. حد له سؤال في دا؟

ثم ضحك، فضحك أكثر من واحد، ونظروا إلى (فريد)، فأوه يتسم. كان يتسم عمدًا على أية حال. قال (هيثم)، وهو يراجع بعض الأوراق:

- الحقيقة عندنا نقاط مهمة جدًا للنقاش اليوم. أولها هو إن أصدقاءنا طلبوا لقاء (فريد) مباشرة. أقصد الأصدقاء الكبار فوق (درويش). وطلبوا من (فريد) يبلغنا بدا. طبعًا الخيار هنا لـ (فريد).

قال (فريد) شاعرًا بكثير من الضيق من نظرات المواساة والشفقة:

- ما عنديش أي مانع.

سأله (فكتور):

- ما قالوش عاوزين منك إيه؟

كان (فريد) يتحدث أن الهدف من اللقاء هو تعميق جبهة التعاون معه، وبالذات في التشفير، لكنه اكتفى بقوله:

- لا، ما قالوش.

تناول (هيثم) ورقة، وطالعتها لحظة، ثم قال:

- بقية النقاط أهم؛ وهي ٣ مشروعات طموحة مقدّمة من ٣ من الأعضاء. (فريد) واحد منهم بالمناسبة. لكن ها نبدا بـ (فكتور).

ترك (فكتور) الغليون، الذي كان ينظّفه، وفكّر لثوانٍ لتجميع أفكاره، ثم قال:



- أنا مشروعي ببساطة توسيع لنشاط النادي الأساسي. أنا شايف إن نشاطنا إحنا الستة بس محدود، وربما يكون مؤثر بالنسبة لأصدقائنا، لكن بالنسبة لنا، وبالنسبة لأهدافنا الأكبر، ليس على مستوى طموحاتنا حتى الآن..

قاطعـه (هيثم):

- دا صحيح. وأعتقد إن هناك إحساس عام بدا؛ لأن المشروعات الـ ٣ المقدمة كلها بصدد خلايا نوعية.

استأنف (فكتور):

- مع ازدياد حالة العدمية في كل قطاعات الشباب مع تبخر أحلامهم المتعلقة بالثورة، ومع حالة العنف، والعنف المضاد، والانفلات الأمني، ممكن توظيف عناصر معينة، بعد اختيارها بعناية، وممكن أصدقاءنا يساعدونا في دا. الدائرة اللي أنا ها أشتغل عليها هي الوسط الأدبي. ها أحاول تجنيد بعض العناصر الانتحارية زينا من الوسط الأدبي، مش ها أضـمهم لنا، ولا ها يعرفوا أي حاجة عننا. والهدف التخلص من بعض أدباء (المتلقّي العادي). باختصار الأدباء والنقاد اللي بيطلبوا بضرورة هبوط الأدب لمستوى المتلقي العام.

رفع (فريد) سبابته قائلاً باستفهام حقيقي:

- لحظة واحدة. بيطلبوا بـ(ضرورة) (هبوط) الأدب؟

ضحك (هيثم) وهو ينظر إلى (يمنى)، متذكراً نقاشهم الدائم في ذلك، في حين تناول (فكتور) غليونـه، وهو يقول في انفعال:

- تصوّر؟! أنا شايف دا الحل الوحيد معاهم.



قال (هيثم) للجميع:

- همم.. إيه رأيكم؟

قالت (يمنى) وهي تمط شفتيها، وقد أعادت تصفير شعرها في عشرات الضفירות الرفيعة:

- أعتقد إنك محتاج تعاون (فريد) في اختيار الشخصيات الانتحارية العدمية.

قال (فريد):

- وهو كذلك. الشخصيات الانتحارية المثقفة نموذج شائع، بالتالي اختيار الوسط الأدبي في محله. لكن لازم نفتكر إن ما فيش استهداف لشخصيات كبيرة ومشهورة. دي سياسة أصدقاءنا، وأعتقد إنها في محلها؛ لأن بكدا ممكن نشتغل بدون لفت النظر قدر الإمكان.

قال (منصور)، وقد بدا أكثر ثقة منه في الاجتماع الأخير:

- وهل تفتكروا إن دا ها يؤدي إلى تغيير في الوسط الأدبي؟

قال (فكتور) كأنما توقع السؤال:

- أنا هدف في الانتقام بس. لكن أعتقد إن ها يحصل تغيير متناسب مع حجم العمليات، وبأكثر الطرق جذرية.

قال (هيثم) للجميع باسمًا:

- أنا شايفه مشروع طريف ومثير.

ابتسم (فريد) بدوره وقال:

- أنا كذلك.



قالت (يمنى):

- وطبعًا أول هدف هو (ممدوح) دا بتاع اللقاء الأدبي.

رد (فكتور) مفكرًا:

- تصوّري ما جاش على بالي خالص كهدف. أعتقد إننا لازم نُبقي على مراكز الكراهية حية، وقدّام أنظارنا طول الوقت. لو نسيت اللي باكرهه يبقى نسيت نفسي.

قالت (سلمى):

- هو أنا ممكن أعمل خلية تموّت المتحرشين واللي بيعاكسوا؟

قال (هيثم):

- لا، لما تكبري شوية يا بيبى.

ثم تفكّر لحظة، وقال في جدية:

- ولكن.. ليه لأ؟

ونظر إلى (سلمى) نظرة طويلة، لم يفهم أحدهم معناها. لقد بدأ (هيثم) يكتشف أن (سلمى) هي أكثر النساء إخلاصًا له برغم معرفتها لكل عيوبه. صحيح أن علاقته بها (دادي - بيبى)، إلا إنها علاقة ثمينة بالنسبة له، وهو يعرف أنها كذلك أيضًا بالنسبة لها. تنهّد في عمق، ثم قال:

- والله ممكن نعمل خلية، (سلمى) وأنا، تشتغل على دايرة الذكورين وبتوع «إيه اللي وذاها هناك؟» دول برضه في رأيي ما لهمش حل غير التصفية.



قالت (يمنى) بحماس باسم:

- أنا ممكن على فكرة أتعاون معاكم في الخلية دي.

ارتشف (هيثم) سطح قهوته، وقال:

- يعني أنا كده ها أبقى نسوي يا جماعة، أول رجل نسوي بجدّ في مصر. وإيه...؟! نسوية القتل.

أطلق (فريد) دخانه، وقال:

- أو: النسوية الرأسية. في مقابل النسوية الأفقية التقليدية.

تناول (هيثم) ورقة أخرى بنشاط قائلاً:

- طيب.. ننتقل إلى النقطة التالية: الخلية الثانية، أو الثالثة، هي خلية (منصور).

تنح (منصور)، ثم قال موجّهاً أغلب خطابه لـ(فريد) ببرود
تقريري:

- فكرتي هي تكوين خلية من الإسلاميين المنشقين عن جماعات إسلامية، خاصةً العدميين واللي لهم سوابق في محاولات انتحار، وتوجيههم ضد جماعاتهم الأصلية. حاليًا هناك في صفوف الإسلاميين، اللي أعرف كثير منهم كويس، حركة تمرّد ضد القيادات. وأعتقد إن التمرد داها يزيد مع الوقت بسبب صعود الإسلاميين الفاشل.

بدا أسلوبه هذه المرة لأغلبهم شبيهًا إلى حد لافت بطريقة (فريد)، الذي رأوه صامتًا، يتسم في إيجاز، وهو ينظر أمامه. قال (هيثم):

- ممتاز. الخلية دي تحديدًا ها تكون محل تأييد واضح من أصدقائنا.



استوقفته (يمنى) قائلة:

- أنا مش فاهمة.. إسلاميين وعدميين؟ الاتنين؟

تأهّب (فكتور) للرد، لكن (فريدا) استوقفه بدبلوماسية، وأشار جهة (منصور) قائلاً:

- سوري يا (فكتور). اتفضل.

فالتقط (منصور) نفساً عميقاً، قبل أن يقول:

- حسب فهمي للعدمية من نقاشاتنا السابقة، أيوا فيه إسلاميين عدميّين، ودول عادة بيتورطوا بسهولة في أعمال العنف. هما إسلاميين فكراً وانتماءً، لكنهم في مرحلة ما بقوا عدميّين، ولسه متصلّين بانتماءاتهم. وأحياناً كذلك يحصل العكس؛ بحيث تبقى الإسلامية مجرد غطاء للعدمية.

قال (فكتور):

- منطقي. أنا مثلاً بنفس المنطق يساري وعدمي، الاتنين.

جادلت (يمنى):

- أوكي.. بس حسب كلام (فريد) العدمية في جوهرها ثورة رأسيّة، وإيمان عكسي. إزاي ممكن إسلامي، أو مسلم عموماً، إنه يكون عدمي بالمعنى دا؟

قال (فريد) بعد أن نفث دخانه:

- السلفي اللي بيقول إن ربنا أمره بقتل الكافر، ونشر الدين بحد السيف، يحاول يلعب دور الإله بطريقة خبيثة، لكنها إيمان عكسي



في حقيقتها. هل هناك إيمان عكسي أكثر من إني أضع نفسي مكان الإله؟!

أضاف (منصور) بقدر من الحماس:

- ومن هنا الإرهاب.

أخذ (فريد) نفسًا من سيجارته، ثم قال:

- الإرهاب = حرام + عَدَم.

ساد الصمت لحظات، فقال (هيثم):

- طيب بكدا أعتقد ننتقل إلى خلية (فريد).

قال (فريد) وهو يئد سيجارته:

- فكرتي أبسط من كده، برغم إنها ها توصل لـ (جمهور) أعرض.

أنا ها أجمع بعض المختصين بمجال النفسية، وها نشكل ورش عمل للتعامل مع الشخصيات الانتحارية. الفكرة الأساسية هي تشجيع حامل فكرة الانتحار على محاولة التنفيذ. وها نكتب مقالات علمية على الإنترنت في الأهمية الكبيرة لتجربة الدنو من الموت في الانتحار، وعلاقتها بالصحة الوجودية.

أمسكت (يمنى) رأسها في تعب من المصطلحات، فقال (فكتور):

- يعني الإنسان لما ييقدم على الموت، بيدأ يحدد الهدف من

وجوده، بشكل مركز وواعي. ودا اتكلم عنه كثير من الوجوديين زي هايدجر وسارتر ومارسل وغيرهم.

نظرت (يمنى) إلى (هيثم) قائلة:



- وتفتكروا القيادة ها توافق على المشروعات دي؟ مش كدا الأمور
ها تخرج عن السيطرة؟ من وجهة نظرهم يعني..

تفكر (فريد) وهو يحكّ لحيته الخفيفة، وقال:

- أغلب الشخصيات المستبعدة من قائمتنا كبيرة ومشهورة. أعتقد
احتمال الموافقة كبير.

أشار (هيثم) بيديه قائلاً:

- يبقى كده تمام. كلنا ها نعمل خلايا.

قال (فريد) متأملاً بسخرية، وهو يتناول سيجارة:

- ها نعمل سرطان العدم. ها ننشر اللا شيء في الأشياء.

ضرب (فكتور) سطح المائدة حماساً وقال:

- أوبّا.. دي تنفع قصيدة.

ثم التفت إلى (يمنى) و(هيثم) قائلاً:

- عنده صور حلوة، ليه ما طلّش شاعر؟

قال (فريد) وهو يشعل سيجارة، فجاء صوته ماضعاً:

- هي هي. أنت شايف آخره الشعر: القتل.

تأمل (هيثم)، وقال:

- «خلايا العدم». نسَمّي المشروع كدا.

نفث (فريد) دخانه في قوة، قبل أن يقول:

- إحنا اتدربنا إننا نستعمل (السيم) كلما أمكن. «خلايا» دي مش

مستحبة.



ضرب (فكتور) المائدة كالعادة متحمّساً:

- «دوائر العدم». وحتى لو حد سمعنا بتكلم عن «الدائرة» هيظنها الدائرة الانتخابية.

قال (هيثم):

- انتخابات إيه اللي بيعملوها؟! الانتخابات في واقع عدمي سطحية لا نهائية.

قال (فريد):

- وبهذا الشكل سيتم إطلاق أكبر مُفاعلٍ عدمي، ربما في تاريخ العدمية.

ثم شرد في أفقه الخاص، كأنه يحلم.





الفصل العاشر الأبعاد

١ - زائر الليل

بعد بضعة أيام، وقرب منتصف الليل، صعد (فريد) إلى شقته بعد لقاء قيادة (أدهم درويش)، وليس على جدول لهذه الليلة؛ بسبب إرهاقه، سوى النوم العميق. فتح الباب، وهو يتأهب للقاء متسلل بالداخل تلقائياً؛ فهو طيلة حياته بهذه الشقة، حتى قبل بدء نشاط النادي، يتحسب من منطلق الوسواس من متسلل ما غامض، يملك القدرة على فتح الباب دون أثر وإغلاقه أيضاً كما كان. لم يجد أحداً على أي حال. الفراغ يحرس ذاته كما كان دائماً.

وقف في الشرفة الصغيرة يدخن سيجارة أخيرة قبل النوم، ثم خرج منها، وهنا.. سمع رنين جرس الباب. تجمّد لحظات، ثم فتح أحد أدراج مكتبه، حيث قبع صندوق صغير. فتح الصندوق وتناول منه مسدساً ذا كاتم صوت. وبأقل قدر ممكن من الضوضاء اتجه إلى باب الشقة، ونظر في العين السحرية، وهو يلصق فوهة السلاح بالباب. ولكنه لم يجد داعياً لذلك، وبرغم هذا لم يبعث مرأى ذلك الزائر راحةً في نفسه. كان ذلك الزائر الليلي غير المتوقع هو (يمنى).

فكّر أن يتجاهلها؛ فالوقت متأخر على أي حال، لولا أن سمعها تقول بصوت هادئ ثابت:



- افتح يا (فريد) من فضلك.

دسّ مسدسه في حزامه، وتنفس في عمق مفكراً، ثم حسم أمره، وفتح الباب.

لم تتكلم (يمنى)، بل تطلعت إليه في هدوء، وعلى شفيتها ابتسامة ودودة، بدت له حصيلة تدريب مضنٍ قامت به بينها وبين نفسها، للتغلب على وجوده الثقيل على روحها. نظر إليها في تساؤل مندهش، لكنها بادلتها النظرة المتسائلة بمثيلتها، فتنهّد قائلاً، وهو يفسح لها المدخل:

- أهلاً يا (يمنى). اتفضلي.

دخلت، وهو يغلق الباب خلفها، بقامتها الفارعة الأطول منه قليلاً. تأملت الصالة الخاوية، ثم أو مأت لنفسها إيجاباً، وهي تقول:

- الفضاء.

واجهها، وهو يفتعل النظر إلى ساعته، ثم يقول:

- خير..؟

ابتسمت قائلة:

- أنتَ لما واحدة ست تجيلك تقول لها: خير؟

لم يبادلها الابتسام، بل نظر لها لحظة، ثم انصرف عنها في خفة ليعيد المسدس إلى مكتبه، قائلاً ببرود:

- ما بقاش فيه ستات بتيجي هنا.

تحركت خلفه ببطء، لترى غرفة المكتب. رأت معظمها فراغاً كذلك، باستثناء مكتبة تحتل جداراً كاملاً، ومكتب صغير، يقابل ذلك



الجدار المزدان بالصور واللوحات وقصائد بُو وفروست. جرت عيناها على كل ذلك، ثم توقفت عند عبارة منقوشة على الجدار نفسه، تقول: «ولكنّ عِنْدِي كَوْنًا يجب أن يَنْفَدَ، وقيامَةٌ يجب أن تُنْجِزَهَا، قبل أن أنامَ في العوالم الفارغة». أعجبها البدء بـ «ولكنّ» الموحى باستئناف قول ما سابق غامض، أو كأن العبارة استدراك عامّ على كل ما سِوَاهَا من كلام. شردت لحظة في معاني «التَّفَاد» و«القيامة» و«الفراغ»، وبدت لها كمجموعة من الفجوات المتداخلة السرمدية.

التفتت له، حيث وقف جوارها واضعًا كَفِيهِ في جيبيه، وقالت:

- أنت اللي كاتبها؟

- آها.

- يعني أنت شاعر فعلاً.

مط شفتيه قائلاً:

- لا. دي محاولة لتحريف بيت شعر لفروست يقول:

«The woods are lovely, dark and deep,

But I have promises to keep,

And miles to go before I sleep,

And miles to go before I sleep.»

ابتسمت، وهي تهز رأسها قائلة:

- أوكي.. تبقى مُحَرِّف.

ثم التفتت له، وهي تقول بابتسامة أكثر مرحًا:



- أو «حارِف» على وزن شاعر. مش ينفع برضه؟
أرسل إليها نظرة من نظراته المرتابة الباردة، وبعد لحظة صمت قال:
- زي ما تحبي.
- وساد صمت تام، كأنه الموسيقى المناسبة غير المسموعة لهذا
الفضاء. قالت محاولةً فتح حديث:
- و(إدجار بو)؟ ما حاولتش تحريفه؟
أجاب بسرعة دون أن ينظر لها:
- في الواقع لأ. العكس صحيح: أنا كنت سبب غير مباشر في ترجيح
(هيشم) و(فكتور) لفكرة (منصور) الخاصة بدفن والده في الجدار. ودي
كانت وسيلة دفن مفضّلة في قصص (إدجار بو). فكرة (منصور) غير
المقصودة في تطبيق (بو) حرفياً أبهرتني أنا نفسي.
- نظرت له في خطورة مفاجئة لحظة، ثم خفضت عينيها، وتنهدت
قائلة في جدية:
- أنا محتاجة أبيّت عندك.
- تطلع إليها بقدر من الدهشة، ثم قال:
- ممكن أعرف السبب؟
- جات لي رغبة في دا.
- فجأة؟
- الصراحة لأ.



فكر لحظات، ثم قال:

- على أي حال الشقة فاضية تقريباً زي ما أنت شايفة، ما فيهاش إمكانية لاستضافة حد.

قالت:

- طيب.. الفضاء محتاج حد معاك.

قال بحسم:

- لو عاوزة تبتي هنا الليلة أهلاً وسهلاً. أنا ها أبيت عند (هيشم)، أو غيره.

نظرت في عينيه، وقالت بثباتٍ ما توقعه بشكل عام:

- لو خرجت من هنا، أنا ها أخرج وراك، وها أنا على السلم.

فكّر: طبعاً، الجنون سلاح المرأة الوحيد ضد المنطق. تنهّد وقال بلهجة متعبة:

- (يمنى).. أنا مرهق جداً، ومش قادر حالياً على الألاعيب دي.

أشارت بكفيها، وهي تقول بسرعة:

- أوكي.. أنا مش عاوزة أسهرك أكثر من كدا. تعال ننام.

ثم غادرته متّجهة إلى الغرفة الوحيدة الأخرى، وقبل أن تدخل قالت:

- مش دي أوضة النوم؟ ممكن أدخل؟

صمت في حيرة، ثم اتجه إلى الغرفة المقصودة، وفتح بابها، وأضاء مصباحها، وهو يقول بعجالة:



- دي آخر نقطة في العالم بتاعي . معظمها فراغ زيه .

دخلت إلى الغرفة، وهي تقول:

- والفراغ دا للعرض فقط؟

خلعت معطفها، ولم تجد مشجبًا خاليًا أو دولابًا، فألقته على مقعد وحيد جوار الحشية الموضوععة دون سرير على الأرضية. ثم جلست على الحشية في بساطة، بعد أن نزعت حذاءها. رفعت رأسها إليه، وقالت:

- مش ها تنام؟

ظل يرمقها بلا انفعال، فقالت وهي تضغط على حروفها:

- أنا جاية أناام جنبك، مش معاك.

قال بقدر من الغضب:

- (يمنى).. اللعبة اللي بتلعيها دي ما لهاش أي فائدة..

قاطعته بهدوء:

- أولاً أنا مش بألعب يا (فريد). ثانيًا لو عاوزني أمشي بـكراها أمشي .
وعُد.

نظر إليها متفحصًا، ثم قال:

- وها تخرجي من عالمي الخاص تمامًا.

- تمامًا. وعد.

قال بصوت خافت:

- أوكي..



- متشكّرة.

وأمام عينيه غير المصدّقين قامت بخلع ثيابها الخارجية، بعد أن أخرجت من حقيبتها ثوب نوم شتويًا، ثم خلعت حمالة صدرها، فرأى للحظة مشهدًا عامًّا لنهديها الكبيرين، وهو يغضّ بصره في مزيج من الدهشة والغضب. وحين لمحها، وقد انتهت من ارتداء ثوب النوم، رفع إليها عينيه، فقالت دون أن تنظر له:

- ما لك؟ أنا مش باتكسف منك.

وقف يفكّر في اكتئاب أن الجسد هو السلاح الآخر للمرأة مع الجنون، تلقيه على النار وعلى الثلج معًا بفعل فدائي، كمقاتل يحتضن بجسده قبلة، قبل أن تنفجر، أو كي تنفجر فيه وفي غيره. وتساءل: هل المرأة بطبيعتها فداية - انتحارية - استشهادية؟ قطعت سيل أفكاره، وهي تقول بلطف:

- ها تنام بهدومك؟

أخذ ملابس البيت من مشجب، وغاب في الحمام ليغيّر ثيابه. وحين عاد وجدها قد أشعلت سيجارتها الأخيرة بدورها، فقال في ضيق:

- لا أرجوك.. مش بعرف أنا في الدخان.

أطفأت سيجارتها بسرعة، وهي تقول:

- آسفة. أنا شوفت (الطفاية) هنا.

انحنى على المدفأة ليشعلها، فقالت:

- دفاية؟ مع كل الغطا دا؟!



أشعل المدفأة الكهربائية، وهو يقول ساخرًا:

- وخلي بالك.. بتولّع بنار زرقا.

نظرت إلى المدفأة غير فاهمة، فاستأنف:

- .. في الأحلام.

رفعت إليه وجهها قائلة:

- طيب ممكن تطفيها؟ ولو احتجت بعد ما تتغطى إنك تشغلها.. شغلها.

تردد، ثم أطفأها. وإلى جوارها تمدد، بعد أن أطفأ المصباح، فجذبت هي الأغطية الثقيلة عليهما. ولأها ظهره نائمًا على جانبه الأيمن كعادته، وهو يستعيد لسبب لم يعرفه لقاءه مع (سلمى) منذ شهور، وحلمه بها في هذه الغرفة. سمعها تقول مازحة:

- أنتَ مخاصمني؟

- لا، لكن التكلّسات على الجنب الشمال مؤلمة.

تنهّدت في خفوت، وهي تقترب منه، وألصقت جسدها بكل جزء تقريبًا من ظهره، واحتضنته في إحكام، لكن برفق، وشعرت بارتعاشته اللا إرادية النافرة. أما هو فقد شعر بالنهدين يحرقان ظهره المقشعر، فيذيان الصقيع الروحي المتراكم دومًا عليه. فتح عينيه في الظلام متأملًا هذا الموقف، وتداعت له ذكريات مبهمة، كان فيها مغلفًا تمامًا بجسد أنثوي. وسأل نفسه: هل جسم المرأة جسد ورداء معًا؟ إذن فلماذا ترتدي الثياب؟ هل التعرّي لذلك السبب بالذات غريزة عند بعض النساء على الأقل؟



سمعها تهمس، وأنفاسها تلفح مؤخرة عنقه:

- إيه أخبار النُصّ الشمال؟

قال لها من تحت الغطاء في رهبة:

- أحيانًا بحسّ إنه نُصّ جسم غريب عنيّ؛ بسبب إني مش حاسس به،
وساعتها بحسّ كأنني موجود في جسمين مندمجين، مش واحد.

دلّكت بهدوء كتفه اليسرى أمامها، ثم أعادت احتضانه. أما هو فقد
غرق في أفكار متفرّقة، حتى بدأ النوم يخاتله، فشعر كأنما ينسحب من
ظهره، وأنه يغوص في كيان غامض دافئ ليّن، يغوص بعيدًا جدًّا، إلى
أبعاد لم يزرها من قبل، أو زارها منذ زمن سحيق، لم يكن فيه قد وُلِدَ بعدُ.



٢ - انهيارات جليدية

استيقظ (فريد) في الصباح التالي، فوجد أنه قد نام لثماني ساعات
كاملة بلا قلق، ورغم أنه نسي البارحة أن يتناول المنوّم. إنها من المرات
النادر أن منذ أعوام طوال، تلك التي ينام فيها دون منوّم، ودون سكر. ثم
تذكّر فجأة أن (يمنى) إلى جواره، ثم تذكّر أحداث البارحة. التفت إليها
في انتفاضة صغيرة، ورآها لم تزل نائمة.

نهض ليغتسل، ثم يعد كوبًا من القهوة، وجلس إلى مكتبه وأشعل
سيجارة. فتح صفحة فيس - بوك ليعرف آخر الأخبار. ظل يطالع
منشورات أصدقائه، حتى توقفت عيناه على صورة شبه عارية نشرها
مُصوّر ما على سبيل آخر أعماله. راح يطالع منشورات أخرى، لكن شيئًا



ما في الصورة العارية قد جذبه. عاد إلى الصورة وتأملها لحظات، ووجد أنها لا تتميز بشيء خاص، لكنها بدت له مثيرة. واستغرب تلك الإثارة، التي لم يعد يشعر بها كثيرًا بعد تجربة (سلمى). لقد صار الجنس ككل يذكره بذلك الموقف البشع. وتساءل: هل لـ(يمنى) تأثير مضاد على عقله الباطن؟ لو صح ذلك، فهي فعلاً تعرف ما تفعله.

قام بتجربة، ففتح موقعًا إباحيًا، وراح يطالع بعض الصور، ووجدها كلها مثيرة جدًا. وفجأة تذكر ما الذي لفت نظره ربما لصورة فيس - بوك؛ إنه جسم يشبه جسم (يمنى)، الذي رآه أمس للمرة الأولى؛ الامتلاء المتوسط، كبر الصدر إلى الحد الذي يبدو معه أقل بدرجة واحدة من أن يصير مستقبَحًا، اعتدال القامة، السُمرّة المميّزة لفتيات الصعيد. هل يريد (يمنى)؟ لم لا؟ فهذا سيؤدي إلى إفشال مشروعها في الأمومة المتأخرة تمامًا.

سمعها تأخذ حمامًا. فرغ من قهوته وسيجارته، وهو يطالع الموقع الإباحي، واندش أنه صار (يتذكر) انفعالاته الجنسية، لكنه اليوم يشعر بها حيّة كذلك. وفكر: ما خطته؟ إنه لا يحتاج هذه المرة إلى تخطيط؛ إما أن تستجيب، أو ترفض، وفي الحالتين ستفهم جيدًا أن طريقها معه طويل جدًا، وبلا آخر تقريبًا.

لمحها تخرج من الحمام ملتفة بالمنشفة، فانتظر لبعض دقيقة، ثم نهض بخطى ثابتة، ودخل عليها الغرفة، فرآها عارية تمامًا منحنية لتناول ثياب الخروج، التي تركتها أمس على المقعد الصغير جوار الحشية. التفتت إليه مندهشة، ثم تناولت بسرعة قطعة ثياب داخلية على سبيل ورقة التوت، وقالت بارتباك:



- صباح الخير.

ظل يحدّق في وجهها بثبات لثوانٍ، ثم نزلت عيناه إلى تفاصيل جسمها بجرأة. وفكّر: ليست حوريّة بيضاء كـ(سلمى)، لكنه جمال مختلف، وجاء في اللحظة والمكان المناسبين. الأهمّ أن (يمنى) الآن معركة لا يوجد سبيل أصلاً لأنّ يخسرها.

لم يردّ تحتيتها، بل قال بصوت نصفه بارد ونصفه أمر:

- أنا عاوزك... دالوقت.

ازداد ارتباكها، وهي تنكمش على سبيل ستر جسدها، وخيل إليه لحظة أنها تنظر إليه في خوف حقيقي، يتجاوز مجرد خوفها من رجل في موقف كهذا. لكنها فجأة قالت في استسلام خائف:

- الخيار لك.

تقدّم نحوها ببطء، وشعر لأول مرة في حياته أنه متصالح مع الوحش المثلّج داخله، أو أنه يخطو معه نحوها. ظلت تنظر له بالنظرة المستسلمة الخائفة الحزينة وهو يقترب، وحين أصبح على مسافة شبرين منها احتوى وجهها بكفّيه، وقد جعلها انكماشها في قامته. وفي ثوانٍ كان صدرها يعلو ويهبط في انفعال تدريجي متزايد، أما نظرتها الثابتة في عينيه فقد بدأت تلمع في حزن بطبقة رقيقة من الدموع، ثم بدأ جسدها يرتعش. تجمدت نظرتة على عينيها، ثم انخفضت يداها ليمسك بذراعيها الناعمتين الممتلئتين، وبدأ يشعر أمام هذه النظرة بشعور مختلف ساحق. لقد بللت هذه الدموع، التي لم تغادر مقلتيها، جسم الوحش، فأطلق صراخاً رهيباً، يحمل وحشية الأبعاد القصيّة التي جاء منها، كأن دموعها حمض حارق. ولم يلبث هذا الوحش إلا أن تراجع نحو ثلوجه مرة



أخرى، كأنها محارته، لكنه لم يجد ثلوجًا، وجد بحيرة لا نهاية لها من المياه، المياه الدافئة. أطلق المزيد من الزئير والعواء، وهو يبحث عن مأواه في جنون، ثم لم يلبث أن اختفى. هل رحل إلى الأبد؟ لا أحد يعلم شيئًا إلى الأبد. لكن (فريدًا) أدرك على الأقل أن أمرًا نوعيًا قد وقع للمرة الأولى في حياته.

لقد بدأ كل بنيانه، القائم على تلك الثلوج فيما يبدو، يغرق في البحيرة. انهيار رأسي لناطحات سحب، وقلاع، وأبراج، وأسوار، ومعابد، كلها تتكس، وتهوي معًا إلى أسفل في انهيار رهيب. صار وجوده نفسه غريقًا. وهنا.. فقدَ توازنه، ومدَّ ذراعه في انعكاس ليستند إلى الجدار، لكنه كان بعيدًا، فهو أرضًا بعنف، و(يمنى) تهتف:

- (فريد)!

وتركت ورقة التوت تهوي، وحاولت أن تسنده بعد فوات الأوان. وضعت حقيبتها اللينة تحت رأسه، وانحنت عليه، وهتفت ثانيةً في قلق:

- أنتَ كويس؟

لم يردّ، وهو يعتصر عينيه بجفونه فيما ظهر لها كآلم شديد، لكنها حدست أنه يتخلّص من سموم نفسية، أو يعاني أعراضًا صحية لا بدّ منها لانسحابها. أمسك رأسه بكلتا يديه في قوة، كأنه سيهشّمها، ثم انزوى على الأرضية على جانبه الأيمن، وانكمش في وضعية الجنين، وهو يعقد ذراعيه حول صدره بشدّة.

تناولت هي المنشقة الكبيرة جوار ملابسها، والتفتَ بها، ثم أسرعَت إلى المطبخ لتحضر كوب ماء. عادت إليه جريًا قدر المستطاع، وأسندت رأسه على فخذيها، وقالت:



- اشرب.

ففتح عينيه، وحين رأى الماء تقلّص بشدة، وتراجع، فتملكتها الحيرة، لكنه قال:

- ثلج.. ثلج.

فاندھشت، لكنها أسرعّت إلى المطبخ لتضع من المبرّد بعض مكعبات الثلج في الكوب، وعادت إليه لتجده راقداً على ظهره، وأطرافه تتحرك حركات عنيفة بلا معنى. قدّمت الكوب إلى شفّتيه، لكن دهشتها فاقت الحد، حين خطف منها الكوب بحركة متشنّجة، وصبه بما فيه من ثلج على وجهه وصدره دفعةً واحدة، فهمد جسده بغتةً كأن طلقة نار قد اخترقت جبهته.

جمّدتها الدهشة لحظات وهي تنظر إلى ما فعل، ثم وضعت يدها على رأسه، وهي تقول لاهثة:

- (فريد).. (فريد).. أنتَ سامعني.

لكنه لم يجبها، ولم يتحرك.

شعرت بخوف مباغت بالغ عليه، أثار دهشتها هي نفسها. فتحت حقيبتها، وقد قررت أن تطلب رقم (هيشم)، ولكنها تجمّدت ثانية حين سمعت صوت (فريد). التفتت إليه فوجدت أغرب شيء.

كان يبكي.

تركت هاتفها، واحتوت وجهه بكفيها في حنان حازم، ونظرت في عينيه مرودة:



- ابلِك.. ابلِك يا (فريد).

ثم سألت دموعها هي، وقد تضاربت انفعالاتها؛ بحيث اختلطت الشفقة بالرهبة بالندم، فاحتضنته، وألصقت صدرها برأسه في إحكامها الرفيق. خطر لها أن تلك الطاقة المدمرة في عقله قد تحوّلت في لحظة واحدة ضده هو، حين شعرت بالخطر. وبعد دقائق كان قد هداً. تراجعت، حيث جلست جواره على الأرضية العارية، وأسندت ظهرها إلى الجدار في إنهاك، ثم انحنت إليه مرة أخرى لتحاول إنهاضه وإجلاسه على الحشية. وضعت وسادة خلف ظهره، وقبعت أمامه تتأمله. بدت ملامحه مختلفة كثيراً، ربما قريبة من ذلك اليوم، الذي عانى فيه أول نوبات (التزييف) على حد تعبيره، لكنها كذلك مختلفة، حيث حلّت فيها براءة ما محل الضياع، الذي غشي عينيه في ذلك اليوم منذ شهور. كانت أقرب إلى ملامح طفل ضل طريقاً، أو تاه في زحام.

أخرجت من حقيبتها مرآة، ورفعتها إليه قائلة:

- بُص..

فنظر بعينين مغميتين إلى وجهه، وعلا ملامحه استغراب، ثم أرجع البصر، فلم يرَ وجهه، بل وجه أبيه شديد الشبه به. وهنا ضم ركبتيه إلى صدره، وأمسك رأسه بيديه مشيحاً عن المرأة، فأرتج عليها مرة أخرى. وهو ينشج مردداً:

- أبويا.. أبويا مات!

ثم انفجر حرفياً في بكاء هائل. وتدافعت أفكاره: مات الذي علّمني القراءة والكتابة، ذهب ولن يعود. وطفاً على ذاكرته بالذات مشهد أبيه، وهو بعد طفل، وهو يعلمه تطعيم (الصنارة) لصيد السمك. هذا الشخص بالغ التأثير في حياتي، بقطع النظر عن مشاعري نحوه، لن يعود.



أما هي فتضاعف قلقها، واحتضنته في إصرار. وتساءلت إذا ما كانت كل مشاعره المعتقدلة في أسواره، التي انهارت كلها، سوف تنفجر الآن انفجاراتٍ متسلسلة!

أخذت مكعب ثلج متبقٍ في الكوب الفارغ، وراحت تدلك به جبهته في رفق، وهي تقول لاهثة انفعالاً:

- أوكي.. ما تفكرش ف حاجة دالوقت. انس كل حاجة.

ثم احتضنته مرة أخرى، واستمر حضنها عدة دقائق، حتى انتهى تمامًا من البكاء، وبقيت فيه رجفة. فقالت:

- لازم تغير هدومك.

ونفضت إلى الدولار للبحث عن ملابس له، ثم جاءت إليه وفتحت أزرار ثوبه العلوي، وبدلت له ملابسه المبللة، وهو ذاهل حائر مع تلك النظرة الطفلية، التي بدت لها مثيرة جدًا لسبب ما. وحين انتهت راحت ترتدي ملابسها في سرعة، ثم تناولت معطفًا، ووضعت على كتفيه، وهي تقول محاولةً رسم ابتسامة:

- النهار دا الشمس طالعة. تعال نقعد ف الشمس.

وأخذته من يده إلى الشرفة، وأجلسته على مقعد، ثم قالت:

- بلاش سجاير. أنا ها أشوف حاجة للفطار.

وبعد دقائق كانت قد أتت بقطع من الكيك، الذي لم تجد سواه، وكوبين من الشاي، لكنه لم يبدُ ذا شهية. قطعت بالسكين قطعة صغيرة من الكيك، وحاولت إطعامه إياها بالشوكة، لكنه رفضها فسقطت على



ثيابه، فأخذتها بيدها، ودسّتها برفق في فمه. وظلت تفعل ذلك حتى انتهى قالب الكيك. قالت له:

- اشرب الشاي.

أوماً لها إيجاباً، وهو يبحث عن شيء في جيب المعطف، ثم أخرج سيجارة وقداحة، وأشعلها صامتاً، ثم بدأت نظرتة تستعيد تماسكها، لكنها صارت أقل حدة وغموضاً. نهض واستند إلى سور الشرفة، ونفث دخانه، ونظر إلى البنايات المقابلة في الشارع، لكنه بدلاً من ذلك رأى العمائر الضخمة وقد غرقت في ثلوجه الذائبة، ثم توقفت عند عمق معين، وظلت معلقة في تلك الأعماق محافظةً على تماسك ضعيف فيما بينها، كبلد يمر بعد ثورة بمرحلة انتقالية.

وكإجراء احترازي عام، رغم بلبلة أفكاره، قال لها بثبات:

- أرجو إن اللي حصل النهار دا يفضل دائماً سرّ بينّا يا (يمنى).

قالت له، وهي تشير إلى صدرها علامة القسم:

- أكيد. من غير ما تقول.

ثم نهضت، ووقفت جواره، وأمسكت بكفّه قائلةً:

- مصدّقني؟

- لسبب ما: أيوا.

- إيه السبب؟

- مش عارف. لسا مش عارف.

- يعني أنا حققت أوّل خطوة في الثقة؟



- بشكل ما: أيوا.

كانت فكرته المبدئية أنها استحققت ثقته لما أنجزته هذا الصباح من تدمير عميق في أبعاده الأساسية نفسها، التي شيدها عبر السنين زماناً على مكانٍ، وسماً فوق أرض.

قال دون أن ينظر إليها:

- أنت ممكن تعيشي معايا، بشرط تفكّي ضفايرك.

شعرت بقدر من السعادة والأمل، فطوّقت ذراعيه بذراعها، وهي تقول:

- (فريد).. لازم تعرف إني مش سعيدة باللي شوفته النهار دا. لكن دا كان ضروري يحصل.

التفت إليها بنظرة متفحّصة، رغم أنها زائغة إلى حد ما، ورآها تبتسم في ودّ وحنان. وراح يقلّب الاحتمالات في ذهنه: ودّ وحنان.. ودّ وحنان.. ضروري.. «مش سعيدة». ثم خفض نظرتة، وقال محاولاً تغيير الموضوع:

- أنا ها أشتغل في التشفير.

- مع (الأصدقاء)؟

- دا السبب أنهم طلبوني. ها أتدرب فترة.. في مصر.. وبعدين ها أبدأ شغلي معاهم.

- وأنت عاوز الشغل دا؟

- ربما كان مجالي الطبيعي فعلاً.



ثم تأمل في ضياع، وهو يقول كأنه يحدث نفسه:

- لكن حاليًا مش عارف. أنا فاقد الأرض برغم إن معايا بوصلة. إزاي ممكن تتحرك بدون أرض، برغم إن معاك اتجاه؟

حدّقت فيه حائرة، ثم قالت:

- أنا شايقة تبطل تفكير النهار دا. تعال نخرج. تحب تروح فين؟

- ما فيش مكان.

- أختار أنا المكان؟

- ها تختاري إزاي؟ ما فيش مكان. بالتالي ما فيش معنى للخروج؛ لأن ما فيش داخل وخارج.

رمقته بحيرة أكبر، وقد بدأ القلق يتشعب في صدرها كورم خبيث. راودتها فكرة لا تستطيع بلورتها بسهولة، لكن مفادها أن ما انهار بداخله اليوم قد خلف فراغًا يُقاس بالمسافات الضوئية، وأن هذا الفراغ يتخذ شكلًا غريبًا، وأن سبب غرابته أنه لفجوة ليست في شيء. حفرة ليست فقط بلا قرار، بل كذلك بلا جدران. ولم تستطع تخيلها.

وماذا عن النصفين اللذين تحدث عنهما في المرقص: نصف العدم ونصف الحجر؟ هل زال الحجر، لا ليستعيد نصف البشر، ولكن ليفسح المجال للعدم؟ هل ساهمت - كذا فكّرت - بما فعلته في تقصير فتيل قبلة العدم، بدلًا من نزعها؟

أما هو فقد ظل شاردًا، يبحث في أعماقه عن الوحش الغائب، والذي يبدو أنه قد ذاب بلا عودة، ولكنه لاحظ كذلك أنه لم يذُب في شيء، وأنه



لم تعد هناك بحيرة دافئة، ولا عمائر غارقة. ظل يبحث بأقوى مناظير الروح، ومجاهرها، ومقاربها.

لا يوجد شيء.

لا يوجد أي شيء.



٣ - عن بيتهوفن والإنثروبيا وتوماس الأكويني

في الأسابيع التالية دعا (هيثم) لعقد اجتماع؛ لمناقشة ما أنجزوه في مشروع «الدوائر النوعية»، أو «دوائر العدم» على حد تعبيرهم. كان (فريد) هادئاً في الظاهر كعادته، لكنه كثير الشرود، كما صار منذ لقائه السابق بـ(يمنى) في شقته، والتي صارت تقيم معه بصفة شبه دائمة، في علاقة غريبة دون جنس، ودون حُب. ومع ذلك، أو بسبب ذلك، فقد ظلت سرّية، فلم يعلم بها حتى أقرب الأصدقاء، لكنهم جميعاً قد لاحظوا تقارباً ما بينهما، قد أثر على شخصية (فريد).

كان (هيثم) يقول:

- المشروع حقق تقدم كويس في فترة قصيرة: دائرة (سلمى)، اللي بتعاون معاها فيها مع (يمنى)، أنجزت هدفين. دائرة (فكتور) هدف. دائرة (منصور) هدف. ودائرة (فريد) لسا، لكن فيه تقدم كبير في إنجازها.

قال (فكتور):

- بالنسبة لدائرة (فريد) صعب نعرف مدى إنجازها، لأن أهدافها غير



مباشرة؛ واحد ها يقرأ أبحاثهم، أو مقالاتهم، وها ينفذ مقترح الانتحار، مش ها نسمع عنه في الغالب.

حكّ (هيثم) ذقنه بسباته وإبهامه قائلاً:

- طيب وإزاي نقدر نحسب مدى تقدمها؟

والتفت إلى (فريد)، الذي لم ينتبه للحظة، ثم انتفض، وقال:

- آه... بالنسبة لدايرتي، اللي كوّنتها مع زملاء نفسيين، ما أظنش فيه وسيلة محددة لحساب درجة نجاحها. لكن أنا متأكد من النجاح.

قال (منصور) بموضوعية تزداد مع الوقت:

- في حالة (فريد) أعتقد إن تقديره للموقف في حد ذاته هو مقياس نجاحه؛ لأنه معتمد على خبرة نفسية، ولأنه جرّب استعمال الخبرة دي فعلاً مع أهدافه المباشرين سابقاً.

قال (فريد) شارداً:

- أنا الحقيقة مش حاسس إن كل دا كفاية.

وصمتَ غير مفسّر، فسألته (يمنى)، التي تخلّت في الآونة الأخيرة عن ضفائرها، وصارت تستعمل بدلاً من ذلك تصفيقة أنيقة لشعرها الذي قصّرتُه:

- يعني إيه؟

ظل يفكّر، ثم قال:

- أعتقد إننا في مرحلة لازم نصيغ فيها أبعاد العدم الأساسية: مكان العدم، زمان العدم، حركة العدم، نظام العدم. العدم مشروعنا، لكنه غير واضح بالنسبة لنا حتى هذه اللحظة بما يكفي.



استهوت الفلسفة (فكتور)، فسأله باهتمام:

- المفروض العدم هو اللا شيء، إزاي يكون له مثلاً مكان؟

قال (فريد) مستعملاً الفصحى أحياناً:

- مكان العدم هو المكان الذي لا يوجد فيه شيء، وزمانه هو الذي لا يحدث فيه شيء. حركته هي انعدام كل حركة، ونظامه هو نهاية أي نظام بالإنتروبيا التامة.

قال (هيشم):

- معلش ممكن تفسر لنا نقطة الإنتروبيا دي؟

قال (فريد) وقد تداخلت ملامح حالمة مع بروده التقليدي، فبدانوعاً ما كشاعر يصف يوتوبياه الخاصة:

- ينص القانون الثاني للديناميكا الحرارية على أن أي نظام معزول في العالم بتاعنا ها يواجه فوضى متزايدة، بسبب إن كوننا يميل إلى حالة من انخفاض الطاقة. يعني النظام ها يتفكك ويتحلل مع الوقت. المجتمع بتاعنا في مصر لازم يتفكك.. لازم يتحلل نهائياً. لما تلاقي أولاد وبنات عندهم عشرين سنة بيترموا في السجن، أو بنت هدومها الداخلية بتتكشف وهي بتنضرب، وأهالينا يقولوا «إيه اللي وذاها هناك؟» يبقى المجتمع دا ما فيش أي مبرر لاستمراره. أنا بحلم باللحظة اللي أشوف فيها مصر: أرض مش عليها شيء، مش بيحصل فيها شيء، السكون معلمها الأساسي، وكل اللي عليها تفرّق، وتباعد، وتبدّد على مساحاتها الصحراوية الشاسعة. لو بسطنا كثافة الوادي على الصحراء، اللي بتشكل



معظم مساحتها، بَسْطًا تامًا، ها نلاقي خريطة لا يكاد يظهر عليها أي مجتمع. إنتروبيا الوادي نحو الصحرا، دي مصر اللي بحلم بيها.

ثم التقط فنجانه ليرشف منه بيده، التي صارت ارتجافتها من معالمه في الأسابيع الأخيرة:

- حلمي هو وضع المصريين، وربما الإنسان عمومًا، في حالة عُرْي وجودي. يعني مواجهة موته الخاص، وهو عارف كويس أنه ها يموت. مش أي موت، بل الإعدام تحديدًا، زي موقف المستقبل على تنفيذ قرار انتحار مأخوذ بتخطيط مسبق، وهو عارف أن دي آخر لحظاته في الحياة. عاوز الكل يواجهه اللي واجهناه. الكل يواجهه شعور الإعدام. وهنا الكل ها يفهم هو ليه موجود، وعلشان إيه، ولازم يعمل إيه. الموت هو الكاشف الوحيد لحقيقة الحياة، ولكن فقط في حالة إذا كنّا متوقعينه.

تحمّس (فكتور) قائلًا، وهو يحكّ لحيته بغليونه:

- (بيتهوفن) بدأ مشروعه الموسيقي الحقيقي بعد صممه، لكن السبب - في رأيي - لم يكن الصمم، بل قراره بالانتحار بعد استفحال حالة صممه. بالفعل اتخذ قرار التخلص من حياته، لكنه تراجع لسبب واحد: اكتشف أنه برغم الصمم ممكن ينجح كموسيقار. عند النقطة دي تحولت الموسيقى بالنسبة له لهدف وحيد.. بأكرر: وحيد.. من الحياة. دا مثال واضح جدًا على اللي يقصده (فريد) بالتجربة الوجودية.

قال (فريد) دون أن ينظر له، وهو لم يزل يحلم:

- كذلك التجربة العدمية: فكرتي إن الإنسان لما بيتراجع عن الموت الإرادي، الانتحار يعني، بيمرّ حتمًا بتحوّل خطير. ووارد جدًا: إن التحوّل دا يكون مدمّر. يعني اتجاه التراجع عن الموت مزدوج:



ممکن يبقی فی سبیل الوجود، وممكن يكون فی سبیل العدم. الإرهابي فی حقیقته شخص تراجع عن الانتحار، تراجع عن إنه يكون مناضل سیاسي مثلاً زي (مینا دانیال) القتل، وممر بتجربة وجودية، لكنها أنتجت عنده مشروع دمار. واختیار كل واحد منّا لوسيلة القتل المفضّلة، أو بالأحرى وسيلة إعدام المجتمع، وإيقاظ الخوف فيه، يكون برضه اختیار وجودي، زي اختیار (بیتهوفن) لأسلوبه الرومانسي مثلاً بعد تراجعہ عن الانتحار.

ثم خفض رأسه، واتسعت عيناه كأنه يبصر رؤيا:

- باختصار: التراجع عن الانتحار إما بیکون لإيجاد الأنا (زي بیتهوفن)، أو إعدام الآخر (زينا إحنّا)، بدرجات وأشكال مختلفة للوجود والعدم.

خفضت (یمنی) عینہا فی اکتئاب وتوجُّس، لم یلاحظہما أحد، بینما یقول (هیثم) متأملاً:

- إحنّا متفقین إنّ العدمية كانت موجودة فی جیلنا الی قام بالثورة، وها تزيد بسبب تداعياتها. هل استمرار الحالة دي إلى النهایة هو الی تقصده؟

قال (فريد) شاردّا، ولم يعد ينظر إلى أحد فی الواقع على الإطلاق، وقد اكتسبت لهجته بالتدریج قدرًا عظیمًا من الكراهية والاحتقار:

- لا.. بعد انتصار الثورة المضادة ها یفضل هناك مجتمع. ها ینتشر فیہ الإرهاب كما أتوقع، لكن ها یستمرّ بناء ما متصدّع. وتصدّعاته ها يكون لها ضحايا كثير، ما حدش منهم أخذ قرار موته بإرادته. أنا عاوز أتخلص من البناء المتصدّع، المتعفنّ، المیت - الحیّ، الی ها تتحكّم فیہ مرة ثانية



مومياوات الأجيال القديمة، اللي ماشية على الأرض غير متنبهة للدود
اللي بياكل أطرافها، البناء اللي منقوشة عليه أسماء الوطن وأسماء الله
كأقفال للسجن، وكحيثيات إعدام.

ثم أطرق ثانيةً في استبصار:

- عاوز الكل في المجتمع يفهم التالي: إنك لو لم تتخذ قرار الموت
بإرادتك، فغيرك هو اللي ها يقتلك. لكن لو اتخدت القرار بجدية،
وشرعت في تنفيذه، وتراجعت لسبب ما، زي ما إحنا عملنا، فأنت ممكن
جدًا اللي تقتله. وتأكد إنك ساعتها ها تتحول لو حش. الموت عظيم؛
مش بس لأنه مُبِيد للجميع، بل كمان لأنه خالق للواحد.

ثم نظر ناحية (يمنى) بالذات، التي تتابعه في ترقّب، وقال بملامح
متقلّصة مقنّاً واشمئزاً:

- مش ممكن يكون فيه معنى للإنسانية في عالم زي دا، ولا للحق،
ولا للخير، ولا العدل. كل إنسان لازم يختار قرار إعدامه الخاص. لازم
يعرف إنه في حقيقته قاتل. كل اللي صمت عن مذبحة قاتل. دي حقيقة
الجنس البشري من بدايته: قاتل، وكذاب؛ لأنه بيتناسى حقيقته. أنا عاوزه
يبقى قاتل صادق، صديق عكسي، زي ما لازم يكون شهيد عكسي.

وصمت لحظة، بدا فيها يكبح انفعالاً كاسحًا، وانتفخت عروق
جبهته، وهو يقول بكلمات مرتجفة:

- النار.. النار وحدها هي اللي لازم تبقى. النار وحدها هي الكاشفة
للحقيقة.

وبرغم كل ما قيل على هذه المائدة من كلمات رهيبية، وخطط دموية،



فقد صمت الجميع مأخوذين بلهجة حديثه وفحواه، لذلك فقد تنحنا (فكتور) بعد صمت، وقال بلهجة تقرير تسربت إليها حماسة تدريجية:

- أنا كمان شايف كدا. أنا شايف أن اللي بنعمله مش كفاية، ومش بيغطّي المساحة ولا العمق المطلوبين. عملياتنا لازم تكبر، ودوايرنا لازم توسع. أنا.. أنا عندي فكرة خلية يسارية مسلّحة. إحنا اتدربنا وممكن نشتغل حتى بدون تغطية، وإحنا انتحاريين أصلاً.

قال (منصور) بوجوم جادّ:

- أنا كمان ممكن أخليّ الدائرة دايرتين، أو ثلاثة، وتشتغل بشكل لا مركزي.

اعتدل (هيثم) قائلاً، وقد بسطه الحماس والمنطق:

- العدمية هي رهاننا ورصيدنا الأساسي، ودي متوافرة ومتزايدة في كل التيارات، من أقصى اليمين لأقصى اليسار، كل اللي يقدر يقتل عليه واجب القتل، واللي ما يقدرش يتحرر.

قالت (يمنى) بصوت مرتجف ووجه ممتقع:

- يا جماعة بهدوء.. اللي بتقولوه دا..

قاطعتها (سلمى) قائلة بحرارة وبلاغة غريبتين عليها، ولدهما الانفعال العام:

- أجسام البنات مسمّمة. اللي ياكل منها يموت.

فبدت (يمنى) فجأة كمن فقد كلاً من وزنه وشكله، ونظرت إليهم في صدمة، فقال لها (هيثم) عابساً:



- أيوا يا (يمنى)، دا اللي إحنا في الحقيقة عاوزينه، و(فريد) بيقول اللي في إيماننا قبل لساننا.

ثم هتف في غضب متّقد:

- إحنا بنكره العالم. العالم لا يستحقنا. العالم دمّرنا وأوشك على قتلنا بالاكْتئاب. كُلّ العالم.

ثم بلهجة مسيطرة، وكمايسترو يشير إلى أوركسترا تنفجر بذروة سيمفونية:

- إحنا مش أحسن من أي حد. إحنا بس اللي الاكْتئاب سحقنا أكثر من أي حد. وكِرْهنا نفسنا قبل ما نكره حد. إحنا ضدّ نظام العالم قبل ما نكون ضد حد.

وكاستجابة أوركسترالية رفعت (سلمى) كُفَّ ثوبها في عنف، وهي تقول لـ(يمنى) بهتاف غاضب:

- شايقة؟ دا اللي حصل لي على إيد راجل بدّقن وأنا بغطيّ مظاهرة ضد الإخوان. وقاللي «إيه اللي جايبك هنا؟ رَوّحي!» دالوقت دول في مجلس الشعب.

فراى الجميع علامة زرقاء على لحمها، مما استثار (هيثمًا) أكثر، فقال لـ(يمنى) بغضب أكبر:

- إحنا الواقع بيحرقنا زي الشمس، زي القنابل الذرية.

ثم بصرامة أكثر هدوءًا وتقديرًا:

- جميع اقتراحات التصعيد تقدّم لي. واللي مش عاوز يستمرّ أو يصعدّ هو حر. موافقين؟



فلم يعترض أحد. فقال (منصور) لـ(سلمى) هاتفاً:

- أنتِ عارفة مين اللي عمل كده؟ تقدري توصلي له؟

قالت (سلمى) مفكّرة، ويدها الممسكة بالسيجارة ترتجف:

- لاء، لكن أعرف اللي ممكن يعرفه.

قال بثورة لم يروها عليه من قبل:

- أنا لازم أصفّيه بنفسي.

ثم تراجع فجأة، وقد تذكّر كلام (فكتور) في اجتماع سابق، وقال
بلهجة تعقّل:

- ولّا أقول لكم: بلاش. رموز الكراهية لازم تفضل حاضرة.

أشار له (فكتور) متحمّساً:

- هو كذلك.

ثم التفت للجميع قائلاً:

- أنا حالياً بأكتب ديوان بالمعنى دا. اسمه «الخُلَاصَة غير اللاهوتية».

أنا ها أبقى المسيح المعكوس. أنا اسمي (فكتور المَلَاكي). أبويا،
المختص في اللاهوت، كان عاوز في البداية يسمّيني (توماس) على
اسم (توماس الأكويني) المُلقَّب بـ«الدكتور الملائكي»، لكن أنا ها أبقى
(فكتور الشيطاني).

ثم باللاتينية مُحَرِّفاً عنوان كتاب (توماس الأكويني) الأساسي:

- «Summa non theologica»



فرد (هيشم) ذراعيه على المائدة، كأنه على العرش، وقال بتقرير:

- المرحلة القادمة من توسيع الدوائر ها نسميها: مرحلة الأبعاد. إحنا ها نبدأ عملياً في رسم أبعاد العدم، اللي تكلم عنها (فريد) النهار دا.
ثم نهض قائلاً بلا مبالاة وسرعة:

- الاجتماع انتهى. ومصر انتهت. والعالم انتهى. والإنسان مات.



٤ - الرسول العكسي

استيقظ (فريد) مبكراً في الصباح التالي، فلم يجد (يمنى) جواره. ففكر أنها ولا بدّ قد خرجت لتقضي بعض حاجات البيت، الذي يخلو تقريباً من الطعام. تأمل - كعادة المكتئبين - شريط ذكرياته بعد استيقاظه: الطفولة الغريبة، التي حكمتها فكرة أن كل هذا زائل، وكل إنسان ميّت، وكل اللذات يتبعها تعود أو حرمان أو آلام. وهو مما أكسبه مبكراً، ودائماً، شخصية (حكيمة زيادة عن اللازم)، كما انتقدته زميلة بعد أعوام في إنجلترا (you are too wise). وتأمل مراحل تفوقه الدراسي من الصغر، التحاقه بكلية الطب، نجاحاته العلمية والمهنية، والتي حاول بها كلها تجنب تلك الأفكار السوداوية، والتي لم تنجح في ذلك على كل حال، ثم التطورات الأخيرة لنادي الانتحار.

انتبه إلى أنه ينام على جنبه الأيسر حين آلمته تكلّسات الحوض، فانقلب على ظهره، وراح يخدش كتفه اليسرى، ثم اليمنى بأظفاره؛ ليقارن بين درجتَي الإحساس. وتبيّن له هذا الصباح فقط أن الأعراض العصبية قد امتدت لتشمل النصف الأيمن كذلك.



ثم خطر له خاطر مفاجئ، وسأل نفسه: «هل السماء مغيمة اليوم؟»
نظر وراء ستارة تغطّي النافذة الوحيدة بالغرفة، فرأى المشهد الرهيب:
سماء بيضاء متجانسة قاسية!

جلس على الحشية يرتب أفكاره، وأمسك رأسه بيديه، وهو يحاول
ألا يترك فرصة لقدم أعراض (التزييف). فكّر أن التفكير بعد الاستيقاظ
مباشرة عادة غير صحية، على الأقل في حالته، لهذا فقد نهض سريعاً،
واغتسل، ثم قرر ألا يخرج إلى الشرفة أو الشارع اليوم، سيتناول فطوره
على مكتبه كالعادة، وسيطالع بعض المقالات، أو حتى يلعب بعض
ألعاب الاستراتيجية التي يفضلها على حاسوبه. لكنه توقف عند هذه
الفكرة: الألعاب الإلكترونية. لا، لن يلعب؛ إن العالم الرقمي عموماً
يستحث (التزييف)، ويبالغ من شعوره بأن كل هذا غير حقيقي.

كانت في رأسه عشرات الخواطر، وهو يشعر بذعر متنام من بدء
الأعراض المخيفة، جعل خواطره تتكاثر، وتتضارب، ويقتل بعضها
بعضاً. اتجه إلى المبرد (الثلاجة) للحصول على آخر قطعة كيك متبقية،
لكنه لاحظ - في فرع - ظاهرة بشعة.

كان المبرد معطلاً فيما يبدو، وقد سال كل الثلج بداخله لتتكون بحيرة
كبيرة أسفله. ولوهلة، وفيما يشبه الهلوسة، رأى أن المبرد عمارة عظيمة،
ككاتدرائية قوطية أو معبد فرعوني، وأنه يغرق في البحيرة، بينما يكافح
كائن بشع ما في الأعماق غير المنظورة للبحيرة كي يطفو. ثم تذكر أن
أعطالاً سابقة قد حدثت للمبرد، لكنها جميعاً لم تكن على هذه الدرجة،
وكلها جميعاً بدأت منذ أسابيع، منذ أن جاءت (يمنى).

وقف - وقدماه في الماء البارد - يفكر، ثم توجه إلى غرفة النوم.



وتأمل الإضافات التي قامت بها (يمنى): دولاب صغير لملابسها، تسريحة تتراص فوقها أدوات تصفيف الشعر والتجميل النسائية، الرائحة نفسها؛ رائحة امرأة تفعم المكان. ظل يتأمل كل ذلك، ثم توجه إلى غرفة المكتب لإحضار مسدسه.

عاد إلى غرفة النوم، وبحركة مباغتة فتح الدولاب، وهو يصوب السلاح إلى داخله. فتش الملابس النسائية المعلقة بفوهة المسدس المستطيلة، وحين لم يجد شيئاً أمعن في التفتيش بيديه. فتش كل جيب، وكل حقيبة يد، حتى اضطر إلى تمزيق بعض الأجزاء بيد مرتعشة. ثم ذهب إلى التسريحة، وفتش في كل أدراجها. لا يعرف بالضبط عما يبحث، لكنه سيعرفه حين يجده. سيبدو كأثرٍ ما من عالم آخر.

سمع الباب يفتح وينغلق، ثم خطوات (يمنى) وهي قادمة، لكنه لم يهتم، وهو يوليها ظهره ويفتش، وهو يقول في سرّه إنه ليس غيباً، إنه يعرف، وإنها ليست غيبة، وإنها تعرف أنه يعرف.

«بتعمل إيه؟!».

هكذا جمّدتْه عبارة (يمنى) المندهشة، فنظر إليها في مرآة التسريحة لشوانٍ بعين زائغة متفحّصة، ثم التفت إليها، وقطع المسافة بينه وبينها بخطوتين، وهو يصوب إليها السلاح.

تجمّدت هي بدورها، وسقطت المشتريات من يدها، وهي ترفع ذراعيها أمام صدرها بحركة غريزية طلباً للحماية، وخرست تماماً أمام نظرتة العدائية، المليئة بشكّ بلا حدود.

قال بكلمات دوّت كتألفات غليظة رهيبة في الفراغ:



- أنتِ جاسوسة.

ظلت تحدّق فيه بعينين متسعيتين خرساوين، فاستأنف بغضب مكتوم مخيف:

- .. ومش أي جاسوسة. أنتِ جاسوسة مش من عالمنا. أنتِ جاسوسة على الرسول.

ثم عالج السلاح تمهيداً لإطلاقه، مما جعلها تقول بصوت مرتجف ضارع:

- (فريد).. ارمي المسدس.. أنا (يمنى).. (يمنى) يا (فريد).

ثم صمتت بشفتين منفرجتين مرتعشتين، وعينين سالت منهما دمعتان. وحين رأى الدموع للمرة الثانية انكسر فيه شيء عظيم. تبدّلت نظرتة كأنما حلّ فيه شخص مختلف فجأة، وبدأ بدوره يرتجف، وهو يقول في حيرة وألم:

- أنا.. مش عارف.. أنا.. آسف..

ثم، وبحركة مباغتة، رفع السلاح إليه، ووضع ماسورته في فمه، وسالت من عينه المرتعدة المتسعة دمعة، فهتفت هي، وهي تقدّم إليه يديها في حرص:

- لا. (فريد).. هات المسدس..

لكنه ظل يرتجف، وأصبعه يتحرك على الزناد.

- (فريد).. هات المسدس.. أنا ها أمشي النهار دا لو عاوز..

خفض الفوهة قليلاً، فتجرّأت هي، ووضعت كفّها على كفّه في حذر شديد، وهي تكرر لاهثة انفعالاً:



- هات .. هاته .

بدأت يده ترتخي، فتناولت منه السلاح بحرص، حتى أفلته تمامًا، فوضعت السلاح جانبًا، واقتربت منه ببطء، وهي تمد يديها المرتجفتين نحو صدره، حتى وضعت يدها على قلبه، وقالت وهي لم تزل تلهث:

- خلاص .. انتهى .. أنا ممكن أمشي من حياتك .. بس أنت تبقى كويس ..

قال لها ببساطة، كأنه لا يلاحظ دموعه، أو دموعها، أو كأن شيئًا لم يحدث:

- ما فيش داعي .

ثم لاحظت أنه ينظر إلى نقطة ما خلف ظهرها، ثم تبين لها أنه بالأحرى يتأمل في الوجود ككل، وأنه يكتشف شيئًا.
”أنت كويس؟“

كان الزمان حوله لا يسير، كان يتجمد أحيانًا وينصهر، أو ينقبض وينبسط كنبضة. أما المكان فقد بدأ ينقلب بزواية قائمة، بحيث صارت الأرض جدارًا والسما جدارًا، وما بينهما أرض جديدة، وسماء جديدة. كل هذا جديد.

كل هذا جديد، ومثير.





الفصل الحادي عشر الأرض

١ - هبوط أدهم

في الشهور التالية، وقبل أن يُنتخب (محمد مرسى) رئيسًا لمصر، دخل (أدهم درويش) على رئيسه المباشر ليقدم كالعادة تقريره الشفهي. جلس أمامه، وبدأ يتكلم:

- أعتقد يا فندم إننا كنّا موفّقين في دعم ما يُسمّى بمشروع (الدوائر النوعية)، وتطويره المسمّى بـ (الأبعاد) على حد تعبير قائد المجموعة (هيثم الجمال). التطويرات الأخيرة منحت أصدقاءنا فرصة تدريب هائلة، والتقارير بتفيد بتحسّن أساليبهم مع الوقت. كثير من أهدافهم تلاقت مع أهدافنا. والتزامهم معانا باستبعاد شخصيات معينة من قائمة الأهداف نقطة أكيدة في صالحهم.

أوماً القائد برأسه موافقاً ببرود، وهو يقول:

- تمام. تفتكر أنت إيه دوافعهم النفسية من وراء التطويرات دي؟

تأمل (أدهم) ببعض الحيرة، ثم قال:

- أعتقد يا فندم إنهم يميلوا ميل قد يكون لا واعي لتطبيق شكل من أشكال سياسة (الأرض المحروقة) مع الإخوان؛ علشان يعني لما يصل الإخوان إلى السلطة، ودا أصبح أمر شبه مؤكّد حاليًا، بعد تقدم (مرسى)



على (صباحي) و(أبو الفتوح)، ما يلاقوش كيان ثوري شبابي يتحكموا فيه. في حالة نجاح هذه السياسة، اللي أنا شخصياً شايفه شبه مؤكّد كذلك، لن يجد الإخوان بعد وصولهم للحكم سوى عشرات التيارات الرافضة والمتمردة، اللي هي واقفة فقط عند حدود الرفض، دون مقترحات سياسية إيجابية، ها تجعل الفترة اللي ها يقضوها في الحكم جحيم. وها تنحسر كل الثورة في النهاية - ودا الأهم - في شكل تمرّد.

راح القائد يستمع، وهو يرسم بقلمه شارداً أشكالا لا معنى لها، لا بدّ أنها تمثّل سلسلة أفكاره، ثم رفع عينيه إلى (أدهم) قائلاً:

- وحالة (فريد) النفسية..؟

صمت (أدهم) لحظة مستجمعاً فكره، ثم قال:

- أعتقد دي النقطة السلبية في مسار الفريق حتى الآن. هي لم تؤثر على كفاءته سلبيّاً، بل ربما نقدر نقول: أثّرت إيجاباً، لكن معلوماتنا بتقول إن الحالة تطورت إلى نوع من العزلة المتزايدة، رغم إن (يمنى) أصبحت تقريباً عايشة معاه.

- بيحبها؟

- معلوماتنا بتقول العكس. أنا مش فاهم طبيعة علاقتهم الحقيقية.

شبك القائد يديه أمام صدره مفكراً، ثم قال:

- هممم.. ورأي الفريق النفسي..؟

- الفريق النفسي شايف إن العزلة التدريجية مؤثّر على تطور الحالة في المسار اللي إحنا خايفين منه.



- آمال ليه بتقول إنها «أثرت إيجاباً» على أدائه؟

- (فريد) أصبح أكثر عدمية، والفريق كله وراه.

راح القائد يكتب بعض التعليمات في دفتره، فالتقط (أدهم) بعض الكلمات فيما يخصّ تركيز الانتباه على حالة (فريد)، وربما التدخل في الوقت المناسب. اعتدل القائد باسمًا، وهو يشبك كفيّه فوق المكتب قائلاً:

- (أدهم).. أنت كنت دراعي اليمين في المهمة دي، وفي مهمات سابقة، وعلشان كده أنا دعمت من شهر اقتراح بترقيتك.

ابتسم (أدهم) في سعادة، ثم قال بتوقير:

- أنا تلميذك يا فندم.

قال له القائد، وهو ينظر في عينيه مباشرةً، ضاعطاً على مخارج نطقه:

- لكن أنا ما علّمتكش تخترق قواعد بياناتنا فيما يتجاوز المستوى المعلوماتي المسموح لك.

وجم (أدهم) تمامًا، وحدق في عيني قائده، ثم قال بقدرٍ من الارتباك، ووجهٍ يحمرّ تدريجيًا:

- أنا.. أنا يا فندم.. دي معلومات غير دقيقة..

تراجع القائد في مقعده، وهو يرمقه ببرود، فبتر حديثه وهو ينظر أرضًا مستمعًا إلى ضربات قلبه، كأنه صار في أذنيه. ازدرد ريقه بصعوبة، والقائد يتابع:

- إحنا أعدنا تشفير البيانات على أية حال. لكن دي سابقة خطيرة. ومش ممكن نسمح بتكرارها.



نظر (أدهم) إليه، وأخذ شهيقًا عميقًا، ولم يعرف ماذا يقول. استأنف القائد:

- حاليًا هناك اتجاه لتحويلك للتحقيق. وأنا ما أظنش التحقيق داها يبقى في صالحك أبدًا. ولأنك قدمت خدمات هامة لنا، ولأنك أثبتت كفاءة وإخلاص، أنا نفسي شاهد عليهم، فأنا عارضت بنجاح قرار التحقيق..

ثم تغيرت لهجته، واكتسبت جفافًا مهنيًا واضحًا:

- .. لكن الجهاز قرر الاستغناء عن خدماتك.

ثم نظر إليه مباشرة قائلاً باللهجة نفسها:

- آخر مستحقاتك ها توصلك بعد يومين يا (أدهم). لكن لازم تعرف إن أنت أو أولادك ما لكمش عندنا أي حقوق فيما وراء ذلك.

نظر (أدهم) ثانيةً إلى الأرضية، وشعر بأعراض دوار، ثم تجهز للنهوض، فنهض القائد بدوره، وصافحه بيد قوية، وقال:

- مع السلامة يا (أدهم). خد بالك من نفسك.

- متشكر يا فندم.

ثم انصرف مصدومًا. لكنه لم يكذ يغادر المكان، ويستقل سيارته، حتى هدأت صدمته، وابتسم في مرارة ساخرة، وقال لنفسه إن ما أصابه هو أقل ما يمكن، لو كانوا قد علموا بحقيقة ما فعل. هي خسارة كبيرة. ولكل مقامرة لحظة خسارة. حين تأكل من شجرة المعلومات المحرمة، رغم تحذير الإله، ثم يكتفي هذا الإله بطردك إلى الأرض، فعليك أن



تحمده على كل حال. وهو قد أكل ما يكفي، أكل لحدّ التخمة، وعلى الشيطان أن يجد لنفسه دوبليراً جديداً سواه.



٢ - رقصة الحُجُب السبعة

دلفت (سلمى) إلى شقة (منصور)، التي انتهت من تجهيزها، في الدور نفسه، الذي لم يعد يدفن فيه ضحاياه بعد حصوله على التدريب. وما لفت نظرهما من باب المصادفة الغريبة أنه استعمل اللونين الأساسيين اللذين استعملهما (فريد) في طلاء شقته: الأبيض المكسور بلمحة دخانية، مع الأحمر النيدي. تأملت الأثاث القليل صغير الحجم، الذي يتيح فضاءً أوسع، وراقت لها مكتبة نصف ممتلئة بكتب جديدة متنوعة، أغلبها في الفلسفة والتاريخ وعلم النفس.

«حلو الطلاء»

كذا قالت وهي تتأمل المكان، ثم أضافت:

- لكن موش شايف إننا كداها ننام فوق الأرواح؟

ابتسم، فبدت أسنانه البيضاء لامعةً في وجهه الأسمر الداكن، وهو يقول:

- بطّلي تخريف. ولو فرضنا أهو يبقى ونس.

- قريت كل الكتب دي؟

- لا، قريت خمسة أو ستة. لكن (فريد) نصحني إنني لازم أقرا كثير.



- ليه؟

- يعني .. بيقول إني ها بقى خليفته.

نظرت له في دهشة، وهي تنفث دخان سيجارتها، ورددت:

- خليفته؟!

لم يتبين حقيقة نبرتها، فمطّ شفتيه، ثم قال:

- هو بيقول كدا.

أومأت برأسها موافقة، وهي تنظر إلى الأرض نظرة غامضة لم يتبين حقيقتها كذلك وسط سحابة الدخان. أعاد التطلع إليها باهتمام قائلاً:

- قلت إيه؟

ظهرت عليها النظرة المسترحمة، وهي تقول:

- (منصور).. أنا موش عاوزة أتجوّز. يمكن لما أكبر شوية، لكن دالوقت لأ.

فتنهّد في إحباط. قالت:

- بص.. ليه ما نبدأش علاقتنا زي ولد وبنت عايشين مع بعض؟ أنا عمري ما منحت نفسي للنهاية لحد. لكن أنت الوحيد اللي أنا متأكدة إني ممكن أعمل معاه كدا.

- أنا ما عنديش مانع من ناحية المبدأ. لكن أنا مش شايفنا كدا.

- ليه؟ مجرد الرغبة في التملك؟

- طبعاً لأ.



- أُمال؟

زفر، ثم قال:

- بصراحة.. عاوز علاقتنا يكون لها شكل محدد.

- طيب وشغلي اللي بي فرض عليّا إني أكون متعددة العلاقات؟

- لا.. دا لازم يتغير. وأنتِ اتدربِ وتعرفي تستعملي أساليب مختلفة.

قالت وهي تهز كتفها في عناد طفولي:

- لأ.. موش ها ينفع. دا جزء منّي، ومن غيره موش بأحسّ إني حرّة.

ثم لمست ذراعه بيدها قائلة:

- لو بتحبني ها تبقى عاوزني في أي شكل.

- أنا بحبك وعاوزك في أي شكل، لكن ما أقدرش أقبل تعدد العلاقات.

- العلاقات دي مش حب يا (منصور). دي مجرد جنس. شغل. أنا شغلتي كدا. أنا معروضة في فاترينة.

- بس دا مش مجرد عرض.

- آه.. وتجربة كمان. لكن ما تخافش..

ثم اقتربت منه، حتى لفحته أنفاسها الجميلة، وهي تقول:

-.. أنا بقتل أي حد يلمسني. عاوز إخلاص أكثر من كدا؟

خفض رأسه يأساً من الكلام. وكأنها شعرت بذلك قالت في استبشار

مفاجئ:



- تحب أرقص لك؟

ابتسم، وقال بلطف:

- إحنا جايين نناقش موضوع مهم يا (سلمى) ..

- بس أنا عاوزة أرقص.

فصمت مرةً أخرى. اقتربت منه أكثر، حتى التصقت به، وهي تهمس:

- ها أرقص لك رقصة خاصة جدًا.

نظر لها بتساؤل بعينه البريتين المندهشتين قائلاً:

- خاصة؟

- خاصة جدًا. ولو عجبك.. لازم تقتل حد معين.

- مين؟

- أبوك.

- أبويا؟!

- آها.

-؟!

لم تجب تساؤله الأخير الصامت، بل عالجت هاتفها لتدير مقطوعة من سبع دقائق، بحيث تعيد نفسها دون نهاية، اسمها (رقصة الحُجُب السبعة)، التي لم تكن تعرف مؤلّفها^(١). خلعت نعلها، وأشارت له

(١) ريتشارد شتراوس.



ليجلس أمامها. أظلمت الغرفة إلا من مصباح صغير على المكتبة، فصارت تخطو بقدميها الحافيتين الدقيقتين على الخيط اللطيف بين عالمي الضوء والظل، دون أن تزل في أيهما.

في الواقع لم تكن هناك حُجُب سبعة؛ إذ ظلت ترقص لدقائق، وهي تخلع جزءاً من ملابسها كل دقيقة أو دقيقتين، حتى لم يعد يستر جسدها سوى جورب نصف شفاف طويل، يصل إلى ما فوق ركبتها، لكن تلاعبها بين النور والظلام هو الذي خلق أمام عيني (منصور) إشراقات خاطفة، متبوعة بليالٍ نصف مظلمة، وبحيث لا يغيب أي من الضوء والظل عن جسمها. أما شعرها الطويل الغزير المحلول فقد توهم أطرافه في شبه الظلام كأصابع من الليل، تتحسس في طرفات العين أشد زوايا جسدها الأبيض اللامع خصوصية. ومع الوقت بدأ كل من جبهتها ونهديها وبطنها يلمع بحبات مضيئة من العرق، المشهد المبلل الذي بدا له مثيراً إلى حد الإرهاب.

وحين أقبلت عليه، مدّ إليها ذراعيه، ولم تمنع هي - وهي لم تزل ترقص - أن يتحسس هذا أو يمسك ذاك، ويده تنزلق بسبب العرق كلّ مرة. بدت له كسمكة تمنح نفسها، وهي عليمة أنها ممتنعة على يديه. ظل يحاول قنصها، وهي تتسرب من بين أصابعه كظلّ أبيض رطب، أو كحلم لا يتحقق. مدت يدها لتفك زراً من أزواره، فنهض وخلع ملابسه في سرعة.

فقط حين جلس عارياً، بجسده الفرعوني المتّحد بالليل، على كرسيه، هبطت إليه - كالشمس - من أرقى سمواته، وأكثرها شهوفاً. جلست على فخذه مواجهة إياه، فأحس برطوبة العرق على باطن فخذيها. احتضنها بشهوة عارمة، فاحتضنته، وتركته يحقق كل أحلامه.



وبعد قليل كانت تصعد وتهبط بإيقاع تناغم بشكل ما مع إيقاع الرقصة، التي صارت تسري كخلفية ملوّنة صاخبة، مانحةً إيّاهما جوّاً عامّاً أقرب إلى هלוسة شهوانية، جاءت من أدغال بدائية، تقام فيها طقوس جنونية همجية للخصوبة. كان يتوحد مع جسمها، الذي امتزج جزئياً بالظلمة، فلم يعد يعرف حدوده بالضبط، وبدا له سرمدياً كونيّاً، بلا بدء ولا منتهى. أما هي فقد اندمجت مع الموسيقى خلفها، ومعه هو أمامها وتحتها، وصار إيقاع حركتها لا يأتي من إرادتها، بل من إرادة مجهولة عليا متناقضة بكل ما في أعماقها من خُصْب وتخليق وموتى دفينين.

وقرب الذروة، ذروتها وذروته، كانت تنظر في عينيه، وتحولت نظرتها إلى استشهاد مُسترحم. وفي الظلام والأعيب الظلال والضوء الخافت بدأت - لدهشتها - ترى في عينيه عيني شخص آخر.

هنا.. نهضت عنه في مفاجأة سيئة، وانكسر الحلم كله بغتة، وتناثرت شظاياه بقرقرة شعورية مدوّية ومُدْهِشَة.

ظل رافعاً ذراعيه حاضناً الهواء في تساؤل، ثم في دهشة، وهي تبتعد، وتخبيّ معالم جسدها بذراعيها، ثم تختفي في الظلام التام في ركن الغرفة، حيث تركت هاتفها يدور، الهاتف الذي أغلقته، ليصحو (منصور) تماماً من حُدْره.

ظل جالساً يلهث ويتساءل، ثم خجل أمامها من عريه، فنهض وستر جسده، وقال:

- ما لك؟

كانت لم تزل منزوية بين جدارين، وهو يقترب في حيرة. اختبأت



أكثر في الظل، وقد خطر لها خاطر مفزع؛ أنّ الأرواح الدفينة في الجدران
تشاهدها، كفيلم إباحي مقدّم خصيصاً للموتى!

وحين اقترب أكثر هتفت في فزع غاضب، وهي لا تنفك ترى في
عينيه عينين أخريين:

- ابعد.. ابعد عني.

ثم بدأت برودة تجتاح جسدها، فارتجفت، وأحست برعب لا
تعرف كل أسبابه. وفي رأسها رتت عشرات العبارات بصوت (منصور)،
وتداخلت، فلم تعد تفهمها، لكن صوتاً آخر قد تداخل مع صوته، ليصنع
مزيجاً غريباً، فلم تعد تعرف أيهما يقول، ثم بدأت لأول مرة ترى ملامح
ذلك الكيان الشيطاني القديم، الذي يغتصبها كلما أسلمت أحداً جسمها،
وهو يطفو في الظلال.

وبتدرّج سريع شرعت فكرة مخيفة تتبلور: (فريد) هنا!

رفع يده قائلاً شيئاً ما:

- (سلمى).. أنا..

تناولت بغيّة نصلاً لامعاً من حقيبتها، وأشهرته في وجهه هاتفة:

- اخرج.. اخرج.

فتراجع مصدوماً مشيراً لها بيديه كي تهدأ، وغادر الغرفة، مغلقاً خلفه
الباب.

وطيلة نصف الساعة ظل جالساً دافئاً وجهه بين راحتيه، وإلى صدره
يتسرّب من مصدر مجهول دخان شعوريّ أسود كثيف، كأن روحاً فيه



يحترق. وبرغم ما يعرفه، ويعرفه الآخرون، عن تسامحه التلقائي معها، فإن شعورًا آخر مختلفًا قد تغلب فيه على هذه الطبيعة بقوة عاتية؛ شعور الكراهية الناجم عن التهاب الذات. وتذكّر - في ألم بالغ - أول موقف بينهما، حين سخرت منه وأهانته بلا مبرر، فتسبب ذلك في ارتكابه لأول جريمة قتل.

وحين لم يُطق الألم تذكّر مخرج الطوارئ، فتناول مسدسه مكتوم الصوت من أحد الأدراج، وتأمّله لحظات، قبل أن يرفع فوهته إلى فيه. تردد لثوانٍ، وعرق بارد يحتشد على جبهته، ويبلل حاجبيه، ويده المتعرّقة ترتجف على الزناد. قارن - لا شعوريًا - بين سمكة الحياة السابقة، وسمكة الموت الحالية. سيموت بعد أن صادَ كلاّ منهما، إلى حد ما على الأقل. بدأ يضغط الزناد.. ولكن..

انفتح فجأة باب الغرفة، وخرجت (سلمى) مشهرة نصلها، وهي تصرخ في ثورة عارمة:

- أنت إيه اللي جابك هنا؟ أنت لازم تبعد عني.. أنت لازم تموت..

التفت لها في فزع ودهشة، فرآها لم تزل عارية إلا من جوربها الطويل، لكن ملامحها اكتسبت شراسة غير مسبقة، وبدت عيناها المتباينتان تبرقان بلونين متداخلين، أحدهما عسليّ يتوهج بغضب ساطع، والآخر أخضر يبرق كعين نمر يتأهب للوثب.

ثم وجدها تخفض سلاحها، وقد لاحظت أنه كان على وشك الانتحار. عندئذٍ انطفأت عيناها بغتة، وتحول انفعالها، وهي تقول بلوعة:

- لا.. موش أنت يا (منصور)..



ثم بترت عبارتها، ورصاصة شبه صامته تخترق صدرها، وتدفعها، لترتطم بالباب نصف المفتوح خلفها بعنف، فتترك آثار الدم، ثم تهوي أرضاً بلا حراك.

ظل (منصور) واقفاً، نصف عارٍ، موجّهاً مسدسه إلى حيث كانت تقف، وهو يرتجف، ويلهث من منْخريه في انفعال عام وكراهية، بينما فاح دخان البارود ممتزجاً بأبخرة الغضب. كان واضحاً بالنسبة له أنه قرر في لحظة واحدة الخلاص التام والنهائي من شخص، حتى لو أحببته، فقد صار وجوده مؤذياً في حد ذاته. هكذا تبلور فكرة القتل.

سقط جسده في حالة إعياء بالغ مع انسحاب الأدرينالين. سعل عدة مرات، وخيوط العرق تغسله من ذات قديمة، كانت جديدة يوماً، وهي تحديداً التي جذبت له (سلمى). وفي عقله تردد معنى محدد بصوت جنائزي هادئ:

«هذا هو بيتك يا (سلمى) كما أردتُ لك. أما أنا فسأرحل كما أردتِ لي».



٣- الأرض المحروقة

كان (هيثم) يروح ويجيء في انفعال في صالون داره، حيث جلست (يمنى) وعلى وجهها أمارات قلق واضحة، في حين كان (فريد) يدخن في شرود تام وصمت. أما (فكتور) فقد قال:

- اهدا بس يا (هيثم). مش ممكن نعرف نفكر بالطريقة دي.



راح (هيشم) يلّوح بذراعيه قائلاً بغضب:

- أهدأ إزاي؟ البنت ما حدش يعرف عنها حاجة من أسبوع، اختفت بدون أثر. (منصور) كمان اختفى. والأتنين في ليلة واحدة. أنا عاوز أفهم إيه العبارة؟

قالت (يمنى) بصوت مرتعد، وهي تشيح ببصرها:

- مش وارد يكون اتقبض عليهم؟

صاح (هيشم):

- كنّا ها نعرف. مش فاكهة التدريب؟ وعلى أي حال أنا بلغت أخويا بالبحث عن (سلمى)، وهو بيؤكد إن ما فيش لها أثر.

قال (فكتور)، وهو لا يقل قلقاً:

- أو ربما اتقتلوا في مهمة؟

- يا بني آدم مهمة إيه؟ المهمات كلها لازم تتناقش في اجتماع.

ثم أمسك رأسه، الذي أوشك على الانفجار، وهتف:

- (سلمى) تتقتل؟ دا أنا كنت أحرق نفسي. كنت أولّع في البلد كلها!

«(سلمى) اتقتلت»

هكذا هوت عليه عبارة (فريد) كالصاعقة الباردة، فالتفت إليه ببطء ووجوم، و(يمنى) تسأله:

- عرفت إزاي؟

كان (فريد) يشعل سيجارته، لكنه بدلاً من ذلك أبعد القدّاحة عن



السيجارة، وظل يتأمل في اللهب العالي، بإشارة صامتة بليغة، ثم نظر إليهم نظرة صارمة قاسية. فهتف (هيثم):

- لا، ما فيش أحلام ولا زفت.. مش ممكن نعتمد هنا على حلم.

قال (فريد) بسرعة:

- ونجاح (مرسي) في الجولة الثانية؟

صرخ به (هيثم) ملوحًا بيديه:

- مجرد تأثر بكلام الرائد زفت اللي عنده معلومات عن دا. أنا عاوز أعرف أخبار يقينية.

هتف (فريد) فجأة بنبرة عنيفة:

- دي الأخبار الأكثر يقينًا على الإطلاق. (سلمي) اتقتلت واندفنت في الأرض.

اقترب منه (هيثم) قائلاً:

- طيب فين؟ قل لي في أنهي أرض؟ ومين عملها؟

أشاح عنه (فريد) وهو يقول:

- مش عارف. كل اللي شفته أنها مجروحة، عريانة، ومدفونة في الأرض.

توغلت فيه كلمات (فريد) كأنياب سيفيّة، تنهش قلبه وكبد، وهو يقول في أسى أقرب إلى البكاء:

- (سلمي)؟ له؟ دي كانت بنتي.. كانت ملاك.



كان لـ(فريد) رأي مختلف، فصمت، و(فكتور) يقول بصوت مبحوح:

- (هيثم).. ما فيش حاجة نعملها. إحنا كنّا بنخاطر في جميع الحالات من البداية.

همد جسده على مقعد قريب، وقال:

- لو لم نجدها أناها أنتحر. مش ها أقدر أستحمل الألم. هي الوحيدة اللي كانت بالنسبة لي ظلّ من شمس الحقيقة. أنا من غيرها أتحرق.

قام (فريد)، واقترب منه، ثم وضع يده على كتفه في ثبات داعم لشوانٍ صامتًا، تحرك بعدها إلى باب الشقة، لكنه توقف كأنما تذكّر شيئًا، فقال:

- على فكرة.. في الحلم النار كانت في الأرض.. الأرض نفسها كانت بتتحرق.

ثم غادرهم، وهُم من كلماته في وجوم أقرب لصدمة بطيئة ممتدة. ساد الصمت لحظات ثقيلة مريرة، قبل أن يقول (فكتور) بصوت جاء خافتًا رغماً عنه:

- تفكّر (منصور) هو اللي عملها؟

هتفت (يمنى) محدّرة غاضبة:

- (فكتور)!!

لكن (هيثمًا) قال وهو يفكّر:

- همّا كانوا بيحبّوا بعض. أعتقد إن الوحيد اللي هي حبّته فعلاً كان



(منصور). والحب هو الشيء الوحيد اللي ممكن يتحوّل للقَدْر ده من الكراهية.

سأله (فكتور):

- طيب القيادة رأيها إيه؟

- القيادة ما تعرفش عنها أي أخبار زي ما قلت. وأعتقد إنهم ها يتعاملوا مع الموضوع باعتباره خسارة متوقعة.

ثم وضع وجهه بين راحتيه في ألم عميق، وصمت، فنهضت (يمنى) في عجلة، وقالت لـ(فكتور):

- خليك معاه، ما تفارقوش. أنا لازم أشوف (فريد). لو حصلت أي مستجدات لازم تكلمني ضروري.

وخرجت من الدار فعلاً وهي تتصل بهاتف (فريد). وبعد بعض الساعة كانت قد وصلت إلى شقته.



دخلت (يمنى) إلى شقة (فريد)، فوجدته جالساً في جمود وصمت تامين أمام مكتبه، لا يتأمل سوى في ذلك السطر الشعري المحرّف على الجدار المقابل. استشعرت نوعاً من المناخ الجنائزي، الذي لم تشأ مقاطعته، فذهبت إلى غرفة النوم لتبدّل ملابسها، ثم عادت لتجده قد أسند رأسه على ساعديه المعقودين على المكتب، كأنه قد نام. وضعت يداً حذرة خفيفة على كتفه، وهمست:

- (فريد)؟



فلم يتحرك أو يتكلم. عادت تهمس:

- لوها تنام ادخل نام.

رفع رأسه معتدلاً على كرسيه صامتاً. سألته بصوت متحشرج:

- أنتَ حلمت بـ (سلمى) امتي؟

- من شهر.

- من شهر؟؟!

كذا هتفت باستنكار ودهشة، ثم أضافت:

- وليه ما قلتش لحد؟ ليه ما حذرتش؟

أرسل إليها نظرة جانبية، وقال:

- ما فيش فايده.

دارت حوله لتواجهه قائلة:

- ما فيش فايده يعني إيه؟

التقط شهيقاً عميقاً بصدر ضيق، وقال:

- يعني الأحلام دي مجرد نافذة على المستقبل، مش باب. كأنك

بتتفرج على فيلم قبل عرضه، وما تقدرش تغيري أحداثه. كان ها يحصل أي ظرف يمنع الاستفادة من التحذير؛ عدم تصديق الحلم، أو تصديقه مع عدم القدرة على تفادي المصير لسبب أو لآخر.. أي حاجة.

ظلت تحمق فيه محاولةً استيعاب كلامه، أو ربما تصديقه، لم تعد

تعرف، ثم همست بصوت مرتجف:



- و(منصور)..؟

- ما له؟

ازدردت لعابها بصعوبة، وقالت برجفتها نفسها:

- .. هو اللي عملها؟

- أعتقد كدا.

هوى جسدها على مقعد، وقالت في بكاء بلا دموع:

- أنا مش مصدقة. أنا حاسّة.. حاسّة إننا السبب في قتل طفلة صغيرة،
كلنا متورطين.

التفت لها قائلاً بسخرية لاذعة:

- السبب في قتلها؟ وما كناش السبب في تحويلها لقاتلة؟

- أنت عاوز تقول إيه؟

- عاوز أقول إنها قاتلة واتقتلت. مصير طبيعي ومتوقّع. أنا حزين على
وفاتها زيكم. بس الفرق إني مستعد لتقبّل مقتل أي حد منّا أو انتحاره.
هتفت ثائرة:

- بس مش لّما واحد منّا هو اللي يكون قتل الحد دا. أنت اللي حوّلت
(منصور) لقاتل بارد، بيقتل حتى حبيته. أنا كنت متأكدة أنك بتلعب به،
لكن ما تصورتش أن (سلمى) تكون هي الهدف.

صاح بصوت معدني قاسٍ، وهو يشير إلى صدره:

- لازم تكوني متأكدة من إن لو هو اللي قتلها، فمن المؤكد إنها آذته



جدًّا للوصول إلى هذه المرحلة. وأنا عارف إنها قادرة على دا. هي اللي تعاونت معايا في تحويله لوحش. وربما كان عندها أهدافها الخاصة ورا دا. وربما أنا نفسي كنت (هدف) من أهدافها. هي لعبت بالنار. لعبت معايا أنا.. أنا.

ثم نهض منفعلًا، وقال ساخطًا:

- وبعدين أنتِ حاولتِ تغيّريني.. وأنا سمحت لك.. أنتِ ما تعرفيش أنتِ دمرتيني لأي حدّ. ومع ذلك فشلت. اللي حصل نتيجة لفشلِك.

حدّقت فيه بفزع، كأنها تنتبه إلى هذه الحقيقة للمرة الأولى، ثم زاغت نظرتها، وهي تمسك رأسها بيديها، وتقول بحيرة هائلة:

- أنا مش عارفة أعمل إيه. أنا ها أنسحب من النادي، ومن أي نشاط متعلق به. أنا..

قاطعها هاتفًا:

- و(مينا دانيال)؟ وفناة مجلس الوزراء؟ وعشرات القتلى والشهداء؟ مين ها ياخذ حقهم؟ مين اللي ها يقتلهم قبل ما يبقوا شهداء؟ مين اللي ها يحطّم نظام العالم الفاسد؟ مين ها ياخذ حق (سلمى) من المجتمع، ومن العالم، ومن الأرض، ومن السما؟

صمتت باكية ضائعة، وقد كَفَّت عن التفكير، فقال بلهجة أكثر هدوءًا:

- إما تنتحري أو تكملّي الطريق معانا. إما ننتحر كلنا، وإما نكمل طريقنا. ما فيش اختيار تالت.

ولفّهما الصمت لحظات، فنهض واحتوى رأسها في صدره، رفعت إليه عينيّن دامتَيْن معذبتَيْن، ولم تستشعر دفئًا، بالأحرى شعرت كأنما



يحضنها جسم ميّت، وبدأت تقدّر الآن فقط مدى ما حقّته من فشل . فتح درجًا في مكتبه، ثم أخرج لها شريط دواء، وقال:

- خدي المنوم دا. ولما ها تصحي ها تحسّي إنك أفضل. وتقدري تفكري أحسن.

أخذت منه الشريط بيد متخاذلة، وسألته:

- أنت مش ها تنام؟

- أنا منتظر رسالة من القيادة.

- بخصوص التشفير؟

- لا.. أعتقد بخصوص مهمة جديدة.

- بخصوص مهمة؟ من القيادة مباشرة مش من (أدهم)؟

- يبدو إن دا - إن لم يكن وضع استثنائي- فهو النظام الجديد. يعني أنا ها أتحوّل إلى عنصر الاتصال مع القيادة بدلًا من (أدهم).

أومأت برأسها فهمًا، ثم نهضت بخطوات متثاقلة إلى المطبخ لتناول المنوم، ثم إلى غرفة النوم، وعاد الصمت التام يسيطر على المكان.

أشعل (فريد) سيجارة، وقد قدّر أنه الليلة سوف يستهلك علبة كاملة. وبشكل لا شعوري بدأ يرسم على سطح المكتب الأبيض بقلم رصاص أشكالًا تشبه الخلايا العصبية، بحيث تتربط فيما بينها على المدى البعيد. لا يدري لماذا يرسم هذه الأشكال بالذات حين يشرد، وكان تفسيره المبدئي أنه مشغول بشكل غير واعٍ بنموذج التواصل المعلوماتي. وحين أوشك على إشعال سيجارة ثانية، ارتفعت نغمة هاتفه معلنة استقبال



رسالة متعددة الوسائط، فانتزع الهاتف بسرعة، وقد خطر له أن مهمة جديدة قادرة على تخفيف اكتئاب اليوم.

وحين حلّ الشفرة على وريقة صغيرة تراجع في مقعده محملاً في الحل، وتجمّد جسده وكل ملامحه في دهشة وتساؤل.

كانت الوريقة تحمل ثلاث كلمات فقط:

«اقتل (سمير عياد)!»



٤ - لغز سمير عياد

بعد يومين التقى الرفاق الأربعة المتبقون في شقة (هيثم)، الذي بدا مرتجفًا، ومفتقرًا إلى طابعه المسيطر الحازم. في الواقع بدا شبيهًا بـ(منصور) حين دخل عليهم لأول مرة إلى حد ما. كان الوجوم والحزن ما يلخصان ملامحهم ونبرات حديثهم. جلسوا في الصالون، حيث راح كل منهم يدخن دون مخدرات، كأنّ للاكتئاب حد أقصى معين، يصير فوقه كل شيء، مهما كان، بلا معنى، ويضيع بلا أثر.

قالت (يمنى) التي ترتدي السواد:

- ها نعمل إليه؟

بدا أن أحداً لن يجيبها، ثم قال (هيثم)، ويده الممسكة بسيجارته ترتجف بلا انقطاع راسمة منحنيات أفقية من الدخان، كأنها رسم قلب أو أعصاب:

- مش عارف.



ثم قال ناظرًا للا أحد:

- مش عارف نكمّل ولا لأ. ونكمّل إزاي؟ وها نتجاوز فقد (سلمى) إزاي؟ أنا ها أتجازه إزاي؟

قال (فريد):

- أعتقد إنك محتاج مهمة جديدة.

وزّع (فكتور) نظراته بينهما، قبل أن يقول بحذر:

- وهو دا برضه الوقت المناسب؟

مطّ (فريد) شفّتيه بلا مبالاة، وقال:

- ما فيش حاجة تنسّينا الدم غير مزيد من الدم.

ثم نفث دخانه متأملًا:

- الدم سائل غريب جدًّا؛ مجرد خطوة واحدة فيه تحوله فجأة لبحر. بحر أنت في منتصفه بالضبط. وعليك أنك تخطو في المزيد من الدم من أجل الضفة الأخرى.

ثم التفت إلى (فكتور):

- مش شاعرك المفضّل يقول «لا تصالح على الدم حتى بدم»؟ أنت ممكن تحرّفها كالتالي: «فلتصالح على الدم دومًا بدم». أو حاجة زي كدا.

أومأ (فكتور) باختصار مراعيًا حزن (هيشم). وساد صمت جديد، قطعه (فريد) بقوله:

- عمومًا أنا عندي مهمة جديدة.



رفع (هيشم) إليه عينيه في تساؤل قائلاً:

- مهمة لك لوحده؟

سعل (فريد) لحظة، وهو يقول:

- أي نعم. القيادة بعنت لي أمر بتصفية (سمير عياد).

تراجع (فكتور) باستنكار قائلاً:

- (سمير عياد)؟ مش دا الباحث الفلسفي اللي تعرفه من فيس - بوك؟

تأمل (فريد) لهب سيجارته، وقال:

- هو. يبدو أنه من الوجوه الليبرالية المستهدفة، هو ناقد شديد للإسلاميين، لكنه برضه ناقد جذري للثورة عمومًا، وبدون أي نشاط سياسي ظاهر.

- ودي صدفه بحتة؟

- أعتقد.

قطع (هيشم) حوارهما باستنكار أكبر من (فكتور):

- لحظة واحدة. (سمير عياد)؟! إزاي؟

نظر الجميع له في تساؤل، وقالت (يمنى):

- وإيه الغريب في دا؟

فكّر (هيشم) بحيرة كبيرة، ثم قال:

- لأن بعد ما (فريد) اتكلم عنه في أحد اجتماعاتنا بصدد منحة دراسية، (سلمى) قالت لي أن ما فيش حد في القسم عندها بالاسم دا. يعني الشخصية مزيفة، والحساب مزيف.



تبادلوا النظرات الحائرة، وقال (فريد):

- يمكن هي معلوماتها منقوصة.

قال (هيشم) بإصرار:

- لا، بالعكس. هي بسبب عملها في الصحافة كانت بتعمل أحياناً حوارات مع أعضاء القسم. وبتقول إنها سألت في القسم عنه علشان تعمل معاه حوار عن المنحة اللي اتكلم عنها (فريد)، وعرفت إن ما فيش حد بالاسم دا.

تراجع (فريد) بدهشة، واتسعت عيناه لحظة، قبل أن يخرج هاتفه بسرعة ليراجع رسالة القيادة الأخيرة، ثم قال لهم:

- آدي الرسالة. أنا تصورت للحظة إني حليت الشفرة غلط، برغم إن دا مستحيل.

وضع (فكتور) غليونيه جانباً، وراح يحل الشفرة على الهاتف، قبل أن يقول لهم مندهشاً:

- الكلام صح. يبقى كلام (سلمى) غلط، وإلا يبقى أعطونا مهمة مزيفة!

قال (فريد):

- سهل نعرف.

ثم بحث عن رقم قسم الفلسفة على الشبكة، قبل أن يطلبه قائلاً:

- ألو...؟ سكرتارية القسم؟ أنا صحفي من جريدة.. (أخبار التعليم



العالي). أهلاً بك. ممكن من فضلك أعرف مواعيد الأستاذ (سمير عياد)
المدرس المساعد بالقسم؟

تعلّقت به أنظار أصدقائه في ترّقب، ثم رأوه ينهي المكالمة واجمّأ،
وصمت شاردًا بحيرة أكبر وأكبر. فسأله (هيثم):

- إيه؟ قالك إيه؟

التفت (فريد) ناحيته ببطء، وقال دون أن ينظر إليه:

- فعلاً. كلام (سلمى) صح.

سأله (فكتور):

- وها تعمل إيه؟

نظر له (فريد) لحظة صامتاً مفكراً، ثم قال:

- هو في قائمة أصدقائي على فيس - بوك. ها أطلب مقابله.

فتح صفحة فيس - بوك على هاتفه، ثم بحث عن (سمير عياد)، وقام
بعرض (البروفيل) الخاص به، وكاد يرسل له، لولا أن استوقفه شيء ما.
وبدا شديد الاهتمام وهو يقرأ منشوراً طويلاً فيما يبدو. لم يكمل القراءة،
بل نظر لرفاقه بدهشة أكبر من كل ما سبق، وهمّ بقول شيء، لكنه انتزع
جاكيت بذلته، ودسّ قدميه في حذائه بسرعة، وبشكل متخبّط، و(يمنى)
تقول:

- إيه اللي حصل؟

تجاهلها، وهو يفتح باب الشقة، ويخرج مسرعاً دون إجابة.

تبادل ثلاثتهم النظر الحائر، ثم فتح (فكتور) صفحة فيس - بوك
بدوره، وبحث قليلاً عن اسم (سمير عياد)، وبدأ يقرأ معلوماته:



- (سمير عياد)، مدرس مساعد بقسم الفلسفة.. إلخ.. إلخ..
ثم صمت هو الآخر فيما بدا لرفيقه أنه وصل إلى ما وجدته (فريد).
رفع إليهما عينيه وقال بلهجة خاصة:
- أعتقد أنا عرفت إيه اللي حصل..
وأمام أعينهما رفع هاتفه، فقرأ عنوان المنشور المقصود، الذي نشره
(سمير عياد) هذا الصباح:
«ملاحظات حول (برهان المحاكاة) لـ (نيك بوستروم) القائل بأن
عالمنا - على الأرجح - غير حقيقي»



٥ - برهان المُحاكاة

«في عام ٢٠٠٣ نشر السويدي (نيك بوستروم) الأستاذ بجامعة
أكسفورد ورقة علمية، أثارت لغطاً كبيراً في الأوساط الأكاديمية الغربية،
والعالمية، بل ووصل صدى هذا الجدل إلى الثقافة العامة، وأحدث ردة
فعل هائلة لدى المهتمين بنظريات المؤامرة العالمية. بالأحرى فتح أفقاً
جديداً لهذه النظريات لتمتدّ فيما وراء عالمنا كله، وتسمّ الواقع نفسه
بسمّة المؤامرة بما هو واقع.

يزعم (بوستروم) بشكل أساسي أن واحدة من المقدمات التالية لا بدّ
أن تكون صحيحة:

سوف ينقرض الجنس البشري على الأرجح قبل الوصول إلى مرحلة
بعد - إنسانية.



يكاد يكون من غير المرجح إطلاقاً أن تُجري أي حضارة بعد - إنسانية عدداً معتبراً من تجارب المحاكاة لتاريخ تطورها الخاص، أو حتى التنويع عليه.

من المؤكّد تقريباً أننا نحيا في برنامج كمبيوتر عملاق يحاكي، أو يُنوع على تاريخ سابق للإنسانية.

ويتبع ذلك.. إلخ^(١).

يناقش (سمير عياد) بعد ذلك النتائج المترتبة على هذه المقدمات. ويخرج بنتيجة أن عالمنا هو - على الأرجح - محاكاة لجزء من ماضي البشرية. صحيح أن النتيجة بدت غامضة بسبب افتقارها إلى البرهان المحكم، لكن الاهتمام ذاته بدا لـ(فريد) مثيراً، وهو كالمجنون يقرأ المنشور، وقد نسي تدخين سيجارته في ذلك التاكسي، الذي استقلّه متّجهاً إلى شقته، حتى استطال عمود الرماد. يجب أن يقابل هذا الرجل اليوم؛ لن يستطيع الانتظار. هل يعاني بدوره من أعراض (التزييف)؟ ربما، وربما لا. لكنه سيجد عقلية يحترمها، برغم أن هويتها موضع شكّ حالياً، تشاركه هذا الهمّ المرير.

لم يقرأ أكثر، بل بعث برسالة على فيس - بوك إلى (سمير عياد) تطلب مقابلته بصدد هذا المنشور على وجه السرعة. هل اسمه الحقيقي كذلك؟ هل هو باحث فلسفي فعلاً؟ إذا كان شخصية مزيفة فلن يوافق على اللقاء غالباً. ماذا لو لم يوافق؟ هل يستعين بالقيادة للتوصل إليه؟ ولماذا تطلب القيادة تصفيته؟ هل له علاقة سرّية بالإسلاميين، بالإخوان تحديداً؟

(١) الورقة حقيقية، ومنشورة في Philosophical Quarterly (2003) Vol. 53, No. 211. وكل ما يلي في الموضوع من نسج المؤلف ولا علاقة له بهذه الورقة.



ولماذا يصطنع أحدهم حسابًا مزيّفًا لباحث فلسفي؟ ألا يمكن لمن شاء أن ينشر تأملاته الفلسفية، طالما هي على هذه الدرجة من الجدّية، على حسابه الحقيقي؟ هل..؟

ثم قطعت تسلسل أفكاره نغمة تفيد استقبال رسالة على فيس - بوك.
نعم، لقد وافق (سمير عياد) على مقابلته.. فورًا.



وفي شقته جلس (فريد) ينتظر قدوم (عياد). أعدّ فنجان قهوة، وراح يدخن، ويحاول قتل الوقت بقراءة المزيد من منشورات هذا الأخير على حسابه. مع ذلك لم يستطع التركيز، ووراء كل خواطره راحت فكرة واحدة تدور في دائرة مغلقة: «هناك شيء غريب يحدث. شيء غريب يحدث هناك. غريب هناك يحدث شيء. شيء هناك يحدث غريب».

وبعد هنيهة سمع جرس الباب. وحين فتحه أطلّ وجه مألوف، لكنه لم يتعرّفه للوهلة الأولى، ثم حذق فيه بذهول تام.

«السلام عليكم. (سمير عياد) في خدمتك»

فأمام عينيه وقف الرائد (أدهم درويش) بنفسه، فحملق فيه (فريد)، الذي صار يشكّ في حواسّه، وهو يتحقق من صدق عينيه وأذنيه. هو (أدهم) بلا شك، على الأقل إذا استثنينا الشك الجذري في الحواس.

مدّ إليه يده ليستجيب لمصافحته بشكل آليّ، ولم يردّ - بسبب دهشته - التحية. أعاد تفحصه وهو يدخل معه إلى غرفة المكتب، وهو يجلس، وهو يخرج من علبة سيجارة، وهو يشعلها.

ابتسم الرائد قائلاً:



- أنا عارف إنها مفاجأة بالنسبة لك. لو ممكن كاس ويسكي من فضلك، يفضل يكون مستورد. دُوبِل.

ثم غمز بحركة عابثة، وهو يكمل:

- أُون ذاروكس (على الثلج).

فاستقبلتها عقلية (فريد) شديدة الارتياح استقبلاً خاصاً، كأنه يتعمد الإشارة إلى الثلج، الثلج الذي ذاب منذ شهور في أعماقه مخلّفاً دماراً شاملاً لعالمه الخاص.

وحين أتاه بالكأس، وجلس قبالة، قدّم لـ (فريد) سيجارة، حين لاحظ أن علبته فارغة، فتناولها بيد مرتعشة، ونظرات تشعّ بالتساؤل الراديكالي، وأشعلها ملاحظاً رقصة النار المُهابة. نفث الدخان مفكراً: هل انتصرت النار في عالمه على الثلج؟ إلى أي حد يعرف عنه هذا الشخص؟ كيف يكون ضابطاً - عميلاً تخابرياً - مثقفاً فلسفياً بهذا العمق؟ السؤال الأخطر هو: هل نشر هذا المنشور اليوم؛ ليقراه هو بالذات في هذا التوقيت عن قصد؟! سؤال مجنون، لكنه - بحسبه - ممكن.

قال (أدهم):

- طبعاً أنت عارف إني غير آسف على الحيرة اللي سببتها لك. دي طبيعة شغلي. أنا متابعك من زمان على فيس - بوك، من قبل صداقتنا عليه. والحقيقة كانت مصادفة غريبة ومدهشة بالنسبة لي إن القيادة تختارك، أنت ومجموعتك، للتعاون.

ثم ارتشف من كأسه، وابتسم قائلاً:

- لكن لو فكرت كويس مش ها تلاقيها مصادفة غريبة للدرجة دي.



تكلم (فريد) للمرة الأولى:

- له؟

مط الرائد شفتيه قائلًا، وهو ينفث دخانه:

- كل الخيوط قادتنا لحدّ هنا، شئنا أم أبينا.

ضيق (فريد) عينيه، وهو يقول:

- أنا كنت شاكك فيك من البداية؛ ضابط بيتكلم عن الجينات والرياضيات..

جرع (أدهم) من كأسه قائلًا:

- أما أنا فكنت متأكد منك.

بلل (فريد) شفتيه الجافتين بلسانه، ثم قال:

- أنا عندي أسئلة كثير.

- تحت أمرك.

جالت عينا (فريد) في حيرة محاولاً ترتيب أفكاره، ثم قرر البدء بأسئلته حسب الترتيب الزمني، فقال:

- أولاً: أنت فعلاً ضابط، وعميل مخبرات.

أوماً (أدهم) في سحابة الدخان قائلًا، وهو يغمز مرة أخرى بمكر:

- تمام. وشخص حقيقي كمان.

- إيه الدليل؟

مط شفتيه مرة أخرى مجيبًا:



- دي ما فيش قدّامي غير إني أتركها لتقديرك.

امتص (فريد) دخانه غير مبالٍ بالسحب التي تأكل عينيه اللامعتين
المستشارتين، ثم قال:

- ثانيًا: إيه السبب إنك قطعت التواصل معنا؟

هرش (أدهم) مقدمة رأسه ذات الشعر الخفيف الناعم، ثم قال
بابتسامة آسفة ساخرة:

- لأن الجهاز قرر الاستغناء عن خدماتي. أنا حاليًا ضابط أمن عادي
مسكين. نزلت من السما لأرض الغلابة.

وانداحت ابتسامة مريرة على وجهه، فبدا مشهده العام لـ(فريد)
بكأس الويسكي والتدخين الشره كالذي يشرب لينسى. بالفعل أردف:

- والحمد لله إنها جات على الاستغناء.

- أنت مؤمن بالله؟

- على الأقل (سمير عياد) مؤمن.

كاد يكمل أسئلته لولا أن لفت المجاز انتباهه، فقال نصف ساخر:

- يعني أنت زي آدم، وسقطت من السما الأرضية، سما النفوذ
والقوة..

قاطعه (أدهم) بسخرية أكبر، ولهجة أسرع:

- .. وسما المعلومات.. أنا سقطت أي نعم، إنما أنت الشيطان. أنت
ثرت على السما بأنك مش بس قتلت زي زمايلك، أنت اللي دفعتهم
للقتل، ودفعت غيرهم كمان في مشروع الدوائر النوعية. أنت عملت



مشروع كامل للقتل المخطط له، وغير المبرر، اللي هو حتى مش من باب الاغتيال السياسي، أو الاندفاع التلقائي.

تجمدت فجأة نظرة (فريد) على وجهه، كأنما لم يفكر في ذلك قطّ. وشرّد لحظات ناظرًا للجدار خلف كتفي محدثه. لقد ترك الدين منذ زمن طويل، فلم يعد يفكر بهذه المعايير، ولكنه كذلك لا ينفي الدين ولا الميتافيزيقا عمومًا، لقد (استقال) منهما بمحض إرادته. وقال لنفسه أنه حتى لو صحت قصة سقوط الشيطان، فهو ليس متكبرًا أو عنصريًا كإبليس، إنه مجرد مكتئب، هذا هو تشخيصه. ولكن هل يمكن أن يكون لإبليس كذلك ذات التشخيص؟ هل هو مكتئب وهذا كل ما هنالك؟ ثم خطر له بغتة ما هو أخطر: هل يكون مرضه العصبي، الذي عبّر عنه بالسردان، نصف البشر ونصف الحجر، على سبيل المسخ الذي حاق بالشيطان كعقاب أو كتحذير منه؟ ولكن هل يكون العقاب قبل الجريمة؟ وهل كل هذا مجرد مصادفة؟ وتحركت تحت جلده قشعريرة قاسية.

أخذ نفسًا عميقًا، وعاد يقول:

- ثالثًا: إيه حكاية (سمير عياد)؟

أطلق الرائد دخانه، وقال:

- دا هو الشخصية الوحيدة المزيفة هنا. أنا عندي اهتمام أصيل قديم بالفلسفة. ومن الصعب بسبب طبيعة عملي إنني أصرّح بآرائي، أو إنني أندمج مع المجتمع المثقف في الفضاء الإلكتروني بحسابي الحقيقي.

بدأ (فريد) يكتسب ثباتًا، وهو يرى أغلب أجزاء الصورة، حتى وإن لم يجمعها بعد بالكامل. قال:



- أوكي. أنا عندي استفسارات بخصوص (برهان المحاكاة) ..

قاطعته الرائد، وقد انبسطت أساريه فجأة، قائلاً:

- أيوااا.. جينا للكلام الشيق.

نفخ (فريد) دخانه بهدوء ليصنع سحابة بينهما، وقال ببطء ضاغظاً على حروفه:

- أنتَ عندك بصدد دا أكثر من اللي قلته على فيس - بوك.

أسند الرائد ذقنه على يده مستمعاً باهتمام، وهو يومئ إيجاباً في صمت، فاستأنف (فريد):

- .. بصدد النتيجة اللي انتهيت لها تحديداً، واللي بدت مبتورة وغامضة.

تراجع الرائد ملتقطاً شهيقاً عميقاً، ثم قال بلهجة مختلفة، وقد اتسعت عيناه باهتمام كأستاذ يشرح نظرية لطالبه:

- شوف يا (فريد). تخيل إننا شخصيات في رواية واقعية، مكتوب في أولها التنويه التقليدي «جميع الشخصيات والأحداث الواردة في هذا العمل محض خيال، ولا علاقة لها بالواقع، وأي تشابه مع الواقع هو مصادفة خالصة». في الحالة دي مش ممكن أبداً نعرف إذا كنا شخصيات روائية أم حقيقية. ربما مش ممكن أصلاً إن السؤال دا يظهر. ليه؟ لأن عقولنا نفسها تم تخطيطها بواسطة المؤلف، ومستحيل تخرج عن الورق.

ثم دفن سيجارته في المطفأة، واستكمل بلهجة حاسمة:

- .. لكن لو كنا عقول حقيقية، تم خداعها بوسيلة ما، برنامج كمبيوتر،



أو أقطاب كهربية موصّلة بأعصابنا، أو (ستوديو) ضخّم هو كل الكون دا،
أو أي وسيلة أخرى لا تخطر على بال، فالوضع مختلف بشكل جذري.

ثم أشعل سيجارة، وقدم لـ (فريد) أخرى، واستأنف:

- .. الفرق الأساسي بين العقل الحقيقي، والعقل الروائي، هو أن
الأول برنامج ذكي، ذاتي التعلّم.

ثم أشار بيده إلى أعلى قائلاً:

- مش كدا وبس.. دا كمان وارد جدّا إن سكّان (الأرض العليا)، زي
ما بسميها، اللي هم يعني سيطروا على عقولنا، وأرغمونا نعيش حلم
طويل جدّا هو كل العالم والتاريخ، ما يعرفوش كل التفاصيل عن الوعي
البشري. أنت دارس وعارف إن حتى الآن يظل الوعي لغز، ما فيش
تفسير مُرضي له.

ثم مال تجاهه باهتمام أكبر، وقال:

- في هذه الحالة، ولهذه الأسباب، ممكن - وممكن لأ - إن حد منّا،
أو بعضنا، يبدأ يفكّر بشكل غير أورثودوكسي، مخالف لما هو مُقرّر.
وربما ينجح في كشف الحقيقة.

عند هذه النقطة بلغ اهتمام (فريد) ذروته، فقال:

- إزاي؟

نظر الرائد إلى عشرات الخلايا العصبية، التي يرسمها (فريد) على
سطح المكتب دائماً، ونقل سبأته بين مراكزها، وهو يقول:

- في نقطة أو أكثر من العالم لا بدّ - لو العالم بتاعنا دا مزيف - إننا



نجد (سَيَل المعلومات)، زي ما بسمّيه، أعلى في معدّل الانتقال وأغزر. بكلمات أخرى: لو العالم بتاعنا غير حقيقي، ولو هناك عالم أعلى مختلف، وأكثر تقدماً بكثير، بيحكمه، فمن الضروري إن العالم الأعلى، الأرض العُليا، تعرف كل حاجة عن عالمنا المزيف؛ علشان تتحكم فيه. لكنها مش ها تخضع لوسائلنا البطيئة المتخلفة في نقل المعلومات، بل بالعكس: ها تستغل الفارق الكبير دا في سرعة وحجم نقل المعلومات بيننا وبينهم؛ لتحقيق فارق معلوماتي ضخم، بحيث تفضل سابقنا طول الوقت بأميال، ربما سنوات ضوئية، من المعرفة.

تراجع (فريد) في بطاء مفكراً في دهشة. وكان الرائد يستأنف بلهجة بلغت من الإثارة مداها:

- فإذا كنت مشغول بمعرفة حقيقة عالمنّا، وما إذا كان محاكاة أم لا، عليك إنك تراقب (سَيَل المعلومات) في (المناطق الساخنة معلوماتياً) في العالم. لو وجدت نقطة ذات سَيَل معلوماتي هائل، وغير منطقي، وغير خاضع لوسائلنا المعروفة، حتى أحدثها، في نقل المعلومات، اعرف هنا إن كون عالمنّا محاكاة أمر وارد بشدة.

كان (فريد) يحدّق فيه مأخوذاً، وهو يستأنف:

- .. ومش كدا ويس يا عم.. كمان لو تتبعّت سَيَل المعلومات دا في اتجاهه، بس عليك تعرف اتجاهه الرئيسي الأول، ممكن تقدر توصل للجهة الغامضة اللي بتوصل لها المعلومات. والجهة دي ممكن توصلك للمدير البشري، أو غير البشري، أو فوق البشري، أو بعد - البشري على حد تعبير (نيك بوستروم)، اللي بيدير البرنامج الضخم لعالمنا، أو يشرف عليه.



ثم نفّض رماد سيجارته، ووضع ساقاً فوق ساق، وقال:

- بالمناسبة.. تعرف إيه هي «المناطق الساخنة معلوماتياً» اللي أنا
اتكلمت عنها؟

نظر له (فريد)، وقال كالمسحور دون إرادة:

- أجهزة المخابرات.

ابتسم الرائد، وأوماً في تقدير، وصمت.

سأله (فريد):

- وأنا إزاي ممكن أتتبع سيل المعلومات زي ما بتقول؟

سعل الرائد لحظة، ثم قال:

- أنت ها تترقى في الجهاز. وعليك إنك تحافظ على تقدّمك المهني
معاهم وثقتهم بك. وفي مرحلة معينة ها تكون في موضع يسمح لك
بكشف السيل.

ثم اعتدل، وأردف:

- بس إياك تستعجل في المعرفة زي ما أنا استعجلت. ولاحظ أن
ممكن جداً ينصبوا لك فخ؛ مكسب سريع صغير يعني، ويختبروا رد
فعلك.

نظر له (فريد) في تساؤل، ثم بدا كأنه يجيب بنفسه عن السؤال، وهو
يهمس ببطء:

- أنت اكتشفت.. سيل معلومات.. فعلاً.

مسح الرائد وجهه بيده، ثم قال:



- دا صحيح.

سأله (فريد) لامع العينين:

- في الفافاك؟

أوماً الرائد إيجاباً، وهو يقول:

- آها.. الفافاك مركز من مراكز التجسس على العالم بتاعنا.

وتردد لحظة، ثم قرر المضي في مزيد من التصريح، فقال:

- وكان فيه مركز هنا في مصر. وكان فيه مركز في العراق، حالياً انتهى، وكذلك مركز سوريا. وفيه مركز في الصين حتى الآن. وأظن ممكن نلاقى واحد في الهند.

كان قلب (فريد) يخفق مع هذه الكشوفات، فقال مبهوراً:

- الحضارات القديمة.

أوماً الرائد إيجاباً مرة أخرى، وقال بلهجة من يقدم برنامجاً وثائقياً:

- بالضبط. السبب في التطور السريع للحضارات دي قديماً، وكأنها نشأت ناضجة فجأة ثم ضعفت، هو عدم السيطرة في البداية على سيل المعلومات. بعض المعلومات تسربت واستفاد منها البشر. المحاكاة - لو صحت كل الفروض دي - قديييييمة جداً. عمرها آلاف السنين، وغالباً أقدم.

أمسك (فريد) رأسه بيده، ثم التفت إليه قائلاً:

- معظمهم أعداء لأمريكا.

- فرضيتي بتقول إن الـ CIA عارفين اللي بأتكلم عنه، ربما عندهم



معلومات أشمل، وأنهم أعلنوا حرب باردة أو ساخنة على المراكز دي.
طبعاً أنت فاهم إن هدفهم من دا هو السيطرة على المعرفة لصالحهم.
- وليه (الأرض العليا) مش قادرة أو مش عاوزة القضاء على الـ
CIA؟

- مش عارف. ربما دا كله مخطط له في استراتيجية أشمل.
- والمراكز اللي انتهت في مصر والعراق وسوريا..
- برضه مش عارف إذا كانت (الأرض العليا) قررت نقلها، أو إذا
كانت الـ CIA، أو أجهزة أخرى، نجحت في تدميرها.
كان قد أنهى سيجارته الثانية. نظر إلى (فريد) بجدية مباشرة، وقال
مشيراً بسبابته، وضاعطاً على مخارج نطقه:
- أهم نقطة في كل دا هي (سيل المعلومات). هي كانت في الأول
مجرد فرضية. لكنها حالياً معلومة. لذلك إياك تصرح بها لحد أو تكتبها
أبداً؛ لأن أي بشري معاه معلومة زي دي ها يُعامل معاملة الإرهابي
الكوّني، وها يكون عرضة للقتل.
ثم تراجع في مقعده قائلاً بنبرة يقين:

- أنا بقولك كل دا علشان تكمل أنت المسيرة.. أنت بالذات مؤهل
لدا. ولو قدرت توصل لمستقبل السيل، وتكشف للناس زيف عالمهم،
وأنا شايف إن قدامك فرصة كويسة، فأنت ها تصبح رمز.. رمز للبشرية
كلها.

ظل (فريد) يحرق فيه بمزيج من الانبهار والاهتمام، ثم أخرج له
هاتفه، وضغط على شاشته، فسمع الرائد لحناً. سأله (فريد):



- تعرف إيه دا؟

نظر له الرائد لحظة في تساؤل، ثم قال:

- إيه دا؟

صفرت طلقة الرصاص مكتومة الصوت من مسدس (فريد)، حيث انتزعه وأطلقه في ثانية واحدة بيده الأخرى، ثم قال:
- دا أمر بقتلك.

فانهار جسد الرائد، وسقط بكرسيه أرضاً.

كانت لم تزل فيه الحياة، وهو يسمع (فريداً) يقول:

- أنا منحتك الفرصة إنك تقاوم، وربما إنك تقتلني، لكن أنت ما فهمتش لحن (شوبرت).

وأصابه بطلقة ثانية، ثم قال بنبرة القاضي الربية:

- ما حدش يفهم ألحان (شوبرت).





الفصل الأخير السما

١ - سَمَا المَلَاكِيّ

استمرت في الشهور التالية، وحتى دُنُو تاريخ عزل (محمد مرسى)، عمليات النادي برغم الخسارة الكبيرة، المتمثلة في اختفاء (سلمى) و(منصور)، اللذين لم يعلم أحد عنهما يقيناً، ولا حتى القيادة، هذا إذا استثنينا أحلام (فريد). وبالنسبة لـ(هيثم) فقد أزاده فَقْده لـ(سلمى) دموية، وهو يشعر مع الوقت بزيادة مطّردة في رفضه للواقع في مقابل عالم الغيب، الذي كانت تحمله إليه المخدرات، ثم صارت عاجزة عن ذلك بعد اختفاء طفله الروحية. استمرّت كذلك حياة (يمنى) و(فريد) بشقة هذا الأخير، وبالوتيرة نفسها. والجدير بالذكر أنه لم يخبر أحداً أنه تخلص من الرائد (أدهم درويش). وقد صار هو، كما توقع فعلاً، حلقة التواصل بين النادي وبين القيادة. أما (فكتور) فقد تخلص من عدد معتبر من خصومه الأدبيين من الشعراء، والنقاد، وصحافيي الأدب.

وفي الواقع يُنسب مقتل عدد كبير من الشباب في العديد من الأحزاب والتنظيمات، أو اختفاؤهم، إلى (نادي الانتحار)؛ على سبيل المثال (أ. ل) و(ط. س) و(ح. م) وغيرهم، ممن تداول الإعلام وصفحات فيس بوك صورهم، وآخر أخبارهم. بعضهم قيل أنه انتحر، وبعضهم اتُّهم في مقتله أو اختفائه هذا الطرف أو ذاك. وكان من البين بذاته أن مهمة النادي



السياسية، من وجهة نظر القيادة، قد نجحت برغم كل شيء نجاحًا أكيدًا، ربما بسبب الاستعداد المسبق لدى أعضاء الفريق.

ومع انتشار استمارات حملة (تمرد)، وتحقق نبوءة أعضاء النادي، والخاصة بتحوُّل الثورة إلى تمرد خالص، مجرد رفض لما هو قائم، وانكفائها النهائي حول مطلب عزل (مرسي)، وتنحية الإخوان كلفة من المشهد، صارت نهاية المهمة قريبة. وربما كان ذلك تمهيدًا مناسبًا لطلب (فكتور) عقد اجتماع استثنائي، ولما سيتقدم به من طلب غير متوقع، وما سيحكيه من قصة قصيرة مفاجئة.



حين جلس أربعة الرفاق بغرفة الاجتماعات، بدأ (هيثم) الحديث، وبدا حزينًا، مُحبطًا، فاقداً للكثير من طابعه الكاريزمي، كشأنه منذ اختفاء (سلمى)، وهو يقول بصوت مهترّ مبحوح:

- اليوم اجتمعنا بناءً على طلب (فكتور). أنا الحقيقة حاولت أعرف منه الأسباب، لكنه رفض التصريح بها قبل الاجتماع.

قال (فكتور)، الذي لم يعد يدخن الغليون في الشهور الأخيرة، وهو يلقي رماد سيجارته:

- أنا عرفت مؤخرًا خبر مهم، غير كثير من حساباتي للمرحلة القادمة بشكل جذري.

ثم تنهَّد في جدية، وبدا لهم أقل اندفاعًا وأكثر انهماكًا مما عهدوه فيه، وقال بلهجة واضحة:

- أنا ها أبقى أب.



نظر له كل من (هيشم) و(يمنى) بدهشة، أما (فريد) فقد نفث دخانه بقوة، وهو يتابعه باهتمام. سألت (يمنى):

- من مين؟

خفض (فكتور) رأسه قائلاً:

- (مارلين) قالت لي أنها حامل.

ضمّ (هيشم) شفّتيه كأنه يصفرّ باندعاش صامتاً، في حين عادت (يمنى) تسأل:

- دا أكيد؟

أوما برأسه يقيناً وقال:

- أيوا. مؤكّد.

سأله (فريد) بلهجة نصف شاردة:

- وقررتم إيه؟

عاد (فكتور) يتنهد بثقل، وقال:

- بصراحة فكرنا في الإجهاض، لكنها خيفة على صحتها، وأنا متفهم

دا.

قال له (فريد) ماطاً شفّتيه بلهجة موضوعية:

- ما فيش قدامك غير الزواج.

أوما (فكتور) إيجاباً، وقال:

- دا منطقي. إحنا قررنا فعلاً الارتباط.



سأله (هيشم):

- ونشاطنا؟

- أعتقد إن مهمتنا نجحت. أنتم شايفين إن كل المؤثرات السياسية بتقول كدا. الثورة انتهت. وبالتالي نشاطنا أوشك على الانتهاء.

- يعني...؟

بلل (فكتور) شففيه بلسانه، وأجاب متأنياً:

- يعني أنا ها أنسحب من النادي، ومن كل الدوائر النوعية اللي أسستها. على أي حال هي بتشتغل زي ما أنتم عارفين بشكل غير مركزي، ومش محتاجة وجودي.

تبادل رفاقه نظرة جادة قلقة، فاستدرك:

- .. لكن ها أبدأ نشاط مختلف له طابع تنظيمي كذلك.

وصمت مرتباً أفكاره، ثم نظر إليهم جميعاً قائلاً:

- أنا ها أكوّن مع (مارلين) تنظيم تربوي. في الواقع اقتبست فكرته من تنظيم الإخوان. يقوم على التربية كاستراتيجية أساسية. ها أضّم لنا الشباب من جيلنا، اللي عندهم أطفال في مقتبل العمر، وها نتبع أسلوب محدد في تربيتهم، مؤسّس على فكرة تربية النشء على مبدأ استعدادده للانتحار في أي وقت، وتقبّل فكرة الموت في أي موقف. النتيجة المرجوة هي نشأة جيل جديد، ما عندوش أي تمسك بالحياة، وبالتالي يخلو من نقاط الضعف. جيل يتمتع بإرادة العدم على حد تعبير (فريد)، القوة الخارقة الوحيدة اللي نقدر نورثها لجيل تال. ودا أعتقد إنه أكثر المشروعات الممكنة جدّاً لتحسين النسل، أو لبلوغ قمة الإنسان الأعلى على حد تعبير نيتشه.



ساد الصمت، وهم يفكرون فيما قال، ثم سأله (فريد):

-وها تكتفي بدا؟

عاد (فكتور) يخفض رأسه، وهو يقول:

-أعتقد إن داها يحقق لي حلم مهم، هو إني أشوف قصيدة لي مجسّمة في الواقع؛ في طفل بخصائص محددة، قوي قوة مطلقة، ومشروع لإنتاج جيل لا يتحوّل إلى العدمية كما تحوّلنا، بل يتربّى عليها.

هز (فريد) رأسه، وقال للجميع:

-أظنها فكرة جيدة جدّا.

بينما أو مأت (يمنى) برأسها، وهي تخفضها، في صمت أقرب إلى اللا مبالة. قال (هيشم) بعد أن أخذ شهيقاً عميقاً، مما بدا لهم وكأنه يجد صعوبة حقيقية في تقبّل انفصال (فكتور):

-أنا كمان الحقيقة شايف كدا. طبعاً دا قرارك يا مان، وأتمنى لك التوفيق فيه.

تنح (فكتور) للتغلب على رجفة التأثر في صوته، ثم قال:

-أنا مش ها أقطع التواصل. ها نفضل أصدقاء طبعاً. وها نسهر، ونسكر زي الأول، وأكثر. لكن أرجو إبلاغ القيادة بموقف انسحابي. وطبعاً ما فيش أي حد، في القيادة أو غيرها، يعرف أي حاجة عن التنظيم، أو الجماعة، اللي أنا بخطط لها.

أوماً (فريد) إيجاباً قائلاً:

-أكيد.



ثم مدّ له يده مصافحًا، وقائلًا بابتسامة:

- مبروك يا مان. داها يكون أول الثمار البشرية للنادي.

ربّت (هيشم) على كتفه مباركًا له بدوره، بينما قالت (يمنى) باسمه
(بسمّة مكسورة مع ذلك):

- ولد ولا بنت؟ عرفتم؟

- بنت.

- وها تسمّوها إيه؟

- (سَمّا)، (سَمّا المَلَكِي).

ولم تفتّهم السعادة المتسللة إلى صوته وملامحه على استحياء.
أشرقت قليلًا بسمّة (يمنى)، وهي تسأله:

- وليه (سما)؟

قال (فكتور) متوقعًا السؤال:

- على سبيل التفاؤل بسماء بديلة، أو (سمائي) أنا الخاصة.

قال (فريد) بسخرية من الصعب كشفها:

- أو السما اللي ها تقع منها باعتبارك ملاك ساقط، أو شيطان، زي ما
أنت وصفت نفسك قبل كده.

طقطقت (يمنى) بلسانها في تحذير من تعكير المناخ التفاؤلي، فقال
(فريد) معذرًا، وهو ينفض رماد سيجارته، ولا ينظر لأحد:

- آسف. لكن أنا بفكر دايماً تجاه النهايات.



ثم قال شاردًا ببطء، كأنه يؤلف عبارة:

- أنا أفكر، إذن.. لا شيء موجود.

ثم باللاتينية على سبيل التحريف لـ (ديكارت):

- «Cogito, ergo nihil est»

أوماً (فكتور) موافقاً دون حماس كبير، في حين شرد (هيثم) مفكراً في سوداوية بادية. أما (يمنى) فقد نقلت نظراتها بينهم، ثم قالت محاولة تغيير الجو:

- أظن لازم نحتفل مع (مارلين). إيه رأيكم ندعوها هنا؟

قال (هيثم) باكتئاب:

- أنا للأسف مش ها أقدر أشارك في أي احتفالات قبل رجوع (سلمى).

اندهشت (يمنى) قليلاً؛ إذ لم يصدّق بعد أنها تُوفيت، فاعتصر الحزن قلبها. وقال (فكتور) سريعاً:

- على أي حال كلكم مدعوين لحفل صغير بشقتي. وصاحبة الدعوة الحقيقية هي (مارلين).

رد (هيثم) بسخرية مريرة:

- مش قلت لك من زمان: «سيب كاترين وخذ مارلين»؟

ابتسم (فكتور)، ثم أحنى رقبته، فعاد السكون يخيم كعنكبوت ثقيلة على النفوس. قال (هيثم) بعد لحظات:

- أوكي. أتمنى إن (فريد) يبلغ القيادة بانسحاب (فكتور). وأعتقد ما فيش مشكلة، لأن لم يكن هناك إرغام لأحد من البداية.



ثم شررد مرةً أخرى إلى أفق أبعد، وقال ببطء:
- طفلة راحت، وطفلة جاءت. الإنسان مَحَطَّةُ الوجود والعدم.



٢- الأمُّ

لم تعرف (يمنى) إلى أي حدّ كانت عبارة (هيشم) الأخيرة صادقة إلا بعد أيام. ففي إحدى الليالي التالية، وبعد أن احتفلت مع (فريد) و(فكتور) و(مارلين) وبعض الصديقات والأصدقاء البارحة، وعادت بعد الفجر مع (فريد) إلى شقته لتنام حتى المساء، استيقظت على صوت رسالة، بلغتها من إحدى صديقاتها، تفيد خلع (محمد مرسي). ولم تستطع فهم مصدر الفرح الذي شعرت به. وبينما تأخذ حمامًا راحت تتساءل: هل بسبب خسارة الإخوان والإسلاميين عمومًا، أم لنجاح مهمتهم؟ ولكنها تظن أن خلع (مرسي) كان مسألة وقت. ربما عجل نشاطهم بالنتيجة فقط.

خرجت من الحمام، وارتدت ثيابها في غرفة النوم، ثم راحت تصفف شعرها القصير، وهي تدخل إلى المطبخ لإعداد طعام، لكنها لاحظت حقيبة سَفَر قائمة في الصالة الخالية.

تأملت الحقيبة لحظة، ثم رأت (فريدًا) وقد صعد على كرسي لإحضار بعض الكتب من مكتبته، وذلك لتعبئتها في حقيبة أخرى أصغر فيما يبدو. نظرت له لحظة، وهو مهموم باختيار أهم الكتب، وسألته:

- (فريد).. بتعمل إيه؟

نظر إليها، ثم هبط ببضعة كتب قائلاً:



- بأستعدّ للسفر.

تسرّب إليها التوجّس، فقالت:

- رايح فين؟ تدريب جديد؟

اقترب منها، ونظر إلى عينيها مباشرةً، وقال بلهجة آلية باردة:

- لا.. هجرة. بعد وفاة والدي، ونهاية مهمتنا، وبعد انفصال (فكتور)، واختفاء (سلمى) و(منصور)، أعتقد الوقت مناسب إنّي أصحب أمي لبلدها، بغرض الإقامة النهائية هناك، والعمل في الفافاك. ومش ها أرجع تاني.

ثم انحنى لتعبئة الكتب في الحقيبة، في حين وقفت هي ويدها على صدرها، كأنها تمنع قلبها من أي حركة مفاجئة. وبصوت مهزوم مرتعش قالت:

- مش ها ترجع تاني؟

أجابها دون أن ينظر لها:

- ما تنسيش إنها بلدي أنا كمان.

مدّت إليه يديها كأنها تتشبّث به دون أن تلمسه، وقالت:

- وها.. ها تسييني؟

قال وهو منهمك في دس الكتب:

- مسير الحي يموت.

فخفضت رأسها في حزن شديد، لم تتوقّعه إلى هذا الحد. قالت بصوت أكثر ارتجافاً:



- وأنا ها أعمل إيه؟

لم يد له سؤالها حقيقياً، فلم يجب. وحين انتهى مما يقوم به، شد قامته، ونظر لها قائلاً بلهجة رتيبة:

- دي نتيجة طبيعية يا (يمنى). ما حدش المفروض يأتي بطفل للحياة، إلا لو كان عنده الاستعداد لفقده. غير كدا يبقى عبث.

فضمت يديها إلى صدرها، كأنها تحتضن خيالاً، وارتجفت ملامحها في بكاء بلا دموع، ولم تتكلم.

خرج إلى الصالة بخطوات نشطة، وجرّ الحقيبتين، وهو يقول:

- الشقة دي تملك. ولما أسافر ألمانيا؛ لأنني ها أسافر الأول لبرلين ومنها ل طهران، ها أعملك توكيل. يعني تقدري تبيعها أو تتصرفي فيها زي ما أنتِ عاوزة. وكذلك كل ما فيها. هي ما فيهاش حاجات مهمة باستثناء الكتب.

اقتربت منه، وسالت منها دمعتان، وهي تقول بألم:

- كل دا ولا حاجة.

قال بحدة صارمة مفاجئة، فدوى صوته في الفراغ:

- ما فيش أي حاجة.

فانحنت هي لتسند رأسها على الجدار المجاور، وبدأ صوت بكائها يعلو، وهي تفكر بلوعة: مَنْ الأم؟ أهى التي جاءت به إلى الحياة أم التي عادت به إليها؟

فتح باب الشقة، وألقى عليها نظرة أخيرة، وهي واقفة على بعد أمتار، تحتضن يديها، وترتجف، وقال بلا انفعال:



- سلام.

وخرج، وأغلق الباب.



٣- آخر عمليات النادي

هكذا رحل (فريد) فجأة بلا عودة. وقد بلغ (يمنى) أن كلاً من (هيثم) و(فكتور) قد تلقى مكالمة من (فريد) بهذا المضمون، (يمنى) التي لم تحتفل البقاء بشقة (فريد) للحظة أخرى، فغادرتها، كما لم تحتفل البقاء وحيدة بدارها، فقصدت شقة (هيثم). قضت لديه عدة أيام، وظلت في حالة اكتئاب شديد؛ لا تأكل إلا بإلحاح (هيثم)، ولا تخرج، ولا تفعل شيئاً تقريباً سوى التدخين، حتى صارت تسعل بقوة وبعمق كل صباح. أما (فكتور) فقد صرفه انشغاله مع (مارلين) ذات الحمل غير المستقر عن زيارتهما.

وفي صالونه كان (هيثم) ذات صباح يجرع القهوة على معدة خاوية، ويشاهد آخر الأخبار على التلفاز، بينما اضطجعت (يمنى) على أريكة بين النوم واليقظة، وهي تسعل بين الحين والآخر بصدر مُنهار. أشعل (هيثم) سيجارة، وقال شاردًا:

- إحنا فعلاً كنّا أقدر على التوقع بما لا يقارن. ولو بقية توقعات (فريد) طلعت صحيحة يبقى ها نشوف عصر إرهاب غير مسبوق في مصر.

فأحست (يمنى) أن لفظة «(فريد)» تنغرس كالسيف في أحشائها، فلم تحتفل الرقاد، كأن الاكتئاب وحش، سوف يغتالها إذا باغتها



مستلقيةً. نهضت لتجلس، ووضعت رأسها بين كفيها، وقالت شاردة هي الأخرى:

- تفتكرها أقدر أنساه؟

التفت إليها، ثم كتم صوت التلفاز، وقال بقدر من الحيرة:

- أنتِ كنتِ بتحبييه؟

لم تعرف كيف تجيب، لكنها هزت رأسها قائلة بصوتها، الذي صار غائماً دوماً بعد رحيل (فريد):

- لأ.

- آمال تقصدي إيه؟

ظلت تتأمل الأرضية بحزن، ثم قالت:

- زي عواطفك كدا تجاه (سلمى).

حدّق فيها للحظة مندهشاً، ثم قال:

- غريبة! (فريد) آخر شخصية ممكن تُوجي بالطفولة.

التقطت نفساً عميقاً مرتعشاً، ثم قالت:

- الطفولة بتتخسب بالمسافة لها، بالعمق اللي ضاعت فيه، أو بالزمن اللي مرّ بعد ما فقدناها.

ثم أجهشت بالبكاء، وهي تقول:

- أنا كان عندي أمل لآخر لحظة إني أستعيده.

نطقت الكلمة الأخيرة وهي تقبض يديها على الهواء ببطء، كأنها



تحتوي شيئًا خفيًا، ثم استقرت قبضتها المضمومتان أمام صدرها، كأنها تتضرّع في صمت بالك. اقترب منها (هيثم)، وضَمَّها إليه في رفق، وهو يقول:

- أنا فاهمك. حاسس بيك.

ثم جلس جوارها، ونظر إليها قائلاً:

- أنتِ عارفة..؟ حلم (فريد) بأحداث الاتحادية و(محمد مرسى) تحديداً اللي تحقق، لما فكرت فيه أصابني بخاطر مفزع جداً؛ إن حلمه بوفاة (سلمى) يكون صحّ. تخيلي.. (سلمى) تموت؟ عريانة؟

لم تنظر إليه عليمَةً أن ذلك فعلاً شبه مؤكّد، وظلت صامتة. بدا لها كأنما يتذكّر شاردًا أحداثًا بعيدة. بالفعل قال:

- فاكرة كل دا بدأ إزاي؟ أول مرة عرّفتك على (سلمى) قلتِ عنها «السماء في صورة بنت».

شردت بدورها، وراحت تتذكر قائلة:

- وأول مرة عرّفتني فيها على (فريد) قلت لي عنه «مستر (فريز) Freeze».

- وقلت لك إنه «وحده على القمة المتجمّدة».

- فاكِر أول اجتماعات العلاج الجماعي؟

- فاكِرَة أول اجتماعات الانتحار الجماعي؟

- وأول اجتماعات الاغتيال، لما (فريد) كان يبقنّني بالمشروع. كنت بأكره طريقتَه ووجوده، بس حاسّة ناحيته بميل غريب.



- (سلمى) كانت بالنسبة لي فعلاً سَمًا، ما عرفتُش إنها سَمًا غير لما سقطت أنا منها، أو لَمَّا هي هَوَّت على الأرض.

وساد الصمت، وكل منهما يسترجع ذكرياته، قالت (يمنى):

- ندمان؟

- على إيه؟

- على كل اللي قتلناهم، وعلى النتيجة النهائية اللي إحنا فيها دالوقت.

- لا، لو رجع بينا الزمن ها أعمل زي ما عملت، لكن مش ها أشرك (سلمى) في أي نشاط انتحاري أو اغتيالي.

- أنا ندمانة إني قَرَبْتُ من (فريد). (فريد) عنده طاقة سلبية قاتلة. بس أعتقد إن دا تحديداً اللي جذبني فيه علشان أحاول أغَيِّره. عمري ما فكرت أغَيِّر حد غيره. كان نفسي ولو عصب واحد فيه يرجع للحياة.. عصب واحد بس.

- ما حدش بيرجع. الدنيا طريق ذو اتجاه واحد.

وفي تلك اللحظة أشرق الشمس على المكان من خلف غيمة، فاخرقت أشعتها الحارة في تلك الأيام من شهر يوليو الصالون، وأحسَّ (هيثم) أنها تحرقه، حتى أوشك أن يشم رائحة الشواء. تذكر أنه جائع، وأن معدته تكاد تلتهم بقية أحشائه، لكنه لم يفكر مع ذلك في الطعام. سأَلته (يمنى):

- ها نعمل إيه دالوقت؟

- في إيه؟



- في النادي، ومع القيادة، في كل مشروعاتنا.

- أنا شايف إننا عملنا أكثر من اللي بنحلم به. أما النادي نفسه فخلاص انتهى. ما فيش غيرنا. (سلمى) راحت، و(منصور) اختفى، وشاعر النادي انسحب، وفيلسوف الفريق هاجر. إحنا نفسنا اتنين محطّمين.

- ولو القيادة بعثت لنا رسالة؟

- نقول لهم خلاص، بَحّ. أنا شخصيًا فشلت إني أجد العزاء في أي شيء، حتى في القتل. كل عملياتنا بعد اختفاء (سلمى)، أو مقتلها، مجرد لحظات قصيرة من التخدير. بالعكس.. القتل، وأي نشاط للنادي، أصبح ينفكرني بها. كل اللاهوت مات.. كل اللاهوت.

التقطت (يمنى) شهيقًا عميقًا مرتجفًا، أعمق ما استطاعت، ثم نظرت إلى (هيثم) بعينين، بدا له كأنهما تريان القَدَر، فبادلها النظر. ألقى نظرة مرتعدة على ضوء الشمس على الأرضية، على أثاث الصالون، على المائدة الكبيرة بالذات في مركزه، حيث تعودت (سلمى) الرقص، ثم عاد إلى عيني (يمنى)، فوجدهما تلمعان بفهم ما.

التقط شهيقًا عميقًا بدوره، وعينه لا تفارقان عينيها. أما هي فقد ظلت تحديق في عينيه لثوانٍ، ثم أومأت إيماءة خافتة موافقة. ظل ينظر إليها كأنما يتأكد من إجابة ما، بينما بقيت نظرتها كما هي.

كانت هذه آخر شفرات القتل، التي أرسلها أي منهما. وقد استقبلها بنجاح.

المصادفة البحتة فقط هي التي قد تفسر كيف أن دِماهما الممتزجة قد سالت حتى بلغت منصدة التلفاز، والذي كان يعرض لمَشاهد مختلفة



دامية لبعض ضحايا الصدمات مع الإخوان قبيل فض اعتصام (رابعة)، حتى تبدوا للنظر غير المدقق أنها تسيل من التلفاز نفسه، والذي ظل يذيع مشاهد الضحايا في صمت، فصار القتلى على جانبي الشاشة ممثلين ومشاهدين في آنٍ، دون فرق.

ووسط الدماء كان يلمع شيء ما في ضوء الشمس الساطع، كان الجبروت، الجبروت الذي هو من دون صوت.



٤ - الأخضر والأسود

عرف (فكتور) خبر وفاة (يمنى) و(هيثم) من الصحافة دون تفاصيل، وإن كان هو يرجح أنهما قد انتحرا؛ حيث يعرف إلى أي حد ساءت حالة (يمنى) بعد رحيل (فريد) المفاجئ، أما (هيثم) فقد كانت معنوياته في انخفاض دائم منذ اختفاء (سلمى). وظل لشهور يؤنب نفسه على تركه إياهما في هذه الحالة، رغم حقيقة انشغاله بصحة زوجته، وجنينهما. لم يستطع منع نفسه من الشعور بالدهشة العميقة إزاء التطورات الأخيرة؛ فلم يتوقع يوماً أن تنتهي الصداقة العظيمة بالألم العظيم. وهو يعتقد أن (منصوراً) هو المسئول عن اختفاء (سلمى) أو مقتلها، (سلمى) التي - فيما يظن - لم تحبّ أحداً حقاً سوى (منصور). كما يعتقد أن من أسباب هجرة (فريد) هو ما أحدثته (يمنى) في شخصيته من شرخ غير مسبوق. وهذا كله أدّى مع الوقت إلى انهيار آخر عضوين بالنادي: (يمنى) و(هيثم).

لكنه بدأ ينجح في تناسي الأحداث المؤسفة، حين جاءت (سما) إلى



الأرض. وكما أخبر رفاقه منذ شهور، فقد شرع، حتى قبل ميلاد ابنته، في تأسيس تلك الجماعة التربوية، والتي انضم لها في البداية زملاء من الوسط الثقافي القاهري بشكل أساسي. وعن طريق استثماره لخبراته التنظيمية السابقة، وما تدرب عليه أثناء نشاط النادي على مستوى احترافي، فقد استطاع ضم عدد آخر من الأعضاء من خارج الوسط الثقافي، وهو يفهم جيداً أن الرصيد الحقيقي لهذه الجماعة، التي تهدف إلى تنشئة جيل من العدميين - الانتحاريين، هو المخزون الهائل من العدمية، الذي بدأ يتراكم بسرعة لا تُصدّق لدى الشباب من مختلف التيارات، عقب ظهور المعالم الأولى لنظام ما بعد نهاية الثورة. وبدا له أن المشروع سينجح.

لكنه - فيما يبدو - قد بالغ في حماسه، فقرر افتتاح مقر ثابت للجماعة، بل ونشر الفكرة في عدة محافظات بمصر، ربما كتمهيد لانتشار أكبر، الأمر الذي نبّه السلطات إليه، في ظل التشديد الأمني التدريجي، مما أوصله في النهاية إلى السجن، مع مصادرة المقر ومحتوياته. ولحسن الحظ لم يطُل زوجته أذى. وفي الواقع لم يطُلّه هو الكثير من الأذى؛ بسبب اعتياده بدرجة ما على مناخ الحجز والمعتقل، ولأن نشاط جماعته لم يكن مفهوماً من جهة السلطات، ولم يرتبط بالسياسة بشكل واضح. وقد قدّر هو إلى أي حد ساعد الانفلات الأمني النسبي بعد الثورة، وحتى انتهائها، في إنجاح عملياتهم السابقة. يمكن القول إن إلقاء القبض عليه كان مفاجأة، لأم نفسه كثيراً على كونه لم يحسن توقعها.

لكنها لم تكن المفاجأة الأخيرة. في حقيقة الأمر كان (فكتور) على موعد مع مفاجأة أخرى مثيرة، ساهمت في حل بعض الألغاز، التي كان



يودّ بشدة أن يفهمها قبل أن يتتحرّج في المعتقل، إذا ساءت الأمور عن الحد، كما قرر.



أثناء وجوده في الحجز، وقبل ترحيله إلى السجن، كان (فكتور) يمارس تسليته الوحيدة الممكنة في وجود ضوء الصباح، ألا وهي استراق النظر والسمع من (النضارة)، كما يسمونها هناك. وفي أحد الأيام لمح شبّحاً أسود فارغاً، يُقتاد مكلبشاً إلى مكان ما. لم يره بوضوح، لكنه أخذ انطباعاً عاماً عنه، وبدأ الشكّ يأكل قلبه، حتى نسي بعضاً من معاناته، والتمثلة أساساً في بعده عن ابنته. ظل يفكر طيلة النهار. وحين كان يقوم مع زميل وحيد له بالحجز بإعداد الشاي في قارورة بلاستيكية، يتم تسخين الماء بها بواسطة إشعال قماش مشبّع بزيت التونة المعلّبة، أو ما يسمونها هناك (طريقة التوتو)، سمع تأوهاتٍ وسباباً في الخارج، فانسكبت منه القارورة، حتى صاح به رفيق الحجز، الذي كان شيئاً إسلامياً بالمناسبة:

- الله يخيبك!

نظر له (فكتور) بعين زائغة، وهو يرهف السمع للخارج، ثم نهض في خفة، وبدأ يتلصص، فرأى الشبّح الأسود يسير عائداً بصحبة عسكري إلى غرفة حجزه.

عاد إلى جانب الشيخ، وسأله:

- تعرف مين في الحجز جنبنا؟

- أيوا، الشيخ (ناصر). تعرفه؟



- لا.

كان (فكتور) يعلم أن بالحجز أحياناً (عصافير). في هذه الحالة قد يربطون بينهما. وهو لا يعرف ما تورّط فيه هذا الشيخ (ناصر). لكنهم بالحجز قد غابت معلومة مهمة عنهم: أنه مدّرب، ومدّرب خصوصاً على الحركة داخل هذه التشديدات الأمنية. لذلك نهض مرة أخرى، ومن وراء (النضارة) هتف:

- افرجها علينا يا كريم.

فبدا بلحيته النامية كشيخ إسلامي هو الآخر. أرهف السمع، فتلقّى الإجابة من أغوار الغرفة المجاورة:

- كريم يا رب، وفرجك جاي.

هكذا عرف هوية الشبح الأسود. عاد يلتفت إلى داخل زنزانته، فالتقى بعينين ماكرتين لهذا الشيخ زميل الحجز، الذي لم يخالف صوته نظرتة، وهو يقول:

- ها يترحل معانا لـ (طرة) بعد يومين.

جلس (فكتور) أرضاً، وتنهّد قائلاً:

- ربنا يفرجها على الجميع.

- أنت اسمك إيه يا شيخ؟

- (فكري).. (فكري عبد الملك).

- ما شوفتكش بتصلّي.

نظر (فكتور) إلى السقف المنخفض، وهمس بهمّ:



- أصليّ إزاي والسما مقفولة؟

وتذكّر تلقائيًا حديث (فريد) عن السماء المغلقة، التي تستحثّ نوبات التزييف لديه. ترى.. أين (فريد) الآن؟ هل لم يزل يعمل مع (الفافاك)؟ هل يذكره؟ هل سيراه يومًا؟ والغريب أنه راح يتساءل باهتمام أكبر عن كيفية حصوله على الخمر واللاهوت في بلد كإيران، يصل فيه تحريمهما إلى ذلك الحد!



وبعد يومين بالفعل تم اقتياده مع عدد من المحجوزين إلى عربة الترحيلات. وقف بالداخل في زحام شديد، وحاول اختراق الجمع ببصره. وحين لمح جزءًا من جسد الشبح الأسود هتف:

- هوّتها علينا يا كريم.

- كريم، وفرجه جاي.

حسنًا، الخطوة التالية هي:

- له حكمة في كل شيء.

- الحكمة ضالة المؤمن.

فانبسطت أسارير (فكتور) الباطنة، وقال:

- «ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا».

- «وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب».

فقال (فكتور) في سرّه مسرورًا: اللعين! تربية (فريد) ليس غيره. واتّجه إلى ركن محدد في العربة بدعوى استنشاق الهواء.



طفق ينتظر، وهو يعلم أن شيئاً ما سيحدث.

وكانت هذه هي عربة الترحيلات، التي انفجرت، وفّر بعض من فيها، خصوصاً من كانوا على ذلك الجانب الذي استقرّ فيه (فكتور). صحيح أن جسمه قد امتلأ برضوض متنوعة، لكنه نجا، ونجا معه ذلك الشبح، الذي نعرف أنه (منصور).



كانا قد تدرّبا على خطة تواصل، وبعض تكتيكات الهرب، التي يُملّي الموقفُ طريقة تطبيقها. هذا إلى جانب أن (منصوراً) لم يكن يلهو طيلة هذه الفترة، أو يكتئب، أو ينشغل مثله بمشروعات سلمية كمشروع الجماعة التربوية. والنتيجة أنهما قد فرّا. ولأول مرة منذ شهور يجتمع عضوان سابقان بنادي الانتحار، ولأول مرة يرى فيها أحدهما الآخر منذ اختفاء (سلمي).

وبعد فرارهما افترقا، كما هو مخطّط، ولم يلتقيا مرة أخرى إلا بعد أسابيع في شقة حقيرة بحيّ شعبي مزدحم. دخل (فكتور) الشقة، ليلتقي (منصوراً)، الذي فاجأه شكله بدون لحية (ماركس)/ (برامز) إياها. لكن ما استغرب له (فكتور) حقاً أن أوّل ما قاله رفيقه - بلهجة ساخرة - هو:

- الواد (ممدوح) بتاع مظاهر الجَمال.. مات في فض رابعة.

فردّ عليه:

- خسارة.. كنت بأكرهه جدّاً.

فأوماً (منصور) صامتاً، وهو ينظر له ببرود، ثم تحرّك ليُعدّ بعض الشاي، وقال:



- اتغيرت كثير يا (فيكو). ولا بلاش (فيكو).

- ما بقتش فارقة.

ثم تأمله (فكتور)، وقال:

- أنتَ كمان اتغيرت كثير. فين لما دخلت علينا أوّل مرة!

- كنت لسه أخضر.

- وحاليّ؟

- أنت شايفني.. أسود.. هاها.

وجاء بكوبّي الشاي، فقال (فكتور):

- مِنيلّ بنيلة. عندك سجائر؟

أزاح (منصور) صفحة جريدة وأخرج علبة سجائر، وألقاها أمام (فكتور)، الذي أشعل سيجارة، والتقط الدخان بنهم، وأعاد تأمل صديقه، الذي راح يشعل سيجارة لنفسه بغير انفعال، فقال له:

- لو (فريد) شافك دالوقت.. لو عرف اللي حصل.. أعتقد مش ها يصدّق درجة نجاحه.

تفكّر (منصور) ببرود، مما جعله شبيهًا فعلاً بـ(فريد)، ثم قال:

- أنا أقوى من (فريد) في الواقع. أقصد على مستوى الصحة العامة. هو معلول الجسد، ومريض نفسي إلى حد ما. لكن أنا قدرت أعمل كثير، أعتقد إنه كان يتمنى يعمل به بنفسه.

التقط (فكتور) شهيقة دخاناً طويلاً، ونظر إلى صديقه مباشرة، وقال:



- زي إيه؟

فصرب (منصور) المائدة ضربة خفيفة، كأنها إعلان عن نفاذ الصبر، وهو ينهض، ويتلصص على الشارع من خصائص النافذة قائلاً بنبرة جافة: - أنا عارف أنت عاوز إيه. والإجابة أيوا. (سلمى) كانت آخر عمليات (فريد) المعروفة.

استعزّ باطن (فكتور) فجأة كقلب مفاعل نووي، لكن إدراج عنصر (فريد) في الموضوع امتصّ جزءاً من التفاعل كقضبان الجرافيت، فسأل كايحاً انفعاله:

- ليه؟

التفت له (منصور) ببطء، وقال بلهجة (فريديّة) رتيبة:

- (سلمى) مش بريئة زي ما أنت متصور، وزى ما ربما كلنا، ما عدا (فريد)، كنّا متصورين.

بدأ (فكتور) يسترجع الذكريات المؤلمة، وتدهور (هيثم) بعد اختفاء/ وفاة (سلمى). خفض رأسه، وهو يعتصر جبهته بيده، ثم قال: - إزاي؟ أنا عاوز أفهم.

رمى (منصور) رماد سيجارته على الأرضية، وقال بلا مبالاة: - ما لوش فايده دالوقت.

صاح (فكتور) بثورة مفاجئة:

- لأ، لهُ. من فضلك أنا يهمني جداً أفهم. أنت مش عارف إيه اللي حصل لـ (هيثم) بعدها.



- لاء، عارف. كل أخباركم وصلتنني.

ثم عاد يجلس قبالة (فكتور)، وقال مُقلِّصاً أصابعه كعكبوت:

- فاكر لَمَّا (فريد) في جلسة تحشيش قال إنه بيحسّ أحياناً بوَحْش عاوز يتحرر في أعماقه؟ عارف (سلمى) تبقى إيه؟ (سلمى) هي الوَحْش، اللي كان داخل (فريد).

- يعني إيه؟

نظر له (منصور) لحظة عاقداً حاجبيه في صرامة، ثم قال بوضوح:

- يعني (سلمى) طلبت منّي صراحةً إني أقتل (فريد).

حدّق فيه (فكتور) بذهول، وهو يتساءل عن مدى صدقه، فرآه ينفث دخانه، ويتابع باشمئزاز:

- وأنا لم يكن عندي أي سبب يجعلني أقتل أستاذي.

صاح (فكتور):

- (فريد) كان يلعب بيك.

صاح (منصور) فجأة بدوره:

- و (سلمى) كانت بتلعب هي كمان بيّا. واحد فيهم كان لازم يتخلّص من الثاني عن طريقي.

ثم اقترب من (فكتور) قائلاً بلهجة درامية:

- العلاقة بين الاثنين، لما وصلت من البداية لنقطة القتل الحتمية، كانت أصلاً من أسباب تأسيس نادي الاغتيال.

بدأ (فكتور) يلهث في انفعال مرتجف صامت، وعينين متسعيتين، وعرق يبلل حاجبيه، ثم تراجع، كأنه يرى كابوساً. ولم يستطع الرد.



ولبعض الدقيقة، أو أكثر، ظل يفكر في انفعال، ناقلاً عينيه بين الأرضية، وبين عيني محدثه، الجالس كتمثال مصري عملاق، كأنه يسترجع فيلماً كاملاً. وأخيراً تنحنح مختنقاً، وقال:

- (سلمى) كانت بتحبك.

- (سلمى) ما تعرفش الحب. (سلمى) كانت أكثرنا قسوة. والدليل إن (فريد) عمل كل دا للوقاية بس من شرها. لو ما كانتش طلبت القتل، ما كانتش اتقتلت.

ثم مال على (فكتور) بغتة، وأمسكه من كتفيه هاتفاً:

- بُص على الحقيقة. أنا كنت بحبها. حببتها أول ما شوفتها، لدرجة إنني قتلت أبويا لما فشلت أول مرة في الكلام معاها.

ظل كل منهما ينظر إلى الآخر في غضب لاهثاً، ثم نهض (فكتور) ملقياً سيجارته أرضاً، وقال:

- أنا ماشي.

- رايح فين؟

- لازم أشوف بنتي.

- أنت اتجننت؟ بيتك أخطر مكان دالوقت.

فتراجع مفكراً في هياج. قال (منصور) بلهجة أهدأ:

- (فكتور).. اهدا الأول وبعدين خد قرار. فيه خطة ممكنة لدا. بس ها تاخذ شوية وقت.

- أي خطة؟

- خطة نطلع بها كلنا، أنا وأنت وأسرتك، من مصر بالطريق البري.



وبعدين على تركيا، أنا لي أعوان ها يساعدوني.

عاد (فكتور) يجلس بغضب مختلط بالأسف وشعور القهر، فقال (منصور) بلهجة أكثر دفئاً:

- إحنا لسه أصدقاء يا (فكتور). ومش أي أصدقاء. إحنا الواحد فينا كان بيحمي ظهر الثاني. واللي حصل بيني وبين (سلمى) كان ممكن جدًا يحصل بين (سلمى) و(فريد). أنا مجرد دويلير. أنا كنت مجرد نظام حماية لـ(فريد).

أوماً (فكتور) برأسه، وهو يزفر في مزيج من الضيق الشديد والاشمئزاز من الموقف ككل. أشعل سيجارة ثانية، وقال:

- أعتقد أنت بتؤدّي أدوارك الخاصة حالياً باحتراف.

ابتسم (منصور) قائلاً:

- أنا تلميذكم، (فريد) أساساً، وبقيتكم بشكل أو بآخر، بما فيكم (سلمى).

ثم اختفت ابتسامته، وهو يقول بجدية:

- إحنا لازم نتجاوز كل دا يا (فكتور). عندي مشروع كبير جاي. لازم نتعاون فيه.

- أي مشروع؟

- فاكّر (الثورة الرأسيّة)؟ فاكّر كلامنا عن شعر (أمل دنقل) ورؤيتنا له ككائن رأسي - عديمي؟

- آها.



- أنا قررت إن المجد يكون للشيطان فعلاً. وها أكوّن جماعة بهذا التوجّه بعد سفرنا. وها تكون الحافظ لتراث (نادي الانتحار)، اللي أنا شايفه مهمّ، وإضافة حقيقية للعالم، ولازم يبقى.

- عبادة شيطان يعني؟

- سمّيتها عبادة، أنا ها أسميها ثورة.

- في تركيا؟

- بعد تركيا ها نساfer ألمانيا.

- وليه ألمانيا بالذات؟

- (شاردًا) بشوفها الأرض المناسبة لعبادة الشيطان زي ما بتسمّيها. لاحظ إن الشيطانية Satanism في ألمانيا غير مجرّمة قانوناً^(١).

ثم أعاد النظر لـ (فكتور) قائلاً بوضوح:

- أنا محتاجك معايا هناك يا (فكتور). محتاجك تبقى شاعر الجماعة الجديدة. بالأحرى شعرك ها يبقى كتابها المقدّس.

برّقت العبارة الأخيرة كالشرارة الخاطفة في سمع (فكتور)، فراح يفكّر باهتمام، و(منصور) يردف بما يحفظ:

- «كان العدم قدرتي الخارقة الوحيدة، التي اكتسبْتُها حين فَقَدْتُ كلّ شيء»، «واحد من جنودك يا سيّدي.. سوف يكفي الشياطين فينا الكفاحا».

نفث (فكتور) دخانه متأملاً، ثم قال:

(١) هذا حقيقي، لكن هناك انتقادات ضدها أحياناً بسبب الجرائم الطقسية.



- لكن دا مش ها يتفهم في ألمانيا، وما لو ش نفس الوقع حتى لو
تُرجم.

- إحنا مش ها نشتغل على الألمان. جمهورنا المستهدف هو عرب
شمال إفريقيا هناك.

- ليه؟

- أغلب العرب هناك، بالذات من المغرب العربي، أوضاعهم سيئة،
وكثير منهم بينضم للمافيات المتنوعة، أو الجماعات الإسلامية. إحنا
هناخد حصتنا من العدم الإقليمي.

ثم ابتسم بمكر قائلاً:

- وأعتقد دا تطوير مهم لنشاط النادي.

ثم ربّت على كتف (فكتور)، وقال:

- المستقبل واعد يا صديقي. مش عاوزك تقلق. فكر كويس.. وفي
جميع الحالات لازم أهرّبك من مصر مع أسرتك.

وخفض رأسه مستأنفاً:

- .. وأسرتي.

قال (فكتور) بدهشة:

- أسرتك؟

أوماً (منصور) قائلاً:

- أي نعم. أنا تزوّجت أخيراً، ومعايا حالياً (سما).

فازدادت دهشة (فكتور)، وهو يقول:



- (سما)؟

- أيوا. إيه الغريب؟

- بنتي كمان اسمها (سما).

حدق فيه (منصور) بحيرة، وقال:

- غريبة!

- هي صدفة غريبة فعلاً.

ثم تأمل في الأمر ملياً، وقال لـ(منصور):

- لكن تعرف.. قد لا تكون صدفة على الإطلاق. واضح إن هناك

نظام عام ييحكم كل دا. وربما بسبب اتساع مساحة النظام، أو ضآلة حجمنا، فإحنا مش بنقدر عادة نتيّنه.

وافقه (منصور) بإيماءة، وقال مشيراً لأعلى:

- ربما أنا بتمنى سما مختلفة عن دي.

أوماً (فكتور) بدوره، وصمت مفكراً، ثم غلبه التعب، فقال:

- أنا مرهق. محتاج أنام، وبُكرًا نتكلم.

- وهو كذلك.



٥ - عزيزي فرؤيد

قضى (فكتور) عدة أيام لدى (منصور)، يتناقشان في خطة الهرب



من مصر، ومشروعهما الجديد، وتجاوزا خلافتهما بشأن الأحداث المؤسفة، التي وقعت لأعضاء النادي. ربما تبلور هذا المشروع في لا شعور كل منهما كنوع من العزاء، أو الإخلاص لأفكار الأصدقاء. كانا يستيقظان في الصباح الباكر، ولا يكفان عن النقاش، والتخطيط، واجترار الذكريات، حتى انتصاف الليل.

و ذات صباح، وبينما يتصفح (فكتور) منشورات أصدقائه على فيس - بوك، وذلك من محرّك بحث غير قابل للتبّع، كالذي كان (هيثم) يستعمله لشراء (اللاهوت) من (الشبكة العميقة)، بالإضافة إلى إجراءات إضافية للتمويه الرقمي، وصلته رسالة على حساب له، لم يكن يستعمله إلا في ظروف خاصة، ولا يعرف به إلا أعضاء النادي، حيث كان لكل منهم حساب للطوارئ، لا يستعمل إلا للضرورة القصوى.

كانت الرسالة، التي وصلته من حساب مجهول، عبارة عن مقطوعة موسيقية.

وبخبرته في الموسيقى الكلاسيكية أعاد الاستماع إليها عدة مرات، وقلبه يختلج، متأكداً أنه يسمع أسلوب (شوبرت) تحديداً؛ الجُمَل اللحنية ذات التبلور الأكبر من ألحان (بيتهوفن)، والتي تبدو لأول وهلة كألحان غنائية بسيطة، كي نتيّن فيما بعد أنها تُبطن أكثر مما تفصح.

جرب معها مفتاح الشفرة، فقرأ التالي:

- «عزيزي (ملاك) / مرّ زمن طويل منذ آخر حديث بيننا. ستصلك بعد أيام تحديثات للشفرة، لن يعرفها أحد سوانا. ابقَ على اتصال. (فرويد)» غمرته فرحة كادت تبكيه. (ملاك) و (فرويد) هما الاسمان الحركيان لـ (فكتور) و (فريد)، إذ كان لكل من أعضاء النادي اسم حركي، لا يعلمه



غير الأعضاء. لم يردّ (فكتور)؛ تحسباً لاعتراض طرف ثالث للاتصال برغم إجراءات التأمين، وانتظر التحديثات، ثم تابعت الرسائل على مرّ أسابيع:

- «عزيزي (ملاك)/ هذه هي الشفرة المعدّلة. أرجو الكفّ تماماً عن استعمال القديمة. بانتظار ردك»

- «عزيزي (فرويد)/ سعدت أيّما سعادة بتلقي رسالتك. مضى زمن طويل فعلاً. (شاهين) و(يسرا) رحلا غريباً [كناية عن وفاة (هيثم) و(يمنى)]. التقيت بـ(يُونج) مؤخّراً [الاسم الحركي لـ(منصور)]. كن بخير، ولا تقطع الرسائل. (ملاك)»

- «عزيزي (ملاك)/ جميل أن أسمع منك. هذا يُعيد لي ذكريات عزيزة. حزنْتُ كثيراً لرحيل (شاهين) و(يسرا). أبلغ (يُونج) سلامي وسعادتي بعثورك عليه»

- «عزيزي (فرويد)/ (يُونج) يُقرئك السلام، ويودّ إخبارك أننا بصدد التخطيط لنادٍ جديد في بلاد بعيدة. فكرة النادي هي الثورة الرأسيّة المجرّدة»

- «عزيزي (ملاك)/ هذا يسعدني بالتأكيد. أخبر (يُونج) بتقديري ودّعمي الروحي»

- «عزيزي (فرويد)/ كيف حالك؟ وهل لاقيت نجاحاً في عملك الجديد؟»

- «عزيزي (ملاك)/ عملي في تقدّم. حالتي النفسية تسوء. أفتقد الجميع، الباقيين والراحلين»

- «عزيزي (فرويد)/ أقلقني كلامك عن حالتك النفسية. هل من جديد؟»



- «عزيزي (ملاك)/ لا جديد من الناحية النوعية. نوبات (التزييف) مستمرة، ويزيد معدل حصولها مع الوقت. أعتقد أن لتغيير المكان دورًا كبيرًا في ذلك»

- «عزيزي (فرويد)/ حاول طلب مساعدة طبية، ولا تتكبر على الآخرين لمجرد أنهم آخرون. لاحظت ببطءًا في ردودك الأخيرة. لا تتأخر في الرد، وكن دائمًا على اتصال بي، وبمن حولك. قم بتكوين صداقات جديدة»

- «عزيزي (ملاك)/ أعذر عن التأخر في الرد. أنا شديد الاكتئاب، وأظن أن علاقتي بـ(يسرا) كان لها أبلغ الأثر السيئ عليّ. مناعتي العقلية، التي كانت تعصمني من الانهيار، قد تصدّعت بلا رجعة فيما يبدو. هل رحلت بسبب رحيلي؟»

- «عزيزي (فرويد)/ لا أدري سبب رحيلها أو رحيل (شاهين) بدقّة. لا تؤنّب نفسك بسبب ذلك. لا أعتقد أنها كانت سترضى بهذا. لماذا لا تفكر في العودة إلى مصر؟ يمكنك العمل مع (نوح) [كناية عن (أدهم درويش)]؛ فهذا قد يحسّن من حالتك النفسية»

- «عزيزي (ملاك)/ (نوح) غرق، وأنا من أغرقه بأمر (السماء)!»

- «عزيزي (فرويد)/ (!!!) لم نخبرنا بذلك. أنا مصدوم. لماذا؟»

- «عزيزي (ملاك)/ أعتقد أنه عرف أكثر من المسموح به. أنا كذلك أعرف، وأعرف أكثر، وأخطر»

- «عزيزي (فرويد)/ لا أفهم. ماذا عرفت؟ لا تتورط في أمر خطير يا صديقي»



- «عزيزي (ملاك)/ هل تتذكّر كلامي عن أن العالم غير حقيقي؟ هذا ليس من مقدمات الفصام كما اعتقدت في البداية. وأنا لست مريضاً. نظريتي تقول إن بعض البشر يشعرون بالحقيقة، حتى لو لم يعرفوها»
- «عزيزي (فرويد)/ كلامك ما برح يحيرني. على كل فالشعور ليس دليلاً على الحقيقة أو الزيف»

- «عزيزي (ملاك)/ لا أتحدّث من مُطلَق الشعور، بل بناء على معلومات محدّدة. أنا اكتشفتُ ما كشفه (نوح) من قبل. اكتشفتُ (سيل المعلومات) يا صديقي. وهو أهمّ اكتشاف في عالمنا على الإطلاق. التفاصيل عسيرة على الشرح، لكن السرعة والغزارة في نقل المعلومات، فيما وراء قدراتنا التكنولوجية، دليل على زيف عالمنا. (السماء) تعرف ما لا نعرف. وبهذه الوسيلة تتحكّم فينا. أنا فقط أريد أن أعرف أكثر. لا تخبر أحداً بهذا؛ لأن في ذلك خطراً داهماً على حياتي»

- «عزيزي (فرويد)/ هذا الكلام يقلقني. ابحث عن مساعدة طبية فوراً. ولاحظ أن هذه الأفكار قد تقودك إلى حيث قادت (نوحاً) من قبل. بالطبع لن أخبر أحداً»

- «عزيزي (ملاك)/ أنا أكثر حذراً، وتعلّمت من أخطائه. أنا حالياً خبير تشفير، وأستطيع فكّ شفرات النظام. أنا ذلك الرسول الذي تحدّثت عنه ذات مرة يا (ملاك)، أنا الرسول العكسي، الذي سينبئ الناس بزيف الحقيقة، وهذا في حد ذاته حقيقة، لكنها حقيقة معكوسة، كصورة (نيجاتيف) لكلّ الكون. الأمور معقّدة، ولكن على أي حال فقد عرفتُ محطّات أعلى لنقل السيل. أنا على بُعد خطوات معدودة من الوصول إلى المتلقّي السماوي، المتلقّي غير العادي. وفرضيتي تقول إن الأديان



ذات أصل علويّ فعلاً مما وراء عالمنا، وكذلك الرؤى والأحلام، لهذا كنتُ أرى المستقبل. هل تتذكر نبوءتي بأحداث الاتحادية؟ الأديان نفسها نتيجة صراع في (السماء) بين تيار يريد للبشر معرفة الحقيقة تدريجياً، فأرسل لهم (وحيًا) بعالم آخر، وتيار يريد الإبقاء على جهلهم. لقد كان معنا كل الحق يا (ملاك) في قرارات الانتحار والتصفية والتدمير، هذا العالم المزيّف، الذي يدّعي الحقيقة، ليس له الحق في البقاء. الحقيقة في عالمنا ليس لها حقّ»

- «عزيري (فرويد)/ أنا غير متخصص، لكنني أعرف أن ضلالات الفصام تتمتع بنموذج من الاتساق، كالذي تحاول إقناعي به. ابحث أولاً عن دعم طبي، ثم أعد التفكير في الموضوع. بهذا تستطيع على الأقل استبعاد المرض العقلي»

- «عزيري (ملاك)/ الطب النفسي جزء من آلية التحكم لمنع الناس من معرفة الحقيقة، وتزييفها باعتبارها ضلالاتٍ أو هلاوس. ولا أستطيع، حتى إن شئتُ، إخبار طبيب بما أعرف؛ لأن (السماء) ستعرف. وتذكر أنني أنا نفسي كنتُ أداة تحكم حين أغرقتُ (نوحًا). لكنني أغرقته كي أطفو أنا. أكرّر لا تخبر أحداً أبداً»

- «عزيري (فرويد)/ اطلب على الأقل استشارة فيما يتعلق بأعراض (التزييف) كما تسميها. خذ حذرك في جميع الحالات»

..... -

- «عزيري (فرويد)/ مرّ أسبوع دون أن أسمع منك. هل أنت بخير؟»

..... -



- «عزيزي (فرويد)/ مرت فترة منذ آخر محادثة، كنتُ فيها مشغولاً مع (يونج). يجب أن تطمئنني عليك. ابعث برسالة في أقرب فرصة»

.....

- «عزيزي (فرويد)/ هل تصلك هذه الرسائل؟ أنا شديد القلق»

.....

- «عزيزي (فرويد)/ إذا كانت تصلك هذه الرسائل، فابعث برّد أرجوك»

.....

هكذا انقطعت بغتة ردود (فريد) تماماً. كان (منصور) قد أعد العدة للهرب من مصر، أما (فكتور) فقد كان شديد التوتر، يطالع الرسائل المشفرة عدة مرات في اليوم بقلق وهمّ بالغين، ويحاول إشراك (منصور) في همومه، لكن ذلك الأخير كان أكثر انشغالاً وعمليةً. وفي أحد الصباحات، وقبل أن يبدأ (فكتور) و(منصور) التحرك الفعلي في خطة الهرب، استيقظ الأول على هتاف الثاني، وهو يقول:

- (فكتور).. (فكتور).. اصحّ.

- فيه إيه؟ بوليس؟

- لا، خبر مفزع.

وأظهر له شاشة هاتفه، حيث ارتسمت صورة دامية غير واضحة، مع خبر يقول بالإنجليزية:

«مصرع طبيب مصري في حادث سير بإيران»



وكانت هذه آخر الأخبار، التي سمعها أحد - في عالمنا على الأقل -
عن (فريد).



٦ - نادي الانتحار

بعد عدة أسابيع أخرى نجح (فكتور) و(منصور) فعلاً في الهرب بأسرتيهما من مصر. وكما خطط (منصور) فقد توجهوا أولاً إلى تركيا، ومنها إلى إحدى مَدُن ولاية (شمال الراين - فستفالن) بألمانيا، حيث تعاون (منصور) مع بعض الإسلاميين هناك لتيسير العمل والإقامة، وحيث يبلغ التعاون بين الإسلاميين هناك فعلاً حدًا كافيًا. ومع استقرار المقام بدأ الصديقان في تأسيس جماعتهما الجديدة، والتي خلت من أي نشاط عنيف أو إجرامي.

تناقشا كثيرًا في أسباب وفاة (فريد). كان (فكتور) يتساءل: هل كان فصاميًا، يتخيل كل تلك التفاصيل المتعلقة بأرض مزيفة وسماء حقيقية، الأمر الذي دفعه إلى انتهاك الحدود المعلوماتية المقررة، كما سبقه إلى ذلك (أدهم درويش)، أم أنه كان على حق، وفي الحاليتين قرر الفافاك التخلص منه، أم أنه ببساطة راح ضحية حادث غير مقصود؟ هل تخلصوا منه لأنه أخبر أحدًا - (فكتور) نفسه - بما يعلم؟

أما (منصور) فكان له تصور أكثر تعقيدًا وغرابة: كانت فكرة (منصور) تدور حول إرادة خفية ربما في اللاوعي المعقّد جدًّا لـ (فريد). كان يعتقد أن في أعماق (فريد) عقدة ذنب هائلة، لم يعترف بها قط، وربما حتى ولا لنفسه، ناجمة عن تسببه في مقتل (سلمى) تحديدًا، لكنها اشتبكت



فيما اعتقده بيقين أقرب إلى القَطْع، بأنه رسول عكسي، لكنه رسول قاتل، وعليه - كي تتم رسالته - أن يكون رسولاً مقتولاً، وذلك الانتحار المَعْرُفي، الذي قام به (فريد)، لا يليق إلا به. هل هذا ممكن؟ ولم يصلنا إلى إجابة شافية.

وبرغم الأمان والاستقرار، فقد ضاقت بهذه الحياة المُسالِمة، والتي قبلها على مضض، من أجل أسرتيهما. افتقدا أيام الإثارة، والعمل التخابري، وشعور القوة المطلقة المُصاحب لحَمْل السلاح، وليالي المخدرات، واحتفالات ما بعد العمليات، وحوارات (تارانتيو) بين (هيثم) و(فكتور)، وتنظيرات (فريد) في السياسة والأدب وعلم النفس، وجمال (سلمى) الخارق، وردود أفعالها غير المتوقَّعة، وروح الفريق ذاته، برغم الصراعات الباطنة فيه. ليس من السهل على مَنْ عاش حياة المغامرة والخطر أن ينسى كل ذلك دفعة واحدة، حتى لو كان المقابل آمناً أسرته.

ظل (فكتور) يكتب الشعر في مهجره، ويشارك في بعض اللقاءات الأدبية المحدودة جداً باللغة العربية هناك. قام في السنوات التالية بتعلم الألمانية، لكنه لم يستطع قطّ تطويعها كما طوَّع العربية من قَبْل لإنتاج لغة وحشية، ترقى إلى حلمه بقصيدة جديدة. لكنَّ ما ناسبَ طموحه الأدبي بدرجة مُرضية هو إعدادُه لديوان شعري بالعربية، أقرب في هيكله العام إلى كتاب، قام بتقسيمه إلى أسفار وإصحاحات، وكتبه على هيئة فقرات، لا سطور وأبيات، ليكُون النصّ المقدس لتلك الجماعة الشيطانية الوليدة. واختار له عنوان «العهد الأخير».

وكان (منصور) منهمكاً كذلك في كتاب مختلف، يتضمن أدبيات نادي الانتحار. قصد به إلى تخليد إرث النادي، وربما كذلك إلى



الوفاء لجماعة أصدقائه الراحلين. يتضمن الكتاب تعريفًا بفكرة النادي، وتطوراتها، من العلاج الجماعي إلى الانتحار إلى الاغتيال، وأخيرًا إلى هذا الامتداد الجديد في ألمانيا، بحيث ترتبط هذه الجماعة الشيطانية نظريًا، وباستمرار، بأفكار (نادي الانتحار) عن العدمية، والثورة الوجودية، متضمنةً نسق النظريات، الذي كانوا يشقونه كنهر من الدم، وهم يمضون خطوة خطوة في سبيلهم الرهيب. يتحدث الكتاب كذلك عن التأثير السياسي للنادي في مصر، ولكن دون إشارة صريحة إلى العمل التخاطبي، أو إلى التنفيذ الفعلي لعمليات الاغتيال.

كبرت السماء ان: (سما فكتور)، و(سما منصور). وبدأ الصديقان في ترسيخ فكرة قداسة الطفلتين كعقيدة من عقائد الجماعة الشيطانية بين أعضائها، وذلك لتكُمِلا المسيرة من بعدهما، برغم مُعارضة زوجتيهما. وبدأت الطفلتان في النمو في هذا المناخ، مناخ القداسة، فاكسبتا تعاليًا وغرورًا، وشخصية أُمّرة، لها ما يفسرها. لكنّ (سما منصور) بالذات تربّت تربية مُبالغة في التدليل، وتنفيذ كل أوامرها، بحيث تحتفظ بطفولتها. وربما أراد أبوها من ذلك أن يخلد فيها بعض ملامح (سلمى) غير القابلة للتناسخ على أي حال.

ومرت السنون، وبدأ (منصور) يفكّر في إنتاج طبعة محدودة من كتابه عن (نادي الانتحار)، الذي يحمل العنوان ذاته، وذلك من خلال دار نشر صغيرة، افتتحها (فكتور) كلسان للأدباء العرب في المهجر. اختار (منصور) هذا العنوان لكتابه لأنه يعتقد أن فكرة الانتحار هي المبدأ الجوهرية، الذي بُنيَت عليه شتى أفكار النادي التالية، والمُحرّك الأساسي لكافة تطورات نشاطه، بناءً على فكرة (فريد) عن التحول الوجودي الحادث لمن يتراجع عن تنفيذ قرار الإعدام الذاتي.



و ذات مساء جلس (منصور) أمام مكتب (فكتور) بالدار مقدّمًا له الشكل الأخير، الذي استقرّ عليه. بدأ (فكتور) تصفّحه، فوجده يبدأ بتوصيف أعضاء النادي؛ هو و(منصور) و(سلمى) و(يمنى) و(هيثم) و(فريد). وأثار اهتمامه ما قام به (منصور) من رسم للشخصيات بيد موهوبة، صوّرتهم في ثياب الأبطال الخارقين، بعضلات بارزة، وأسلحة متنوعة، وتحتها أسماؤهم الحركية: (سالومي)، و(يسرا)، و(فرويد)، و(يونج)، و(ملاك)، و(شاهين).

يتطرق الكتاب بعد ذلك إلى أفكار النادي، حيث عُرض بعضها على هيئة محاورات فلسفية أو أدبية أو سياسية، ثم ينتهي بفقرات، اتضح لـ(فكتور) أن (منصورًا) كان يسجلها من حواراتهم أولاً بأول، كيلا ينساها، حتى وإن لم يكن قد سمعها من قائلها مباشرةً.

وبشكل لا شعوري، ولسبب غامض، بدأ (فكتور) يسترجع موسيقى Lara's Theme للموسيقار Maurice Jarre، التي تبعث على حنين بلا نهاية. وبدأت عيناه تدمعان، وهو يقرأ الفقرات، التي بدت له كأنها تُكوّن حوارًا بشكل ما، والتي ينتهي بها كتاب (نادي الانتحار):
- «هل قتلتَ روحك؟».

- «القوة الخارقة الوحيدة التي نملكها هي إرادة العدم».

- «إحنا ما لناش دية عند نفسنا، واللي ما لوش دية عند نفسه ما حدش له عنده دية. واللي له دية عند نفسه ما لوش دية عند حد».

- «أنتَ في اللاهوت ولا في الناسوت؟».

- «ستشعرون بالأمان في العالم؛ لأن هناك نافذة صغيرة تسمح بالهرب حين تتعقد الأمور. نحن لن نعرف الخوف».



- «أي دمة حزن لا لا لا..».
- «هو أنا ممكن أبوسك؟».
- «كل شيء متعادل مع سواه. لا فارق بين مكان وآخر أو زمان وغيره. لا خوف ولا أمل. استغناء كامل، وشعور بأنك فوق العالم».
- «في كل معرفة انسلاخ، وفي كل انسلاخ ألم، وبالتالي فالحقيقة ألم لا متناه».
- «حين تفقدين كل ما معك يا حبيبتي، كل شيء، سيكون هذا أنا، هذا هو كل شيء».
- «نحن حملة آخر وحي. ونحن كتبة العهد الأخير».
- «خبير تشفير حقيقي».
- «أنت رمز.. رمز».
- «بصيت على العالم. اكتشفت إنه مش حقيقي».
- «كل شهيد عمود من أعمدة السما».
- «مش عاوز يا أستاذ يبقى فيه مكان للسما على الأرض؟».
- «منطقي».
- «اكتشفت إن ليا.. ٣ أجسام».
- «الشهيد اللي بنكفر به مشروع كافر».
- «رسول عكسي، رسول غير مؤمن بالحقيقة».
- «عقل الإنسان زي عود الكبريت».



- «أنا جسمي هو المخيف».
- «إحنا في حرب حقيقية على العالم».
- «ربما ردتّ الريحُ بعضَ السماءِ
فضاع، وغطّته أتربةٌ
- تتوالى «على أوجه الشهداء»
- إلى أن يعودوا إلى أرضهم،
يحملون الرّماحا
- واحدٌ من جنودك يا سيدي
- سوف يكفي الشياطينَ فينا الكِفاحًا».
- «كويس.. كويس يا أستاذ».
- «أنا لازم أرقص».
- «على الفنّ أن يكونَ أكثرَ شراً من الحياة».
- «مُهمّتي أعرف».
- «الشخص اللي بيعيش في سبيل فكرة لا بدّ أنه يكون مخيف، حتى
في عيون أقرب الناس له».
- «أنا نصف بشر ونصف حجر».
- «ثلج.. ثلج».
- «الموت هو الكاشف الوحيد لحقيقة الحياة. ولكن فقط في حالة
إذا كنّا متوقّعينه».



- «الموت عظيم، مش بس لأنه مُبِيد للجميع، بل كمان لأنه خالق للواحد».

- «أجسام البنات مسمّمة».

- «إحنا الواقع بيحرقنا زي الشمس، زي القنابل الذريّة».

- «أنا أفكر.. إذن لا شيء موجود».

- «نحن مجموعة من المكتئبين، قررنا بعد فشل البدائل الأخرى أن نعالج أنفسنا بأنفسنا، وذلك عن طريق العلاج الجماعي. وحين فشلنا قررنا الانتحار الجماعي. هذا مقرّنا الدائم، وسيكون مقرّنا الأخير. فهل تقبل الانضمام إلينا؟».



تَمَّتْ

وُضِعَ هَذَا الْعَمَلُ بَيْنَ الثَّانِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ سِبْتَمْبَرِ ٢٠١٧، وَالرَّابِعِ مِنْ
نُوفَمْبَرِ مِنَ الْعَامِ نَفْسِهِ.

كُولُونِيَا - أَلْمَانِيَا



الكاتب في سطور

كريم الصياد.

من مواليد القاهرة، ٣٠ نوفمبر/ ١٣ ديسمبر ١٩٨١.

مدرس بقسم الفلسفة، كلية الآداب، جامعة القاهرة.

حصل على الدكتوراه في فلسفة التأويل من جامعة Universität zu Köln بألمانيا الاتحادية في يناير ٢٠١٨.

حصل على الماجستير في فلسفة الحق من جامعة القاهرة في يناير ٢٠١٢.

عضو اتحاد كتاب مصر.

عضو الجمعية الفلسفية المصرية.

حصل على عدد من الجوائز الأدبية المحلية، وعلى جائزة النقد الموسيقي بالمجلس الأعلى للثقافة لعام ٢٠١٦.

صدر له:

الأمر، ديوان شعر، دار اكتب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٧.

اثنتا عشرة عيناً على مشهد التسلُّط، (تحرير ومشاركة)، منشورات



الجمعية الفلسفية المصرية، دار الهاني للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٨.

منهج تربويٍّ مقترحٌ لفأوست، ديوان شعر، دار شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠٠٩.

ن = ∞، رواية، دار شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠١٠.

الرجال - Y، مجموعة قصصية، دار شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠١٠، وطبعة ثانية معدلة إلكترونية ٢٠١٨.

صدام الحفريات، مجموعة روائية، دار اكتب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٢.

النظام المتغير، دراسة في الديمقراطية، لأوسكار لوفل تريجز (ترجمة)، مركز جامعة القاهرة للغات الأجنبية والترجمة التخصصية، ٢٠١٢.

مقدمة إلى مبادئ الأخلاق والتشريع، لجبريمي بتام (ترجمة)، مركز جامعة القاهرة للغات الأجنبية والترجمة التخصصية، ٢٠١٣.

آلهة الغسق، ديوان شعر، دار شرقيات، القاهرة، ٢٠١٥.

نظرية الحق، دراسة في فلسفة القانون والحق الإسلامية، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ٢٠١٥.

Ontologie der Koranauslegung. Eine phänomenologische Annäherung an die islamischen exegetischen Methoden.
urn:nbn:de:hbz:38- 84314.



عدد من الدراسات الفلسفية والأدبية والموسيقية في دوريات عربية
ومصرية وأوروبية ورقية وإلكترونية.

له تحت الطبع:

الأغشية، ديوان شعر.

نظرية الحقيقة، دراسة في منهجية تفسير القرآن (رسالة الدكتوراه
مترجمة عن الألمانية).

السيكوبوليطيقا، الليبرالية الجديدة وتقنيات القوة الحديثة، ليونج -
شول هان (ترجمة).

البريد الإلكتروني: k.elsaiad@daad-alumni.de

